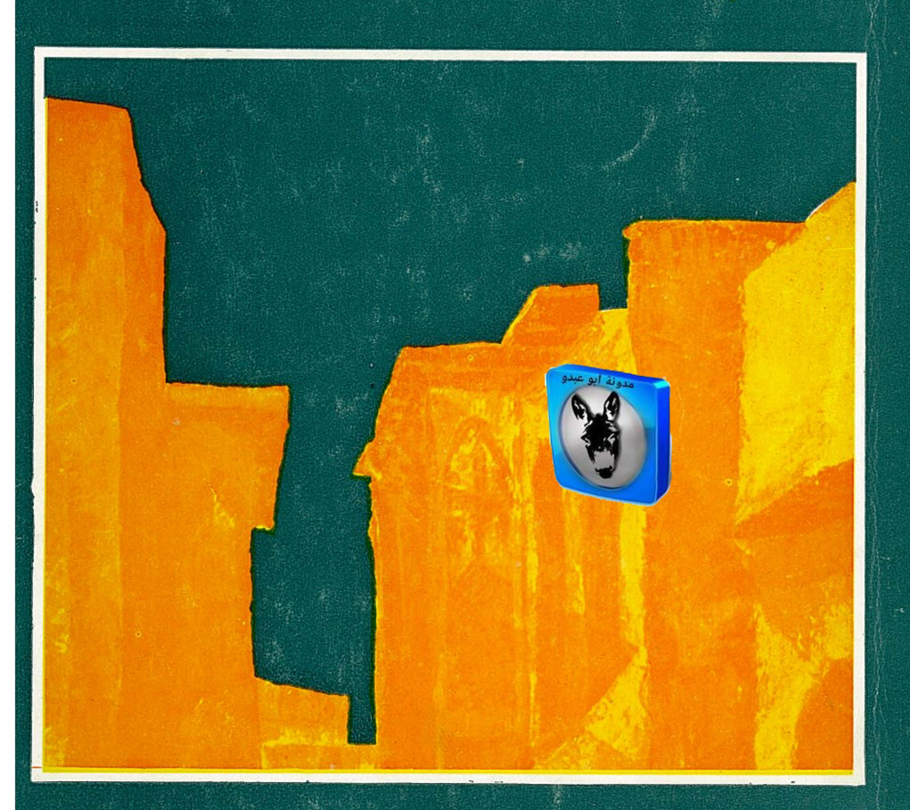
غائب طعمه فرمان



ظلال على النافذة

دار الاداب - بيروت

غائب طعمة فرمان

ظلال على النافذة

رواية

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الاولى
آب (أغسطس) ١٩٧٩

الى ابنتا فرمـــان

في حياتنا نمـــر بتجارب يورق لنا بعضها أجمات من الذكريات تصحبنا في طريق حياتنا ردحا من الزمن ثم نخلفها وراءنا في سير القافلة الذي لاينى ونحسب اننا قد نسيناها، وأن رياح العمر قد ذرتها . ولكننا نفاجأ بها أحيانا تطــل علينا ، مع تقدم العمر ، كظلال على نافذة ذاكرتنا . وقد تعذبنا هذه الظـــلال ، وتجـــرح أحاسيس عزيـــزة علينا اكتسبناها بالتعود وبالتزود بتجارب جديـــدة ، ولكننا لا نستطيع منها فرارا ، فقـــد صارت جزءا مـــن ضميرنـــا وذاكرتنا ، ولا مهرب منها ولا منجى . وعزاؤنا هو أن من لا ذكريات له لا ذاكرة له ، ولا نافذة يطل منها على التاريخ ... عندئذ يصير كل شيء سواء لديه .

ظلٌ...

- ١ -

عبد الواحد الحاج حسين نجار مرموق ، ورث النجارة من سابع ظهر ، وتدرج من صنع المهود والتوابيت الى صنع موبيليات العرائس التي كان يسميها « مال بيّات » والعم عبد الواحد ، ابو ماجد الوردة ، حاضر البديهة ، مشغوف بأخبار الناس .

ما مرّ شخص مـــن دكانه الا وحظـــي بتحية ، او استفسار عن الصحة ، أو تعليق أردفه بنكتة خفيفة على القلب . ولكن العم عبد الواحد صامت اليوم سادر ، مبحر في سبعة بحور . يقبع على كرسي قديم مهترىء لا يعرف أحد لماذا يحتفظ به طوال هذه المدة في دكانه المملوء بالاخشاب الصقيلة ، والفواح برائحة السبيرتو والدملوك . العم عبد الواحد مهموم يجابه مشكلة لم يجابهها طوال حياته ، ولم يجابهها أحد من آبائه واجداده ، ولا من اقاربه الاقـــربين والابعدين ، ولا احد من حيه القديم ، ولا عائلة واحدة في حيه الجديد ، في اغلب الظن . بل لم يذكر انـــه ســـمع بمثلها ، او روى احد له شيئا من هذا القبيل ... وهـــذه المشكلة الفريدة العويصة ، المدوخة للراس والمندية للجبين هي ان زوجة ابنه المتوسط الجاهلة الرعناء قد خرجت من البيت البارحة ... ولم تعد حتى الان . لا احد يعرف الى اين اتجهت ووارت وجهها ، ولا اين قضت ليلتها ... وهل

ذاك هروب ام زعل واختفاء عن الانظار ، هل هو تمرد وعصيان ، ام خفة وتصرف أرعن ؟ ثم كيف تستطيع بنت مستورة ان تغادر بيت زوجها دون ان تستأذن اهله ؟

اليس ذلك عارا ، فضيحة للعائلة كلها ؟ وماذا سيقول الناس اذا سمعوا ؟ سيكون عبد الواحد المستور مضغة في افواههم ، اضحوكة لمجالسهم ، تهامسا خبيثا ، أذا اجتمع اثنان في مجلس او طريق . ولهذا فهو معتكف في كرسيه الكسيح كأنه يختفي عن الانظار ، يغيب عن هذه الدنيا التي تبدو ، في لحظة واحدة ، دربا مستقيما تسير فيه مغمض العينين ، وأذا بك تفاجأ بحفرة عميقة ، وحجر عثرة كاسر الظهر والرقبة .

سحق عبد الواحد عقب سيكارته كالحشرة في طرف خشبة مهملة ، وتأرجح بين الغيظ والاساءة . لن يغفر لها لن يغفر ... عسى ان تسحقها سيارة ، عسى ان تغطس في بالوعة ، عسى ان تغرق في النهر ... عسى ... عسى ... ثلمت عرضه . وهتكت ستره . جعلته يواري نفسه عن الناس ، وينزوي في هذا الركن لا يفكر الا بالمصيبة ألتي حلّت به ، ويتوقى رؤية الناس خشية ان يسألوه ، وكأن خبر هروبها قد شاع وعم وطبق الدرابين . ويقول عبد الواحد لنفسه : هذا ممكن ! لان الناس شغوفون باذاعة الاخبار السيئة اكثر بألف مرة من استعدادهم لنقل خبر مفرح واحد !

... الفضيحة تنتشر مثل رائحة كريهة ، مثل دخان حريق في بيت مكشوف ... بينما اذا فعلت خيرا ، لا تجد الا القليلين ممن يذكرونه .

تأفف العم عبد الواحـــد ، ومدّ يــده وتناول علبة السيكائر من على الارض ، واشـعل سيكارة ، وملأ صدره بدخانها الجاف . تنحنح ونظف صدره ، واحس بأنه ينفث مع الدخان هما ملبدا في صدره ، وسما كان يسري في روحه، حتى احس براحة خاطفة ، عندما خفف الثقل الذي يجثم عليه ، وغاب عن الدنيا وهمومها في لحظة مـــن السهوم والنسيان ، فتصور ان حسيبة ما تزال في البيت لم تغادره ، وان ذلك مجرد وهم ، وسوء ظن ، كما امتلأ قلبه منها في الاسابيع القليلة الماضية من رعونة وعدم اكتراث وتجاهل للمصيبة التي هي فيها ... أو ربما خرجت حقا ، وقـــد عادت الان ، ووقعت على راس عمتها لثما وتقبيلا ، مبللة اياه بدموع الندم والحسرة ، قائلة : « عمه ! كنت متضايقة فخرجت اشم الهواء وتهت في الـــدروب . بغداد القديمة تهدمت ، ولم يبق منها غير خرائب . وبغداد الجديدة شوارع يتيه فيها الناس . وداخ راسي ، وشعرت وكأنني في ولاية اخرى » . وللحظة يصدق عبد الواحـــد بهذا الهاجس ، ويعطيها العذر . صحيح ! يقول لنفسه . بغداد العتيقة صارت منخلا ، خرائب بابل . وانا ، في هذا العمر أحس احيانا بأن راسي يدور مثل البروانة !

ويتخذ تفكير عبد الواحد مسارا اخر . لعلها حنّت الى بيتها القديم حقا . كم مرة حنّ هو الاخر الى بيته القديم ، البيت الذي تربى فيه ، وتزوج ، وانجب ، وزرع سني عمره في ارضه المتربة . رغم انه يقضي سحابة نهاره في حي لا يختلف شخطة واحدة عن حبه السابق . فكيف هي التي لم تخرج مرة واحدة خلال ثلاثة اعوام ؟ ثم يعود فيقول

لنفسه : ولكن الى اي شيء تحن ؟ الى خرابة ؟ حتى الخرابة يمكن ان تحن اليها ، اذا تركت عزيزا فيها . ولكن أي عزيز تركت حسيبة ؟ تركت ... تركت عمتها .. او تلك التي تسميها عمة . كل شيء جائز في هذه الدنيا . ربما رغرغت روحها بعد هذه السنين الطويلة ، ركبها الشوق الى حياتها الاولى مثلما يركب جني آنسانا ، وخرجت لشمة هوا . كل انسان تمر فيه أوقات يريد أن يتخلى فيها عن كل شيء ، يهجر كل شيء ، يهرب حتى من جلده ، ليبقى هو ونفسه ، وجها لوجه . خرجت حسيبة من بيت عمها ، وعبرت الشارع المقابل للبيت ، وسارت في شارع مجاور . ودمدمت مع نفسها ، واخذتها العرامة والضيق أو تنفست رائحة زمان ، ونسيت البيت والزوج ، العم والعمة ، ونفسها أيضا . تاهت في شوارع بغداد ، كل شارع بعرض النهر . تاهت من صحيح . وخشيت أن تسأل ، ممنية نفسها ان تجد بيتها في العطفة الثانية . وبيتها يبتعد ويبتعد ، ويتغلف بالطرق والمنعطفات . ربما لم تأخذ فلسا واحدا حين خرجت . حين يستبد الضيق بانسان ينسى حتى ملابسه ، ويفرّ عريان . وعندما جنّ الليل خشيت أن تعود وانهارت من المشي والتعب والجوع ، ونامت حيث هي ، كالكلبة او القطة الشاردة . نامت تحت سياج بيت غريب كالمتسولة ... كل شيء جائز في هذه الدنيا . ويحس عبد الواحد باشفاق ابوي عليها . ويزداد يقينه بأنها ستعود . ربما ستعود اليه بالذات ، رغم انها لا تعرف موقع دكانه بالضبط . ستسأل وسيدلها الناس . ستأتي قاصدة اليه ، تطلب غفرانه اولا ، فهو رب العائلة . ستأتي اليه مبللة

انوجه بالدموع ، ناعسة العينين من السهر ، مغبرة الملابس من النوم على الارض ، خائرة القوى من الجوع . ستأتي اليه اليوم ، بعد قليل ، الان . وستقع على قدميه تقبلهما ... استغفر الله ... استغفر الله .. سيقول لها ، وامام الناس ؟ اذهبي الى البيت . وهناك سنرى . هل يوصلك صبحي ؟ ويكتسي وجهه جهامة ، وتلتمع عيناه بالشرر ، ويتحاشى النظر اليها .. الى كل شيء . ينكمش على نفسه . يريد ان يخلو الدرب من الناس ، ليتم المشهد المؤثر بينه وبين حسيبة بدون رقيب ولا حسيب . فهي ، على أية حال ، زوجة ابنه ، عرضه . ويتأوه ، وتأخذه شفقة جريحة . الاصبع التي تؤلمك لا بدّ ان تداويها . اصبعك منك ، لحمك ودمك وعظمك . ويتصورها قريبة منه ، في هذا الزقاق او ذاك . تسير مترددة ، مذلولة مدحورة ، خائفة واجفة ، تقدم وتحجم . تنتظر خلوّ الدرب من السابلة . والدرب لا تنقطع عنه رجل . ولكن صبرك ، ستأتي اليك . ستأتي لا محالة . المسافة تقصر ، الدروب تضيق . خطواتها تقودها اليك . ذنبها كالدم يصرخ طالبا الغفران . وكأن احدا اجبرها على ان تفعل ذلك . ذنبها على جنبها . أوه ، الشباب . يقدم ويندم . وكم ارتكب من حماقات ايام زمان حين كان شابا . كم مرة ترك دكان ابيه والمسامير قد خرمت باطن قدميه . وقال لنفسه : لن أعود . ولكنه عاد ، وهو رجل ، وهي بنت تحتاج الى ستر ، سقف يؤويها . ينتظر عبد الواحد الحاج حسين في مخبئه ، على كرسيه الكسيح متحاشيا الناس مترقبا قدومها . ويغيّر النهار اثوابه ، ويتناوب الضوء والظل المساحات ، ويهتز الهواء بالحركة والضجيج وتتماوج الاصوات والروائح .

تنبه عبد الواحد على صوت :

ـ ابو ماجد ، هل اذهب لأجلب غداءك من البيت ؟

رفع راسه . صبيح الصانع ينظر اليه .

ـ غدائي ؟ ... من البيت ؟ لا ، لا ... لا اشتهي اليوم .

وبعد دقيقة يفطن :

ـ خذ هذه فلوس . وتغدّ لوحدك .

لم يرد أن يعرف احد بغياب حسيية . وكأن صبيح سيدخل البيت ، ويكتشف سر العائلة . كان يريد أن يبقى البيت خارج منطقة يقينه ، ليتسلى بالامل اطول وقت ممكن . البيت اخر مرحلة من مراحل جولته بين الظنون والامال ، لا يريد أن يكتشفها الا هو ... سيبقيها الى اخر النهار حين يقفل الدكان ويعود الى البيت . او ربما ستأتي فضيلة، وتهمس له : وصلت العروسة ؟

وخلا الدكان به حين ذهب صبيح ليتغدى . وشعر بانقشاع سحابة كانت تمتد بظلها على الدكان كله ، وتطل عليه . صار الان مستعدا لمواجهتها .. سينفذ الى اغوار عينيها ، وينتزع منها سر غيابها ، ويعرف اين كانت . وسيجابهها بوجه يتفجر غضبا ، وعينين تتوقدان نارا . ويقول لها : ارجعي الى البيت وهناك سنتحاسب . ولا يشفق عليها في اية هيئة جاءت . كل شيء الا الخروج من البيت . كل شيء الا ثلب العرض . ويخمد عبد الواحد في كرسيه وكأنه بذل بالفعل الجهد الذي ستقتضيه هذه

للمواجهة وحدهما ، وجها لوجه . ويشعل سيكارة اخرى قبل أن يفطن الى انه لم ينته من تدخين سيكارته السابقة. ويقول لنفسه : من الخير ان يعود الى البيت ، ويراهـا هناك . من الخير ان تأتي الى البيت قبله . ذلك اضمن لكتمان الفضيحة . الرجال يعقدون المسألة والنساء يتفاهمن بسرعة . النسوان كلام وعتاب وصياح ودموع ، وقبل وعناق ، وتسوّى المسألة .

تلوّت معدة عبد الواحد من تسرب الدخان أليها ، وهي خاوية فعصرته عصرا موجعا . امسـك بطنه بيده اليسرى ، وحاول ان يضغط على العضلات ليخمد الوجع في الاعماق المتقرحة . ولم يوفق كثيرا . ومن خلال جرح الالم تواردت على ذهنه افكار مؤلمة أيضا . من يدري ! ربمـا قابلها شاب ارعن ، واختطفها . اعوذ بالله ، اختطفها ... سألته ليدلها على بيتها ، فدلها على بيته . أوه ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ! يا للعار ! يقضي وطره منها ، ويلقيها للكلاب . لا يهمه أن عائلة بكاملها تتعذب بسببها ، وشرفها معلق بخيط رفيع . ويتصور عبد الواحد تصورات رهيبة . وتطبق غصة على حلقومه فيحس بضيق نفسه ، وخشونة الاصوات الطالعة من أنفه . لعن الساعة التي وافق فيها على الزواج . كان يريد الخير . يتيمة مقطوعة يستجيرها بيت مستور ، وعائلة منطوية على نفسها . عندما قالت له زوجته : « فاضل شاف له زوجه بنفسـه » بهـت عبد الواحد . تدلى فكه الاسفل . « اين وجدها ؟ » « في عرس احد اصدقائه » ، « وبهذه السرعة ؟ ومن أول نظـرة ، دون أن يسأل عن اصلها وفصلها ؟ » وضحك عبد الواحد

آنذاك ، وهز رأسه من مرح حقيقي . هذا أول ابن يعلن عن انفصاله عنه ... والان ، وعبد الواحد يتذكر تلك العجلة التي تمت فيها الخطبة ، وذلك اللهاث الذي كان يتردد في صدر فاضل ، وكأنه جائع مقبل على وليمة دسمة ، يتعجب كيف كان سلسا مطواعا ، مدفوعا بقوة استسلام غريبة ، او مرح لا يعرف مبعثه ، وكيف قال جملته النكراء اللامبالية :

ــ « انت الذي ستتزوج ام انا ؟ » اعترض فقط ان ماجد لم يتزوج قبله . ولكن ماجد كان يكمل دراسته في الخارج ، ولا أحد يعرف متى سيعود . وهل اذا عاد تزوج في الحال أم انتظر الوظيفة ، والزوجة اللائقة وما الى ذلك. بينما العمال الذين يكدحون يملكون عادة رؤوسا حارة ، وقلوبا ملتهبة . وبيه الخير ومبروك والف بركة . ومن يستر يفز بالستر ... الستر .. الله اكبر ! ويختنق عبد الواحد ، تتقطع انفاسه في صدره ويتحشرج دخان السيكارة . ويلهث وكأنه حامل طنا من الخشب .

ــ ابو ماجد !

انتفض جسمه كله على هذا النداء . وللحظة قصيرة تصور ان شخصا غريبا جلب حسيبة معه الى الدكان . رفع رأسه وفتح عينيه واسعتين وكأنه يريد ان يستوعب المشهد كله دفعة واحدة وبلا مفاجآت كثيرة . الطامة الكبرى تهبط دفعة واحدة . لم ير حسيبة ، بل رأى شخصا يعرفه يسد الدكان بظله الاسود ، وصبيح وراءه .

ــ ابو ماجد ، اراك مخطوف الوجه ، هل انت مريض؟

ــ لا ، لا ، ابدا

نفى ذلك بحركة قوية مرعوصة من جسده كله .

ــ لعلي قطعت عليك افكارك .

ــ لا ... غفوت قليلا .

عادت اليه حواسه شيئا فشيئا . نهض من كرسيه متثاقلا موجع المفاصل ، وخرج من الدكان ، ونظـــر عن يمين وشمال . ثم وقف امام الرجل صامتا زائغ البصر . بادره الرجـــل :

ــ ابو ماجـــد ، هل تريد خشبا ؟

ــ أي خشـــب ؟

ــ معاكس .. اليوم رايته في السوق .

ــ والله انا محتاج اليه .

ــ اذهب الان ، قبل ان ينفد . هذه الايام لا تبقـــى الحاجة في السوق اكثر من ساعة واحدة .

ودَّ لو يذهب الى السوق حقا . سرت فيه خفقة من حيوية ، سرعان ما همدت . وعاد اليه شلله ، واستسلامه الى الانتظار ، ووجمه .

فتحت له ابنته باب الحديقـــة حين سمعت حركـــة سيارته . أدخل « البيك اب » في الممر المسقف بألـــواح جديدة صنعها هذه السنة ، ولم يصبغها بعد لتتسلق عليها في الصيف اغراس العنب الفتية . سمع دقات قلبه حين اطفأ المحرك مثل مطرقة مكتومة الرنين تدق في الصـــدر . جلس لحظات ينتظر ان تغوص المطرقة في أعماق الصدر ، ليفرغ بكليته الى ما يجري داخل الجدران التي بدأ جوفها اسود غريبا عليه . وقفت ابنته تنتظره . أحس بأنهـــا

تراقبه . نظراتها تتشبث به متسائلة مستغربة هذا الهمود الغريب عليه . لم يرد أن يبدي خورا أمامها .

فح باب السيارة ، وقال :

ــ فضيلة ، تعالي خذي الخس من السيارة .

ونزل بتؤدة رصينا باردا ، كأن الزعازع لم تعصف في نفسه اليوم . رمق الحديقة بأزهارها النامية ، وشجيرة النارينج المستنبتة . وقال في نفسه : تحتاج الى رعاية . كنت أتصور أن ماجد ، عندما سيعود ، سيهتم بها ، ويرعاها . هو الوحيد الذي يحب الزهور والرياض ، ويهيم برائحة القداح ، ويشتهي النومي الحامض ، وهو اخضر . ولكنه عاد وكأنه لم يعد الى اهله » . اشعل عبد الواحد سيكارة ودخن محدقا في اركان الحديقة الصغيرة ، قاطعا بقسوة شرائط الصور التي كانت تتابع على ذهنه ، مطيلا امد ما ينتظره من مفاجأة في بيته . هل عادت ام لم تعد ؟ عادت . لم تعد . عادت . لمتعد . وقذف بالسيكارة دون ان يطفئها حانقا على نفسه ، وعلى تشبث الوساوس فيها .

ودخل البيت . لمح زوجته جالسة وحدها على الاريكة في غرفة الجلوس الى اليمين . القى عليها : « ها ! » عابرة قصيرة لا ابالية كمن لا يريد ان يقول شيئا على وجه التعيين سوى أنه قد حضر . وتردد بين الجلوس ، والاغتسال ثم اتجه الي المغسلة تحت الدرج المؤدي الى الطابق الثاني حيث ... وغسل يديه ببطء ممل ، محاولا أن يلتقط جوابا لما يدور في خلده الان ، يخربش في صدره كالفار الحبيس . وارهف سمعه الى حد التوتر . لا شيء غير طقطقة خفيفة

في المطبخ . فرك عبد الواحد يديه ، وسكب الماء على وجهه، وشمله صوت الماء المسكوب ، واخفى عنه العالم المتوجس الصامت لحظات . نشف وجهه ويديه واتجه الى غرفة الجلوس ، دون ان يعرج الى المطبخ على عادته ليداعب فضيلة بسؤاله المعهود : « ماذا ستطعميننا مما رزقك الله؟» رأى زوجته جالسة جلستها المعهودة . عندما رأته انزلت ساقيها من على الاريكة . كانت هذه الحركة اكراما له ، لانه كان يعيرها بأنها ما تزال تحن الى الجلوس على الارض ، وزوجها صانع موبليات ممتاز . جلس صامتا على الاريكة قبالتها . ورمقها بنظرة خاطفة في الضوء الشاحب ليعرف ما تنبىء به قسماتها . لا شيء غير التوجس الحذر ، والتكتم الوجل .

ربما لا تريد ان تقول له بنفسها شيئا ، بل تنتظر ان تدخل الشريدة العائدة ، وتعلن عن ذنبها ، وتطلب الغفران. تقع على ركبتيه بالتقبيل ، وعلى رأسه باللثم . ولم يفتح عبد الواحد فمه بكلمة ، منتظرا تلك اللحظة ، ممنيا نفسه بها ، ستأتي الان ، من المطبخ . او يسمع وقع أقدامها ، وهي تهبط الدرج قادمة من غرفتها في الطابق الثاني .. ام لعلها تخاف ؟

ماذا ستقول له ، وكيف ستواجهه ؟ ويطول الصمت ، ولا تأتي المفاجأة . والبيت يخيم عليه صمت القبور . صمت ينخر القلب ، ويشل المفاصل ، ويذهل الفكر .

دخلت ابنته وقالت :

ـــ هل اصب العشاء ؟

لم يرفع اليها عينيه ، بل قال باسترخاء .

ــ انتظري ... اريد ان استريح .

وكأنه يتوسل اليه مان يشفقوا عليه ، وينبئوه بالخبر اليقين ، ولا يتركوه يتارجح في فراغ الظنون . ثم قالت زوجته بلهجتها الناعسة الباردة :

ــ اليوم لم يأت صبيح ليأخذ غداءك .

ــ ذهبت الى السوق وتغديت هناك

ــ بقينا بالوسواس .

ــ على اي شي ؟

ــ كل شيء يجري في هذه الدنيا .

ــ الذي يجري يجري . فضيلة ، اعطيني ماء لأشرب .

قال ذلك مجاريا اياهم بلا مباليتهم المفتعلة هذه ، بصمتهم الموسوس . لا شيء جديد ، اذن . البيت كما تركه في الصباح . لم تعد الزوجة الهاربة ، البنت الشقية انتي رفضت الدفء العائلي ، والسقف المأمون ، وهامت في الشوارع مع القطط والكلاب السائبة . واحس عبد الواحد براحة حزينة . واطلق نفسه من اثار الصمت الابله الذي وضع نفسه فيه خائبة مدحورة . راح يتحدث مع زوجته عن غلاء اسعار الخشب ، وتقلبات السوق ، وانعدام المراد .

ــ لا يلحق النجار ان ياخذ شغلة بسعر معين حتى يرفع التجار سعر الخشب مرتين ، ويخسر الصفقة .

ــ ماكو حكومة تحاسبهم ؟

ــ يا موسى انت وربك .

وآسته بكلمات مبهمة فارغة لا تساوي الجهد الذي انفقته عليها . فأحس هو الاخر بأن كلماته أفرغ من كلماتها، وانه ، بذلك ، يلعب لعبة خائبة لا يستدر بها أي تجاوب ، ولا ينفذ الى ما في القلوب . نادى ابنته لتجلب له العشاء كلية الهية يستعيض بها عن زم الشفاه . ألا أن فاضل جاء بعد اللقمة الثالثة . جـاء رث الهيئة ، مسـود الوجه ، متعثرا ، متخلخل الحركة ، مهزوز الـذراعين كأنما فقـد السيطرة على اعضائه . وسلم سلاما باردا رخوا ، وطاف في الوجوه بنظرة زائفة لهفى ، وفي ملامـح وجهه المغبرة جزع وانقطاع وتيبس . كأنه يسأل : ها ؟ هـل جاءت ؟ تجمدت نظراته المتسائلة في الجـو مثل قطـرات دموع ، واشعره ذلك بالوحشة وفراغ القلوب ، فابتعد عن الغرفة والجالسين فيها ، وصعد السلم بخطوات مسرعة ، واختفى في العالم المعلق هناك . شعر عبد الواحد بأن فمه يجف ، واللقمة تفقد عصارتها . كانت نظرات ابنه الجليدية تحمل تحديا قتالا ، استهانة ، عدم اكتراث كافرا ، كأن البيت خلا من اهله ، ولم يبق الا الشيطان المتمثل في الاب ، فيـه ، قابعا مكسور القـرنين .

نبعت من اعماق عبـد الواحد نقمة شديـدة توترت كالقوس ، ظلت تتوتر في أعماقه دون أن يعرف الى من يوجه سهمها ، حتى استقر على حسيبـة ، الشريـدة الكافرة بالنعمة . قال مثلوم الصوت من الاساءة البالغة :

ـ حسيبة نغصت علينا عيشتنا .

والقى الملعقة من يده ، وعاف طعامه باحثا في جيبه عن علبة السيكائر . رفعت زوجته اليه عينيهـا مكلومتين

خاليتين من البريق ، ولم تقل شيئا بل غيرت من وضع ساقيها المتدليتين على الاريكة ، وكأنها تعلن بذلك عن طواعيتها له . عاد عبد الواحد يقول :

ــ لا اعرف ماذا فعلنا لها حتى تكفر بالنعمة .

وجوبه بصمت ايضا . كأن البيت كله ، بيته هو ، انقلب الى مؤامرة صمت ضده . صار ينفث الدخان بأنفاس متتالية وكأنه يطرد أشباح السكون المخيم على البيت المفجوع . ثم سمع دمدمة من اقصى البيت ، من الطابق الثاني ، من أعلى الدرج ، ثم طبطبة نعال على الدرج مصحوبة بولولة مخنوقة . صاحت الام :

ــ فضيلة ، ماذا جرى ؟

ــ فاضل لا يريد ان يأكل ، ولا يريد ان يبادلني كلمة واحدة . كأنني انا التي طردتها . ما دخلي في الموضوع ؟

واجهشت فضيلة تبكي في الصالة ، وطاف صوت البكاء في ارجاء البيت حتى استقر في المطبخ ملاذها الدائم . ومن هناك تواردت الكلمات الناحبة كالتوسلات :

ــ كنت اطعمها واغسل ملابسها ، كنت ..

وترامت جهشات متقطعة شجية . ذهبت الام لتواسيها .

ولولة وبكاء . استرضاء ونشيج . همهمة حسرات . عجيب ان هذا البيت انقسم الى عوالم صغيرة ، منفصلة عنه ، عن عبد الواحد . كان كجرة ماء عذب المذاق ، فاذا بها تتهشم قطعا ، وقحوفا تتناثر في الاركان . ويحس عبد الواحد بأنه « قحف » مرمى في غرفة الجلوس ، مهمل لا يعبأ به احد ، وانه قد سلب أعز ما لديه ، بيته الذي بناه ،

العائلة التي انشأها ، الابناء الذين رباهم ، الزوجة التي خدمها مثلما خدمته . كلهم ابتعدوا عنه ، وتركوه وحيدا معزولا . ضاق صدر عبد الواحد ، وضرب ذراع الاريكة حنقا . ونهض دون ان يعرف ماذا يفعل ، ولا كيف يتصرف. هل يغادر البيت مدحورا مشردا ؟ هل يذهب بنفسه الى النسوان يختلس السمع اليهن ، ويترضاهن ؟ هل ... وفجأة رأى فاضلا امامه . لا يعرف كيف هبط ، وانشتل امامه . كان يواجهه بنظرة خاوية نكراء وكأنما يئس من أبوته كليا ، أو كأن هذا الواقف امامه عدو متنكر له .

قال عبد الواحد في عتاب جريح :

ـ بابا ، ماذا فعلنا لك ولزوجتك ؟

صمت فاضل ، وكأنما فرغ فكره من كل شيء . جمود . ذهول . لا ابالية . وعاد الاب يقول :

ـ قل لي ، ماذا فعلنا لك لتمتنع عن الطعام ، وتقاطعنا كالجرب ؟

بصوت اجوف لا حرارة فيه :

ـ لا ، لم تفعلوا شيئا .

ـ ماذا اذن ؟

ـ مجرد انكم جعلتموها تهرب

صاح عبد الواحد :

ـ ماذا ؟ جعلناها تهرب ؟

اكتسب صوت فاضل شيئا من الحرارة :

ـ نعم . غادرت البيت بسببكم .

ـ يا عالم ، يا ناس ... بسببنا ؟

ـ نعم ، بسببكم .

ـ ماذا فعلنا لها ؟

ـ كان بامكانكم ان تكفوا عن مناكفتها .

ـ ناكفناهـــا !

ـ أنا راض ، فلماذا تتضايقون انتم ؟

ـ تقصد تلك المسألة ؟

ـ نعـــم .

ـ ولكن هذا يخصنا بقدر ما يخصكم .

ـ انا قنعت بنصيبي .

ـ والناس ماذا تقول ؟ فاضل عبد الواحد ...

ـ انا تزوجت حسيبة ، وليس الناس .

وراء هذا الاصرار البارد ثقة لدنة تلتوي ولا تنكسر . من اين يأتي الشباب بعناد الخروف هذا ؟ كظم عبد الواحد الغيظ في نفسه . ونظر الى الشاب الطويل القامة الوديـــع على كل ما فيه من عناد ، يستدر العطف دون أن يستجديه. ام هي الابوة توحي له بذلك ؟ كان وجه فاضل هادئا ناضبا، كأنه فرغ لتوه من نوبة بكاء . وكان يقف أمامه متهيئا لكـــل شيء ، فاقدا كل شيء ، عرضة للاذى والانكسار . جاءت الام ووقفت وراءه . الاصل والصورة . الرحم والنطفة . وكلاهما خارج ارادة عبد الواحد .

قالت الام :

ـ ستأتي . انا واثقة من انها ستأتي . ياما زعلت ، لملمت حاجاتي ، وذهبت الى اهلي .

ــ وهي ، من عندها لتذهب اليــه ؟

ــ لهذا يجب ان تطمئن اكثر .

ــ لا اظنها ستعود .

ــ ساقص شعري ، اذا لا تعود .

قالت امه ، وهي تحاول ان تتلمسه . نظر اليهــا ، وكانه ليعرف مبلغ جديتها . عادت أمه تقــول :

ــ لن تجد احدا يؤويها فستعود .

وللحظة استوعب فاضل عمق الهوة التي القت حسيبة نفسها فيها ، وهي بلا بيت ، ولا أهل ، ولا صديقات . ولانه تصورها تهيم في الشوارع الان ، هفا هو الاخر الى الشارع. ألقى نظرات شاردة الى امــه وابيه ، وصينيــة العشاء المتروكة ، وباب البيت المغلق ، واطلــق زفرة حبيسة ، واتجه نحو الباب .

توسلت امه اليــه :

ــ تعشّ .

ــ لا احس بجوع . اريد ان اخرج .

ــ تعش واخرج .

ــ البيت الذي لا يضمني معها موحش كالقبر .

وغادر البيت بخطى مرتبكة .

ظل عبد الواحد معتكفا في غرفة الجلوس المظلمــة وقتا طويلا منفردا بنفسه ، مقطوعا عن اهله ، حتى تعب من جلسته الضائعة المتخدرة ، وكانها سجدة غير مريحة كان يمني نفسه بانه أذا رفع راسه منها راى معجزة . غادر بفكره بيته الى بيوت ودروب واناس ظلوا يبرزون من شباك مخيلته الرمادي ، ويتبادلون معه جملة او نظرة او ابتسامة،

ثم يتركونه حجرا ملقى على قارعة الطريق . كانوا يأتون بلا ترابط وبلا معنى من اماكن مختلفة ، وأوقات متباعدة ، بأصواتهم وروائحهم وهيئاتهم التي لا تخطر على بـــاب : متزاحمين متداخلين عجالى مهزوزيـــن ، يشيرون اشارات مبهمة الى وقائع واحداث حقيقية او محوّرة ، ثم يتلاشون كالاطياف ، يبتلعهم ظلام الغرفة الهش .

تنحنح عبد الواحد ، وهز راسه ونادى :

ــ ربـــاب !

خـــرج صوته متحشرجا قبيحا في الصمت البارد . ولم ترد عليه زوجته . الغرفة خالية . ومن جهة المطبخ كان يتسلل ضوء شاحب ، لا بد انه ضوء المصباح الاضـــافي فوق مغسلة الاواني في المطبخ . نهض عبد الواحد ، وحاول ان يتجاوز المطبخ ، حيث تكدح ابنته كدحها الابدي ، كأنها سبة لوجوده كله ، كفران بماله وجاهه وشرفه . خشي ان تبادره بكلمات جريحة . فان كلماتها اخذت تكتسب معاني العتاب والعذاب . انعطف ليدخل حجرته . كان مصبـــاح النوم الهزيل مضاء فوق الباب . يعني ان زوجته نائمة ، او توشك أن تنام . رآها مكورة على السرير ساندة راسها على يدها المعكوفة .

ــ تصورتك نائمة ، فخفت ان اوقظك .

ــ لم انم ، بل تهت في درابين الدنيا .

راح يخلع ملابسه بفتور ، شاعرا بالالم الذي تتركه الحركة في مفاصله ، بعد تلك الجلسة الطويلة غير المريحة في وضع واحد . ادخل جسمه في « دشداشة » مقلمة زرقاء فضفاضة ، وانسل الى السرير جنب زوجته . واستلقى على ظهره . وسمّر بصره في السقف . كان مظللا بخطوط

سوداء دقيقة في بداياتها ، عريضة في نهاياتها . تشكلها لطخات ظليلة المصباح المكسورة . تذكر عبد الواحد سقف الحجرة التي كان يسكن فيها مع زوجته في بيته القديـــم ، في حي من احياء الرصافة العريقة ، أيام كان يضع يديه تحت راسه كما يضعهما الان ، ويفكر في شيء وقع له في النهار البارح ، ويخطط للنهار المقبل . كانت روافد سمراء مسودة بعضها معكوف ، وبعضها ذو عقد ، ترفع الحصران والتراب والطين ، الملقاة فوقها ، وتلوح له في صور شتى تبعا للفكرة التي كانت تراود ذهنه . فمرة يتصورها قضبان قفص لحيوان محصور فيها ، ومرة يرى فيها أضلاع شيخ عجوز انهكه اللغب في الركض وراء اللقمة ، ومرة قصبات « كلبدون » وحلة ضخمة لصاحب جاه ، او حتى خطوط « عرقجين » على رأس ضخم يستوعب الدنيا وما فيها . ذلك سقف بيته القديم . اما هذا السقف ، فان طبقة الجص الصقيلة تخفي اضلاعه الحديدية المستقيمة التي تثبت الاجر الحقيقي المفخور ، اضلاع مخفية خلف طبقة من السمنت والجص الابيض ، ولكنها اضلاع لا تتنفس صماء بكماء ، مثل اية قطعة من الاثاث تحويها هذه الغرفة ، الاثاث الذي صنعه بيديه من خشب جيد ، وفق احدث طرق صنع « مال بيات » ، اذ ليس له بعد الان « بيتة » اخرى !

السرير العريض الذي يسع لاربعة اشخاص يحس به وكأنه غارق بعيد حتى عن انفاس زوجته التي تعود عليها اكثر من ثلث قرن ، والدولاب العالي اللامع ذو المرآتين في قفا البابين ، ونصف طقم جيد ومهمل كانت زوجته تخاف ان تجلس على اريكته فتدعك قماشته السميكة الزرقاء المحببة .

كل شيء في هذه الحجرة جديد ومتين وفاخر وبلا ذاكرة . لا يذكّر عبد الواحد الا بالتعب الذي انفقه في صنعه ، الا باللهاث الذي لهثه ، وكأنما حمله على ظهره ، عبر جسر الاحرار الى هذه المنطقة الجديدة من الوشاش . ربما سيذكّره في هذه الليلة التي سيقضيها مسهدا .

ادار رأسه عن السقف . راى زوجته ما تزال تسند رأسها على يدها المكوفة تراقبه . كانت تراقبه بصمت . تتابع توثبات فكره ، تتسمع الى همس افكاره .

ـ لا أراك ستنام الليلة . ماذا حصل ؟ انقلبت الدنيا؟ امسكته من موضع موجع .

ـ هل تتصورين انني افكر فيها ؟ لا ، بل تذكرت بيتنا القديم .

ـ بيتنا القديم ؟ نعم ، كنا في وسط الدنيا .

ـ أما تزالين تحنّين الى بيتك القديم ؟

ـ وكيف لا أحن ؟ على الاقل وضعت فيه اولادي .

تأفف عبد الواحد ، وقال براحة ضمير :

ـ عملنا الذي علينا . هذا هو المهم .

انجذبت معه زوجته :

ـ كل ولد عمر .

ـ تاريخ ! الم تكوني تؤرخين كل بطن لك بتاريخ ؟ نسيت بم ارخت الذين رحلوا ، وهم صغار او رضع . ولكنني ما ازال اذكر انك ارخت لماجد بوفاة الملك غازي ، وفاضل بحركة رشيد عالي ، وفضيلة بالسنة التي انكسفت فيها الشمس . ختمت عليهم بختم التاريخ .

تفلسفت زوجته :

ـ الله الذي ختم ام انا ؟

ـ سواء هو او انت او انا . المهم ختم .

تأوهت الام وقالت :

ـ انا لا آسف الا على فضيلة . جرح قلبي . كم صار عمرها !

ـ ماذا بيدي ؟ لو كان ...

واطبق فمه على الجملة التي همّ بأن يقولها . اليس مبكراً ان يتحسر والد على ابنة له لم تتزوج بعد ؟ عاد فقال بسخرية حزينـــة :

ـ شمس مكســـوفة .

ـ تظل تربية البنات اسهل من الولد ـ قالت زوجته بحكمة رصينة ـ الولد ما أن يشبوا حتـــى ينسوا الاول والتالي . ولا تقدر عليهم .

كان بوده ان يوافقها ، تسرية لها على الاقل ، فهي ترى في فضيلة عقد القلادة . ولكن الكلام سيجره الى التفكير في فاضل ، وهذا ما يؤلمه . فصمت ، الا ان شبح فاضـــل تراءى في خياله في وقفته المتمردة تلك ، حين كان يرمق باب البيت كالطائر الحبيس . ووجد نفسه يفكر في فاضـــل . أمن المعقول ان زوجته احب اليه من امه وابيه ؟ أمن المعقول انه عاشق الى هذا الحد ؟ لا يعرف عبد الواحد من ايـــن سمع : المرء يعشق امرأة ويتزوج اخرى . فهل من المعقول ان يعشق المرء زوجته ؟ ووجد نفسه ينظر الى زوجته . هل من المعقول انه يعشقها ؟

ــ ها ؟ اراك تنظر الي ؟

ابتســـم في الظلام .

ــ هل تريدين الصدق ؟ فكرت في فاضل .

ــ وهل تتصورني لم افكر فيه ؟

ــ فاضل يختلف عن اخوته .

ــ اخاف شامم قنفذ مرة اخرى ؟ هل تذكر يوم شم قنفذا وهو طفل ؟ كل الاطباء قالوا لي : ارميه بالشط . لا فائدة ترجى منه . كان يذوب بين يدي ، ويتحــول الـــى عظام . ذهبت الى الكاظم انخوه . رآتني عربية احمله في اقماطه . فقالت : هذا الجاهل شامم قنفذ . اسقيه ماء قنفذ وسيعيش . نزلت من « الكاريـــات » في « الايل » ، ورجوت ان يصاد قنفذ . وبالفعل اصطادوا قنفذا ، وذبحوه، وسلقوه ، واشربته ماءه . وعند المغرب دبت الحياة فـــي فاضل ... ومنذ ذلك اليوم ، وهو عايش .

ــ انا لا افكر في هذا . افكر في شيء آخر .

ــ ما هـــو ؟

ــ اعتقد انه عاشـــق .

ــ كل شيء يصير . لا يوجد مرض لم يتمرض فيه . هـــل تذكـــر ؟ ذات الجنب ؟ مرتين تحملها .

جاراها في تفكيرها :

ــ لا يشبه اخوته على الاطلاق . خارج على النظام دائما . في المدرسة لم يتعلم غير سنتين او ثلاث ، في النجارة تركني واشتغل في مكان اخر ... وهذا زواجه !..

وتلاشت نفحة المرح التي هبت على قلب عبد الواحد

لحظة ان فكر في العشق . وعادت المشكلة تجثم على صدره بكـل ثقلها .

قالت زوجته وكأنما تتابع تفكيرها الصامت :

ــ لا تغتم ! اين سيذهب فاضل ؟ سيعود آخر الامر. وسنسري عنه . واذا كان يريد حسيبة ، فأنا واثقة مـن انها طلعت زعلانة وستعود ... لنفكر في اولادنا الاخرين.

ــ لم يتعبنا واحد من ابنائنا مثلما أتعبنا هـو ، لان المسألة اذا كانت تتعلق بالفلوس تنقضي ... اما بالهوس فلا أحد يعرف نتيجته الا الله ... خذي ، عندك شامل ؟

ــ رجعنا على شامل .

ــ انت التي فتحت الموضوع .

ــ شامل ذكـي .

ــ اعرف انه ذكي . ولكن ماذا سيطلع ؟ جعفر لقلق زاده ؟ مالنا والمسرح والتمثيل ؟ نحن اناس مستورون . ولكن الهوس ، اذا ركب انسانا ، فاغسلي يدك منه .

ــ وماذا حصّل ماجد ؟ حياته كلها قضاها بالدراسة، هنا وبأوروبا . والان شايل أوراقه ، ويدور على وظيفة... عرضحال وراء عرضحال !

ــ لا تتحدثي عن ماجد ، انه شاب جدي ، صاحب مبدأ . عندما تخرج من الثانوية ، وسقط بفحص العيون ، قلت : يا ولدي ، تعال نعمل واسطة . قال : لا ، والشهادة هذه لأي شيء ؟ امسح بها الحيطان ؟ ومثلما قلت لـك : اذا كانت القضية قضية فلوس تتدبر . ودبرت الفلـوس ، وارسلته الى الخارج ... وها هو قد عاد يحمل شهادة على

اية حال . اما الهوس سواء اكان على امراة او حتى على حصان بالريسزر فاعوذ بالله منه .

ـ هل تتصور انه عاد ؟ ومثلما كان في الاول ؟ لعلك لا تراه كيف يلملم نفسه منا ، كأن البيت غير بيته . ربما ترك عقله هنـاك ؟

ـ انا لا اخاف على ماجد . ماجد لا يخيب ظني .

ـ الله يسمع منك . ولكني اراه كالمخطوف .

ـ سيتعود . الانسان يروح للحج ، ويغيب شهرا ، وعندما يعود يرى الدنيا غير الدنيا . فكيف اذا غاب خمس سنين ؟

ـ وهذا الذي يكتبـه ؟

ـ ماذا يكتـب ؟

ـ وهل انا اعرف أقرا ؟ كلما اصعد الى غرفته اراه يكتب بأوراق ، وليس بدفتـر . أخاف ان يكتـب رسائل للمحبين ؟

ـ لا تخافي على ماجد .

ـ الله يسمع منـك .

ـ نامـي .

ـ راح أنـام .

ـ تتصورين راح يطولها فاضل ؟

ـ سيتعب من المشي ويعود .؟

ـ أخاف عليـه .

ـ لا تخف عليـه .

ـ نامـي .

ـــ راح انام . أنت لم تسأل عن شامل .

وادار ظهره لها .

ـــ لا تخافي عليه .

وقال لنفسه : لا أظنها تحب ابناءها على قدر واحد ، ومثل اسنان المشط . مع انهم خرجوا من رحم واحد . أنها تحب شامل الصغير اكثر ، يزر القعدة ، ويزر الشيب . تحابيه وتدلله وتدافع عن تصرفاته ، وتقول هو الذي سيبقى عند راسي على فراش الموت ، بينما هو ، عبد الواحد ، لم يجد اشارة واحدة على أن شامل يحبها ، وسيفعل ما تحلم به . شامل لا يحب أحدا ولا يهمه شيء مما يجري في البيت ، وكأنه لا يحس بوجود احد الى جانبه ، هائم شائخ فيها ، كلما أراد عبد الواحد أن يتقرب اليه ، ويجد مدخلا الى قلبه زاغ أو تقوقع . وهذا ما يغيظه منه . يمكن ان يستغني عن اهله بسهولة ، وينفرد لنفسه. بعكس ماجد . بلغ الثلاثين او أكثر ، وهو ما يزال مرتبطا بأبيه ، يعامله بالحسنى ، ويجد الكلمة الحلوة على لسانه ليقولها له . وماذا يريد الاباء من ابنائهم غير ذلك ؟ لا اظنه سينسانا في شيخوختنا ، لا اظن ! ماجد حنون ومؤدب لم يقطع رسائله أسبوعا واحدا ، عندما كان في اوروبا ، ولن يقطع بنا اذا صار في وظيفة . ماجد رأس القلادة ... أبو ماجد !

ماجد قامة ممشوقة ، وعينان ذكيتان ، وجبهة صافية. تراءت له خلف جفنيه المطبقين . فقط ان لا يعيد سيرته الاولى ، ويجنب نفسه وايانا المتاعب .. هذا الذي أريده منه . والا فهو ذكي وصاحب معرفة . ونخوة وعرفان

بالجميل . لا يركب راسه مثل اخوته . لا يخاف عليه ! يعني مأمون الجانب مستقيم . وشامل أيضا لا يخاف عليه ، يعني شيطان ، يعرف كيف يطلع راسه ... أما فاضل ؟ ويلي ، فاضل ! فاضل مظلـــوم . وكان عبد الواحـــد يشفق عليه اشفاقا لا يعرف كنهه او لا يريد ان يعرف كنهه ... كلما مضى يفكر فيه ارتد واحجم عن التغلغل ، مخافة ان يمس جرحا موجعا . والان ، كان يقول لنفسه ، لاول مرة ، في لحظة من تلك اللحظات التي يقترب فيها الانسان من التوحد مع الشخص الذي يحبه : « فاضـــل صورة مني » . كنت سأكون مثله لو ركبت راسي مثله ، وتركت دكان أبـــي ، واشتغلت صانعا عند خضر عباس ... كنت سأكـــون مثله لو ركبت هواي وجاريت قلبي ... وتزوجت « نعيمة » ... اي ، نعم ... فاضـــل جزء مني ، مـــن الاشياء التي اردت أن اقدم عليها ... من شبابي ، من الاغلاط التـــي هممت من ارتكبها .

سمع تمتمة وراء ظهره . أدار جسمه قليلا ، وهاء متسائلا . همست زوجتـــه :

ــ هذا شامل . جاء .

ــ وماجـــد ؟

ــ جاء قبل شوية ... سمعت صوته من المطبخ .

ــ نامـــي .

وحاول هـــو أن ينام . كان تعبا يثقل قلبـــه شعور غامض بالذنب ، وبمسؤولية جديدة ، وعبء جديد . وكأنما ارتد سنين طويلة الى الوراء ، أيام كان عليـــه أن يحمي اولاده ، ويذود عنهم الاذى . وكان يود أن يغرق في لجة النوم

لينسى وليستريح ، ويستقبل صباحا جديداً حلالا للعقد .
ولكن النوم لم يراوده . ظلت تتابع عليه موجات وموجات
من الافكار الطيفية المجسمة ، اشباح تتراكض امام ذهنه ،
رؤى غامضة عجلى ، ظلت تتجسد ، وتكتسب ألوانا
غامقة ، وتتحرك بانسياب ، وتؤدي حركات وهمهمات
واشارات . صور وراء صور . فيتخيل انه يجلس جلسته
الاولى في دكانه ، والرجل يخبره بوجود خشب في السوق ،
وحين يرفع بصره اليه ، يلمح حسيبة تختفي وراءه ... رفّت
عباءتها سوداء مثل جناح غراب ضخم ، ولمعت عينان غير
مريحتين . ورأى فاضلا يحمل كيسا كبيراً اشبه بالخرج ،
وماجد يخلع سنا له على مقعد طبيب أسنان . ومرقت
« نعيمة » هذه المرة ، وانزوت على بعد خطوات من دكانه .
وكان يحس بثقل وجودها ، ويريدها ان تذهب ... كانت
تشتبك بشجار عارم مع اشخاص في الجانب غير المرئي له
من الشارع . ودّ لو يتحرك ويرى ، الا انه كان كالمقيد في
كرسيه ، لا يستطيع عنه فكاكا . والاصوات تتوارد عليه
مبحوحة مكتومة ، تضطرب مثل خفقات اجنحة ، وكركبة
اقدام تريد الفرار . وشوشة حارة حقيقية قريبة منه ،
تضايقه . تصارع مع جسمه الثقيل . حرره من اسار
النوم . فتح عينيه ، رفع جسمه على ذراعه . رأى زوجته
تدخل الغرفة ، وتغلق بابها .

ــ ماذا حصل ؟

ــ لا شيء .. نم !

- ٢ -

توقفت اليوم عند البقال في بداية الشارع الموصل الى بيت ابي ، وشربت زجاجة « سيفن » ، ثم عن لي أن اشتري بعض الاوراق ، وظروفا لاكتب رسائل الى اصدقائي في المدينة التي درست فيها . ولما خلوت الى القلم والورق حرت لمن اعنون الرسائل . ولما استقر رايي على الزميل الذي كان يشاركني الغرفة ، واشرعت القلم لاكتب ، تحيرت ماذا اكتب له . بعد التحيات والاشواق توقف القلم ، ولم يجر بكلمة واحدة . مزقت الورقة ، وبدأت اكتب ، لا على التحديد ، كلمات غير معنونة لاحد . ثم مزقت هذه الورقة أيضا ، وبدأت بداية جديدة ، لنفسي هذه المرة .

لم يحدث شيء طيلة الاشهر الثلاثة التي قضيتها في بغداد . ما زلت عاطلا عن العمل ، اتلمس سبيلي عبر شوارع ودروب تبدو غريبة عليّ ، أتعثر في ارصفتها المحفرة ، وغير المستوية ، واخجل من النظرات اذا صوبت اليّ ، واخشى ان يبادرني احد بسؤال او استفسار ، فيظهر جهلي واغترابي عن المدينة . عدت فرأيت أهلي قد انتقلوا من بيتهم القديم الى بيت جديد ، في منطقة جديدة عليّ . انا اذكر الوشاش كمنطقة نائية كنت الجأ اليها ايام كنت اهرب من مدرستي الابتدائية ، فأتيه بين السكك

الحديدية واتسكع بين الباعة في ساحة السكك . اما الان فهي منطقة خطئت فيها شوارع ، وبنيت دور . الا أن عربات النفط ما زالت تسير هناك توزع النفط على البيوت ، وما زال باعة السمك الميت والعربات المحملة بالخس ، وعربات البرتقال المغلف بطبقة رقيقة من الغبار ، والشمس تملأ الرحاب بوهجها المستعر ، والسيارات منطلقة على الشارع الاسفلتي تثير الغبار ، والصبية يتراكضون على الارصفة الترابية ، ويثيرون الغبار أيضا ، والسماء صافية وصينة عميقة الزرقة ، والخضرة مغبرة متهافتة كسول . رموز طفولتي الماضية رايتها منتشرة على بقعة انظف وأوسع ، مثل معروضات متبقية من متجر كان عامرا بالتحف والتذكارات . لم تبادرني بالحوار حتى الان . كانت تحيا حياتها الخاصة في غيابي ، وما تزال تحيا حياتها الخاصة في عودتي . ولم تحدث نقطة تماس .

اشعر بالخواء رغم كل مظاهر المحبة والعطف . يبدو ان العطش العاطفي القديم ما زال يلازمني . لقد حملته معي في الغربة ، وجئت به كاملا غير منقوص . في السنة التي سافرت فيها الى الخارج وما قبلها وما بعدها بقليل غادر العراق عدد لا يستهان به من الناس ، لم يكن التزود بالعلم واكمال الدراسة الهدف الوحيد في تركهم الوطن . لقد حملوا ، مثلي ، جوعهم العاطفي معهم الى الغرب والشمال ، وابانوا عنه بكل خلجة من خلجات انفسهم ، بل لازم بعضهم ملازمة المرض العضال ، وفتك بهم فتكا ذريعا . اعرف شخصا في المدينة التي درست فيها ، وهو رجل تجاوز الثلاثين ، ركع أمام الفتاة التي تعرّف عليها ،

وقال بلهجة نادبة : « فدى لك كل سني عمري الماضية . سيدتي ، أنا أولد من جديد على يديك . فأرأفي بهذا الرضيع انجائع الى حنانك . مري افدك بنفسي وما املك » . ولم يكن يملك شيئا كثيرا يقايض به ، فعكــف على الخمرة . واعرف شخصا اخر كان ينفق كل دراهمه على لقاءات عابرة مع فتيات ، ويظل صائما عن الطعام في اغلب الاحيــان ، متصورا انه شبعان الى حد التخمة ! واعرف شخصــا ثالثا احب مدرّسة اللغة ، وهي امرأة متزوجة ولها اولاد ، وعرض عليها ان تتــرك زوجها ، وتعيش معــه . وهدد بالانتحار . وبالفعل سار في طريق الانتحار البطيء . اعرف اشخاصا خلقوا من جديد ، واشخاصا جفوا قلبا وفكرا ، واخرين خدروا جوعهم بوجبات قذرة من الجنس ، والخمرة، تنكروا لكل ما كانوا يحلون به حياتهم . ان الانسان يحتاج الى اعصاب قوية ليحافظ على صفاء روحه ، وسلامة عقله. انا لا انكر انني مررت بتجارب حزينة ، ولكنها لــم تترك ندوبا في روحي . تعرفت على فتاة كانت تحب الغابة والنهر، وتكره المدينة والناس . وكانت لا تكف عن التغني بالغابة، وما فيها من أشــجار ونبات وطيور وحشرات وزواحف ، والحت في ادخال حــب الغابة الى قلبــي . ولما كان لفح الصحراء ينبع من دمي ، لم امِل لها ، ولم أجد لغة مشتركة بيننا ، فافترقنا . وفيما بعد ، حين عُذيت بحب الغابة تعرفت على فتاة تهوى الاسواق ، وتهيم بالزحام ، ولم توفر لحظة سكون لروحي ، وهكذا انقضت السنوات الخمس في قلق عاطفي مستديم ، ولم اخلــف هناك جزءاً مــن قلبي كما يقولون ، بل جلبته كل معي بقضه وقضيضه .

عدت فوجدت كل شيء مهيأ لي . لم اشترك في شيء مما وجدته حاضراً جاهزا لايوائي . البيت بغرفه الخمس لا يحمل رائحة ايامي الماضية ، ولا ينطوي على واحدة من ذكرياتي . يخيل الي أنني اعيش فيه مؤقتا ، ريثما استأنف حياتي الخاصة بي ، في ركن لا ادري اين هو . هنا كل شيء مكشوف ومراقب . العيون تتلصص علي . امي تصعد الدرج لتقول « قاعد وحدك » ؟ وابي يستفسر كثيرا عن حياتي في الخارج ، واختي تحيطني برعاية مبالغ فيها: « اكلك قليل » ، « تعلم على اكل الغربة » . واخواي لا يبادلانني غير كلمات قليلة . شامل مشغول في المسرح الى الاذقان . كبر وصار يناصبني العداء ، كما يبدو . وفاضل يأتي متعبا . وبعد ان يتناول عشاءه يصعد مع زوجته الى غرفتهما . يبدو ان حياته ممتلئة ، وهذا لا يعجب الاخرين . من هذه الفتاة ؟ يقال انها بلا ابوين ، ولا اقارب . تثير دمدمة بين اهل البيت . لا احب ان اسمع . اشفق عليها واتحاشاها . صوتها وكأنه صوت اخر من الماضي . ممتلئة قصيرة ، كتلك الاخرى . لا احب ان افكر فيها . تثير في ذكرى دفينة . لماذا لم اشتر ورقا اكثر ؟

...

مرة اخرى مع الورق .

وقع ما كنت أتوقعه . لم أكن اتوقعه بهذا الشكل ، ولكن كنت اتوقع محذورا ، سيقع بهذه الطريقة او بأخرى. لا احد يجد في نفسه الرغبة في ايقافه ، ولا التنبؤ بما سيؤول اليه . كل واحد منهمك بأن يفصح عن عواطفه بالشكل الذي تتشكل فيه بلا مواربة ولا تغطية ، وعلى النحو الذي يمده بالراحة النفسية . يلعب لعبته بوعي او غير وعي . اما

انا فكنت لا املك حولا ، ولا ابت بأمر . كنت اراقب كــل ذلك ، واجمع فتاته المتساقط من الافواه والنظرات والحركات والايماءات واللمســات، وارسم صورة قريبة لما يمكن ان يحدث.

وكنت المح بعض الاستغراب من تصرفاتي وبرودي. وكأنهم يريدونني ان اشترك بكل كياني فيما يعتبرونه مأساة العائلة ، وتساؤلاتها المشروعة . كنت احس انهم يضيقون عليها الخناق ، ويسلبونها شيئا فشيئا الامتار القليلة التي كانت تتحرك فيها . كان يخيل الي انها تزداد حيرة ، من يوم الى يوم ، فلا تدري ماذا تفعل . اذا استقرت في حجرتها صرخوا عليها « العروسة لا تريد ان ترى أحداً . تستنكف ، ولا يعجبها العجب ولا الصيام في رجب » فتضطر حسيبة الى النزول . كنت اسمع وقع اقدامها من غرفتي وهي تهبــط الدرج مستسلمة مخذولة ، وكأنها تنزل درجات سلم تعذيب. وما ان تبقى وقتا قصيرا حتــى يضيقوا بهـــا ، ويشعروا بثقلها . فتعود ادراجها خفاقة النعلين الى غرفتها في الطابق الثاني . كانت اذا صمتت استغربوا اين تاه فكرها ، واذا تكلمت قالوا : لا تتدخلي في كل شيء ، واذا ضحكت قالوا : فطيرة ! يبدو لي ان حسيبة مسكينة ، غريبة ومغلوبة على امرهـــا .

وكنت اعرف ان الطرق سيفل اللحيم . كما يقــول البغداديون . ولما همست لي فضيلة بأن حسيبة قد خرجت ولم تعد حتى الان لم افاجأ . كنت اعرف أن شيئا من هذا القبيل سيحدث . ولكنني لم اكن أعرف أن الامر سيتخذ هذا الطابع المأســـاوي . ويثير الشجـــون في النفوس ، ويعصف بالعواطف ، ويخيم على البيت وساكنيه ظل الفجيعة

الاسود . كنت اراهم في وجوم الانتظار ، يتحركون بآلية . وتقطعت بيننا الروابط الهزيلة للاتصال اليومي . وفي الليلة التي جاء فاضل فيها سكران ظل جميع اهل البيت مسهدين في الغالب ، ما عدا أبي الذي لم يشهد المنظر ، وما عـــدا شاملا الذي بانت الشماتة علـــى وجهه بسبـــب غريب . سيعرف ابي لا محالة ويشقى ، وستسكـــب امي دموعا خرساء ، ليس الامر هينا بالشكل الذي كانوا يتصورونه : ان تخرج حسيبة من البيت ، ولا يكترث لخروجها احـــد ويبتلعها النسيان . وسيتألم فاضل اياما ، وربما ساعات ، وسينسى ويفرغ قلبه من ذكراها .

في الصباح تحاشيت ان التقي بأبي . ربما تفضـــح عيوننا ما يعتمل في دواخلنا . تركته يخرج . واعتكفـــت امي في غرفة الجلوس في جلستها الابدية الصامتة . وكنت انصور أن شامل قد خرج الى معهده . ولكنني سمعته يدندن في المطبـــخ وكأن اي شيء لم يحدث البارحـــة . يدهشني انفصاله العجيب عن البيت ، الحرية التي يبيحها لنفسه . انزويت تحت الدرج لأغتسل ، فاذا بفضيلة تناديني « الاكل راح يبرد » . اضطررت الى دخول المطبخ لتناول فطوري .

رمقني شامل بنظرة فضول . وسأل سؤالا استفزازيا بـــاردا :

ـ كيف نمـــت ؟

ـ مثلـــك .

ـ انا نمت نوما مريحا .

وضحك ضحكة مثيرة ، بدت في صمـــت البيت مثل نهيق برذون . ورفعت بصري اليه . كانت على وجهـــه شماتة ! قلـــت :

ـ لست أدري متى تضحك ومتى تبكي .

ـ أبكي ؟ ولماذا ابكي ؟

ـ اصمت ، على الاقـــل .

ـ ولماذا أصمت ؟

ـ ترى الناس حولك يتعذبون .

ـ لست انا السبب في عذابهم .

ـ هل يرضيك ما حدث البارحة ؟

ـ يستاهـــل .

ـ كلنا رفع الكأس الى فمه .

ـ ما عداي ! انا لم اشترك في عملية زواجه البغيضة .

ـ وتتشفـــى ؟

ـ لم استبشر منها خيرا .

ـ كأنها صفقة عائلية .

ـ هو الذي قرر ، وهو الذي سيتحمل التبعة .

ـ ولكننا يجب ان نســاعده .

ـ لا اجد في نفسي الرغبة .

ولاول مرة قلت له :

ـ انت تأخذ لنفسك اكثر من حجمك .

ـ اذن ، لا حاجة الى ان تتحـــدث معـــي في هـــذا الموضوع .

وعاد الى افطاره مستقلا خامد العاطفة ، قلت وكأنني اتحدث مع فضيلة التي كانت تحوم حولنا :

ـ سنندم ، سنندم جميعا على ذلك .

عاد يرد بلهجته الباردة كالشفرة :

ــ على أي شيء نندم ؟

ــ كان الافضل ان نعاملها بالحسنى ... فتاة مسكينة مقطوعة تحت حمايتنا .

ــ أوه ، عدت تدافع عنها ؟ ما سبب هذا الاهتمام الزائد بها ؟

ــ أي سبب تتصور ؟

ــ لا اعرف ... انت أدرى به .

ونهض من وراء المائدة كحاكم يصدر حكما ، ويفض الجلسة . فار الغيظ في داخلي . واردت أن اصفعه . رفعت صوتي :

ــ ماذا تقصد ؟

اشار بيده اشارة لاادرية توحي بمختلف الشكوك . وحمل كتبه ، وانصرف . شعرت بركبتي ترتجفان ، وبذهول يشل حركتي . وعندما خرجت ، رأيت أمي عند الباب ، وفضيلة تنشج في ركن من المطبخ .

ــ ماجد ، اذا كنت تريد خاطري ..

ــ هل سمعت كيف يعتدي علي ؟

ــ انت اخوه الاكبر ، فسامحه .

ــ أوه ، أوه ... ما اشد غربتي بينكم !

تقدمت أمي ، ووقفت على رأسي .

ــ انا التي أرضعتك من هذين الثديين ، وتعتبر نفسك غريبا !

ــ لست ادري ، لست ادري ، ربما هي ...

وتكونت في ذهني اشياء كثيرة اردت ان انظف صدري منها . ولكن كل الذي تقوله لايلام نفسك بحضور مخلوقتين تحبانك تحس بأنه موجه لايذائهما اكثر من ايذاء نفسك ، فكففت . كانت فضيلة تنظر الي بوجه معبأ بالعبرات ، وحين تلاقت نظراتنا ارتخت قسماتها عن ابتسامة حبية .

عرضت علي قدح شاي اخر . وقدمته لي بابتسامة منصالحة . جلست امي قبالتي ، وقالت :

ـ طلع لنا هم من تحت الارض .

وجدت نفسي اقول لها :

ـ الا تتصورين انكم اوجدتموه لانفسكم ؟

ـ نحن ؟ انكسرت رقبتي لو كنت اعرف .

الناس في المحنة ضعاف متهافتون ، يتبرأون بسرعة مما شاركوا فيه ، يتسقطون الحنان والشفقة . لو قلت لأمي هذا الكلام قبل خروج حسيبة لصرخت في وجهي ، ونهرتني قائلة : نحن نريد صالحه ! ولكنهم ، في الواقع ، كانوا يريدون صالحهم . كان يؤذيهم وجود غريبة في البيت . لقد وافقوا على مضض ، وهونوا الامر بينهم وبين انفسهم، وتصوروه غير ذي وزن .

وحين جاءت حسيبة ، واصبحت حقيقة واقعة ، شخصا يروح ويجيء في البيت ، يطلب مكانه على المائدة ، او الصينية ، وفي المطبخ وغرفة النوم ، تنبهوا الى هذه الغريبة المتطفلة على قدورهم ، ولو كانت زوجة ابنهم . هذا تصوري للامر .

قدمت لي فضيلة منديل جيب نظيفا ، وعدلت ياقة

مسترتي ، ورجتني ان اتغدى في البيت : « الاكل لمن اطبخه »؟
وضعت المنديل في جيبي ، ووعدت بالمجيء ، وخرجت .

مرة اخرى هواء بلادي المفخور بشمس ربيعية ثرة ، مذهب بغبار صحراوي مفتون ، والخضرة مسترخية بكسل جرافي داخل كلتها الغبارية . وقفت سيارة صاخبة المحرك بالقرب مني ، واطل وجه اسمر محروق زاعقا « المتحف ، المتحف ! » ركبتها . الركاب جامدون متسمرون في جلسات غير مريحة . بلعوا السنتهم ، وتخلوا عن كل حرية لهم ، وراحوا ينتظرون فرج الخروج من القبو المتنقل . انحشرت بين اثنين منهم . فلم اعرف كيف امد يدي في جيبي . واخرج الفلوس ، حاولت . جاهدت . توترت . كنت جالسا بين كتلتين غير قابلتين للزحزحة . واخيراً لمست « الخردة » باطراف اصابعي ، وسحبتها بحركة سريعة ، فتناثرت شذر مذر . واذا بتلك الاصنام تتحرك ويتجرأ أحدها باحناء قامته ليلتقط قطعة نقدية ، ثم فعل اخر مثله . وبعد دقيقة كان الحوض كله تقريبا في حركة بحث دائب لجمع ما تناثر من نقودي . شكرتهم . وحين جلسنا وقورين متسمرين كالسابق ، فكرت في ان هؤلاء لا يختلفون عن اهلي في قضية حسيبة .

بدات العملية التي اقوم بها كل يوم تقريبا : الطواف على دوائر الحكومة . في الدائرة الاولى التي راجعتها قالوا: اوراقك ضائعة . بحثنا عنها ، ولم نجدها . وفي الدائرة الثانية قالوا : كل ما نستطيع ان نفعله — من اجل خاطرك — ان نضعك في قائمة الانتظار . عندنا ثلاثمئة مهندس مثلك ! وفي الدائرة الثالثة رفضوا مقابلتي قبل التفوه

بكلمة . قال ملاحظ الذاتية المجوز : عجزنا من الطلبات .
ما اكثر الخريجين ذوي الشهادات العالية في هذه البلاد !
لطيف انني لست منهم . وفي الدائرة الرابعة وكانـــت هي
اخر مطافي ، في هذا اليوم ، مؤملا بعض الفرج ، لان فيها
احد المعارف ، اجلسوني على كرسي ، واستضافوني على
قدح شاي . وحاص صاحبي وباص ليسر الي ان هناك
وسيلة شريفة لحسم الموضوع لصالحي ، وهي — وفرك
سبابته بابهامه . قلـــت :

— أتعتبرها شريفة ؟

— اليست اشرف من إن تريق ماء وجهك في المراجعات
غير المجدية ، والوقوف امام ابواب الدوائر ؟

قلت كالمخاطب نفسي :

— كأنني لم اذهب وادرس واتحمل الغربة ...

لم يفهمني صاحبي . قال :

— ولكنك رجعت بشهادة ...

— ولكن الواسطة ما زالت ضرورية .

قال بحكمة سليمة :

— لاوسط من غير واسطة .

— أؤدي الاتاوة للصنم القديم ...

نظر الي كمن ينظر الى معتوه ، وقال :

— الامر راجع لك . اردت صالحك .

استقبلني وهج الشمس مرة اخرى . بغداد فارغة
اذا كنت فارغا وبلا عمل . والبطالة لا تمنع عنك رغيـــف
الخبز ، فقط ، بل وتوفر لـــك الضيق والســــأم والضياع

ودواعي الانتحار الاخرى ، على الاخص اذا كنت تتعرف على وجه المدينة من جديد . تحيرت ماذا افعل ، والنهار ما يزال في ضحاه ، والضرب في الشوارع عملية مملة اسوأ من تلك الكلمات المتقاطعة . وكانت في نفسي رغبة خفيـــة في مقابلة اخي فاضل على انفراد . فقد كنت احس بانني يجب ان اساعده . كانت حسيبة قريبة الى نفسي ، تثير لواعج الشجن ، وكأنني مشترك في مصيرها . كأنني عدت ووجدت الماضي منطرحا أمامي يطالبني برد دين سلف .

كنت اعرف ان فاضل يشتغل في محل لصنع الصناديق الخشبية قرب حمام مشهور في احد أزقة بغداد . فقد أسر والدي بذلك لي اثناء معاتبة صريحة بأن فاضل يفضل احقر الاشغال على العمل معه . كان الحمام علامة فارقة ، وجدت طريقي اليه بسهولة . بعد بضـــع عطفات شممـــت بخار الحمام ، وسمعت اصوات مطارق . ورايت امامي خرابة مسورة بصفائح من « الجينكو » معوجة محناة بالصدأ . قابلني جدار متفوخ مهدم تكمله هذه الصفائح . وعرفت في الحال انني امام المكان الذي يعمل فيه اخي ، وعرفت السر في كتمانه . كان المكان بائسا خربا لا يصلح حتى لتجميع الفضلات . ولكن حين دفعت الباب الصدىء انفتح لي عن حوش مربع الشكل ، حافل بالناس ، تتناثر فيه الصناديق الخشبية والالواح والنشارة . ووراء كل صندوق لم يكمل بعد شخص قابع على الارض يقص خشبة ، او يدق مسمارا . وفوق البشر والاخشاب وسائر المواد الاخرى يقف رجـــل قصير بدين مسود الوجه من شعر اللحية النامي ، يضـــع

نظارة سميكة ، والمرء لا يحتاج الى حاسة سادسة ليدرك انه صاحب العمل . نظر الي بريبة بادىء الامر ، ثم انفرج فمه عن بسمة اسنان متباعدة . فلعله ادرك شبها بعيدا بأخي فاضل . بعد استفسار ناداه بصوت مفلوج . نهض فاضل من وراء صندوق لم يكمل بعد . ولاح بكل قامته الفارعة الهزيلة امامي . لم أر اخي بملابس العمل الرثة من قبل . لو رأيته في الشارع لما عرفته . سحنته متسخة ، شعره منفوش ، رقبته طويلة هزيلة . طلع علي مثل فأر من مزبلة (ارجو المعذرة ، يا فاضل !) كانت نشارة الخشب عالقة بملابسه الكالحة المهترئة . كان ضاوي الجسم مخسوف البطن والصدر ، صورة للبؤس المجسم . وكان وجهه غير الحليق مدلهما مسودا مبقعا ، ربما بزنجار المسامير التي يستخدمها وعيناه وحدهما تلزلزان ببياضهما الناصع ، نقيتين من بين جسمه كله . نظر الي نظرة مستفسرة متوجسة ، وكأنما وجدته في بيت داعر ، نظرة لا الفة فيها ولا تسامح وكأنما ارتكبت خطأ فاحشا بحقه . وقبل ان يصل الي بذراعين اخرج علبة سكائره من جيب قميصه ، ووضع سيكارة في فمه ، وقال :

ــ لنخرج !

طلبت منه سيكارة لاعيد الالفة المفقودة بيننا .

في الخارج ، وعند بقايا الجدار المكمل بصفائح « الجينكو » وضع فاضل رجلا على بطن الحائط المنتفخ ، وراح يدخن بشراهة ودون أن ينطق بكلمة .

ــ لعلك تظن انني جئتك بأخبارها ؟

ــ لا ، انا اعرف . لا اخبار .

ــ على اية حال ، ستعود في اخر المطاف .

ــ لا اظنها ستعود .

ــ ولم هذا الظن ؟

نفث سحابة دخان كثيفة ، وقال :

ــ اكلوا راسها . ستفضل الموت علــى الرجوع . ستقتل نفســها .

ــ معقــول ؟

ــ ستفعل ذلك . انا اعرفها . كانــت تقول لي : سأرمي نفسي تحت سيارة ، سأرمي نفسي من على الجسر .

ــ لا تأخذك هذه الافكار . ستعود بالتأكيد .

ــ تعود الــي جهنم ؟ قلبــوا حياتهــا الى جحيم . كانت تصبح وتمسي على مناكدتهم . تأكل اللقمة مغموسة بتعييرهم . فهربت ولن تعود .

كان يدخن بنهم ، ويبتلع الدخان ، ويخرجه فتــائل هزيلة من انفه . نظرت اليه بحيرة . كنت اريد ان اخفف المصاب عنه ، ولكن لا اعرف بأية طريقة . سألته سؤالا ارعن ، تساءلت مثلما كانوا يتساءلون :

ــ ألم تفكر ، يا فاضل ، تفكيرا جديا في مسألة العقم هــذه ؟

نظر الي ، وكأنه يريد ان يتأكد هل الذي جاء اليه اخوه أم شخص اخر . توقف ثواني ، خلت اثناءها انه لن يبادلني بعد الان كلمة واحدة . ولكنه تحدث ، بتأن وبلا اكتراث :

ــ فعلت الذي علي . فحصت نفسي عند الاطبــاء . تعرضت لاذلال النفس . وكل ذلك بسببهم ، والا . . .

ـــ الا تريد ان تكون لك ذرية ؟

ـــ وماذا افعل ؟ هل احارب القسمة والنصيب ؟ هذا نصيبي . رضيت به ، فلماذا لا ترضون انتم ؟

ـــ نحن نريد رضـــاك .

آلمني ان يحسبني منهم .

ـــ يبدو انكم تريدون ان تقتلوني .

ـــ نقتلك ؟ أتدري أي عزاء نصبت في البيت حين جئت انبارحة بتلك الحال ؟

ـــ سأفعلها كل يـــوم .

ـــ هل تحبها هذا الحـــب ؟

صمت . واختلى الى سيكارته يمصها بالشره نفسه حتى رمى العقب ، بعد ان احرق شفته .

انعطفت منعطفا اخر لاثير الجانب الحلو من ذكرياته. قلـــت :

ـــ كيف عرفتها ، يا فاضـــل ؟

لم أثر في نفسه غير الاسى . قال :

ـــ هذا أيضا يعترض عليه اهلي ... تعرفت عليهـــا في حفلة عـــرس .

ـــ هكذا ؟ في حفلة عرس ، ولم تعرفها من قبل ؟

ـــ الاعتراض على هذا ، على انني عرفتها في حفلة عرس . كانوا يريدون أن تخرج خطيبتي من يدي أمي ، دون أن أراها . ولما رأيت حسيبة في العرس ، وطلبت ان يزوجوني اياها ، أعتبرت عاقا وخارجا على ملة الاسلام .

ـ ليس لهم حـــق .

ـ أتعرف ان شـامل كان ينهرها ، ويكشـها كما يكش القطة السـائبة ، وكأنها ليست زوجة أخيه ؟

ـ شـامل لعين .

ـ وأبي كان يعيِّرها . لا ما شـاء الله ، بطنها منفوخ، ويتهمها بأنها مصابة بمرض لا يرجى شفاؤه . أختي وحدها كانت لا تحبها ولا تكرهها . هم ، انعم ألله !

واخرج سيكارة اخرى واشـعلها من سيكارتي ألتي لم ادخن منها غير انفاس قليلة . واستبشرت بهذا الفعـــل انودي . قلـــت :

ـ اين ذهبت ، حسب تصورك ؟

ـ اين تذهب ؟ ليس لها من تستجير به . ربما ألقت نفسها في النهر حقا .

ـ لا ، اخرج هذه التصورات من راسك . لو حصل لها شـيء لعلمنا بالتأكيد ، خلال الايام الثلاثة هذه ... لا ، لا ... لا بد أنها لجأت الى من تعرفه من الناس . فمن هي ، يا تـــرى ؟

رأيت وجه فاضل يتقلص ، وردد بفتور :

ـ لمن تذهب ؟ ليس لها غير عمة لا يعرف لها مستقر .

ـ ربما نبحث عن عمتها .

ـ عمتها كانت ضد الزواج ، لانها كانت تستغلها في غسل الملابس ، فلا اظن أنها تلجأ اليها .

ـ ربما لجأت في ايام ضيقها .

وضع سبابته وابهام يده اليمنـــى الحاملة للسيكارة على طرفي فمه ، واطرق الى الارض ، وقال بخفوت وهو منكس البصر :

ــ لا ، ليست هي هناك .

ــ هل ذهبت ، واستفسرت ؟

هز راسه بالايجاب . وغرق في صمت . عرفت انه يخفي عني اشياء . واعتبرت ذلك من حقه ، ولو أننـــي احسست بالضيق ، لانني لا اعرف ماذا فعل على وجـــه التحديد ، واية معلومات يطوي في صدره . احسست بأنني زائد ، ادخل طرفا في عملية خاصة ، عملية بحث سرية . لم يحقق مجيئي شيئا مما كنت أبتغيه واطمح أليه ، حتى التخفيـــف عن بلواه . ما زال منغلقا على جرحه ، بعيدا عني . لم تنشأ الالفة التي كنت ارجوها . لم اثر في نفسه الا لواعج الشجن . اخذت أعانقه بكلمات عاجزة :

ــ فاضل ، يمكنك ان تعتمد علي .

ــ اشـــكرك .

ــ أنا أخـــوك .

ــ شكـــــرا .

ــ دعنا نفعل شيئا .

صمت ، وجهه يتقلص ، ويبتعد ألى اغوار سحيقة. وأصبت بخيبة قاتلة ، قلـــت :

ــ سنشترك في جهد موحد للعثور عليها .

ــ بلا ثمـــرة .

تقطر كقطارة ناضبة .

ــ كيف بلا ثمــرة .

ــ هل تعتقد انها ستعيش عندنا ، بعــد كل الذي حصـــل ؟

ــ يمكنك ان تخرج من بيت الاب .

وشعرت بأنني اتآمر . كنت اريد ان استرضيـــه ، أقربه مني . ذلك اخي الذي كنت ألعب معه في الطفولة .

ومرة سرقوا منه ملابسه ، وهو يسبح في الشط ، فذهبت الى البيت ، وجلبت له دشداشة أخرى ، انقذ عريه. مرة حملته على ظهري ، حين التوت قدمه ، اثناء الركض.. مرات كثيرة كنت انقذه من مأزق ، ايام كنا نتراكض في زقاق واحد . نظر الي الان نظرة يائس مغلوب على أمـــره . كان التشكك في عينيه ، وفي تيبس قسمات وجهه ، وحركات يده المضطربة ، وهي قريبة من فمه ممسكة بالسيكارة . نظرت باشفاق الى رقبته المعروقة يجلس عليها رأسه الكبير الاشعث الرأس ، تفحصت ملامحه التي كان القنوط وربما التعب ينحتها نحتا ، ويجفف ماء الشباب منها ، فيبـــدو الانف اكبر من حجمه الحقيقي ، والفم فتقا عديم الشكل ، والخدان غورين تحت عظم الوجنتين ، العينان الكبيرتـــان مهمومتين في فراغ اليأس والنضوب . وبدا لي وكأنه ليس اخي الذي يصغرني بسنتين ، هذه الحقيقة القاتلة فتكت بي ، ابعدته عني . كنت أراه من خلل الغربة النفسية التي يلوذ بها ، ويفصح عنها بهذا الجمود ، بهذا التخلي عن تلمس اية مشاركة عاطفية ، حتى بدت كلماتي مفرغة من معناها ، جافة لا قيمة لها . وانقذنا من فراغنا المشلول حلول فترة

الغداء . خرج العمال واحدا اثر الاخر ، من الباب الضيق المطوق بـ « الجينكو » الخشخاش . نظر الي بعض العمال باستغراب من وجودي . جاء عامل ممتلىء الجسم علـــى نحو غير مألوف في الجو الضاوي المحول فيما حوله . ولكنه يشترك مع الجميع برثاثة الهيئة ، وسقم النظرة ، واتساخ الوجه . وبادل فاضل الحديث . احسست بالحيوية تعود الى أخي الذي كان مصفوفا على الحائط امامي ، يتخلى عني كليا . استأذنت بالانصراف قائلا : « سنكمل حديثنا فيما بعـــد » .

عاد الفراغ يلتف حول روحي كحبل من شوك . ايقنت ان اليوم سيكون مجموعة من الاخفاقات المتكررة ، فقـــد استفتحته بنكد في تلك المحادثة المريرة الطعم مع شامل . وهذا أنا ، كلما استقبلت صباحا بخير أو بؤس جر اذياله على اليوم كله . لم اعرف اين اذهب . بغداد صماء بكماء رغم كل ضجيجها وغبارها . كان جفاف الصحراء في فمي ، وتوهجها في رأسي . ايامي ساعات انتظار بائسة ، ريثما اجد لي جحرا في دائرة اقضم فيها ايام حياتي . كنســـت الشوارع بقدمي المتخـــدرتين . تجمعت في أنفـــي روائح متنافرة حتى جاشـــت نفسي ، وتلوت معدتـــي الخاوية . احسست بالجوع يعصرها عصر خرقة ناشفة . تقاعست ان أدخل مطعما فألقمها بثقيل الطعام ، كما لم احس برغبة في الذهاب الى البيت ، حيث اجد الوجوم وجو الفجيعة . هذه الاوراق لها الليل . في هدوئه تسطر ، وفي سريته تحاك سريتها . لو نشرتها في النهار لدخلت علي أمي ، وقالت : ماذا تفعل ؟ تكتب رسالة لاصحابك في « سبعة بحور » ؟

للاوراق لليل ، والنهار للتسكع الجسدي والذهني والخيالي.
كيف ستنتهي قضية فاضل ؟ هل سيجد حسيبة حقا ؟ طبعا،
قد يجدها . او ربما لا ! ستكون مثل تلك ، سرا في ضمير
الغيب . سيعذبه مصيرها المجهول مثلما عذب اخاه . أي
مصير مشترك بينهما ! يا لغرابة الاقدار . تتوارد على
ذهني صور شتى . الذكرى تختلط بالواقع ، والليل يمد
رواقا الى التصور والحلم ، فتتصور ان ذلك وقع بالامس
كما يقول كتاب القصص والروايات ، وتعبق في الحاضر
روائح الماضي . لماذا لا تقولها صراحة ، يا ماجد ؟ جئت
فشممت شيئا من روائحه ، وكانها كانت في انتظارك تطالبك
بالقصاص . وعيناك عيناها ، وجيدك جيدها ولكن . . .
ماذا يقول هذا البيت من الشعر العربي ؟ أنسيت قراءاتك
الاولى ؟ ايام كنت تنكت ساعات على كتاب سميك والبيت
يبدو شبيها بذلك البيت ، غريبا عليك مثل ذاك ، من طابقين
ايضا . وكانت تلك غرفة عليا . والتوجس والحذر
يلازمانك ، هنا وهناك على حد سواء .

- اذا هبطت الدرج ، في غيابهم ، رايتها تغسل الملابس
تحت الدرج ، والصحون في المطبخ . الرجفة تعتريك
والرغبة ، والخوف من قفل يدار في الباب ، والصورة التي
تراها فيها تظل عالقة في ذهنك طوال الليل ، تتجسد في
احلامك . لملمت أذيالها ، وعدلت من جلستها باحتشام ،
وراء الطشت . شعرها الاسود ينسيك ضفيرتين تهتزان
على ظهرها ، وهي تفرك الثياب ، وكأنما تتعارك معها :
« زعلانة ؟ » لم تجب . وقفت قبالتها مخذولا ، واذني على
الباب ، تعلمت رجلاي كيف تلتهمان الدرج . مفرق الشعر

انسبط ، والخصلة الناتئة ، وخط الحاجبين الاسـود ، تحته خفقان رموش ، الانـف والشفة السفلـى الندية ، والصدر برمانتـي ثديين فتيين ، ووادي العقيـق ، كلها مكشوفة امامي تصارعني بأسلحتها الفتاكة . تفزت فقاعة صابون على خدها ، ففركتها ، وأغمضت عينيها . احمـر وجههـا .

وقرع الجرس ، والتهمت رجلاي الدرج .

- ٣ -

« غرفة محاضرات في احد المعاهد الفنية . بعض الطلبة والطالبات متفرقون على المقاعد . بعضهم يقلب كتابا ، والاخر يتحادث . في زاوية جلس طالب يعزف على عود . فجأة يلوح طالب بكتابه ، وينهض وثبا . ويهتف متمهلا :

الطالب : وجدتها ، وجدتها .

طالب ثان : ماذا وجدت ؟

الطالب : التمثيلية . هذه تمثيلية تصلح للتعريب او للتعريق .

طالبة : كأن « جبار » وجد بيضة الرخ . يا اخي ، ضجرنا من المسرحيات المعربة والمعرقة .

جبار : ماذا تريدين اذن ؟

الطالبة : مسرحية من واقع حياتنا ، من هذه الارض .

جبار : (مغلوبا على امره) يبدو أن هذه الارض تنجب كل شيء الا المسرحيات المجيدة .

طالب ثالث : خطأ . هذه الارض انجبت عباقرة . وليس من المفروض ان يكون الكاتب المسرحي عبقريا ، او

على الاقل ، نحن طلبة المعهد ، لا نشترط عليه ذلك . المهم الحاجة ، والحاجة ام الاختراع .

الطالبـــة : وهل تتصور أننا لا نحتاج الى مسرح ؟

الطالب الثالث : يبدو ذلك . او على الاقل هذا ما يتصوره كتابنا في الوقـــت الحاضر .

طالب رابع : (بصوت تمثيلي مضخخ) أعطني نصـــا ، اعطك مسرحا .

الطالب الثاني : لماذا لا نخلقه نحن ؟

جبـــار : تفضل ، اخلقـــه .

الطالب الثالث : ربما يستطيع حسن ؟

حســـن : أتهزأ بي ، يا خالـــد ؟

خالـــد : لا ، والله انك مصدر الثقافة .

طالب رابع : لنترك المزاح جانبا . هيا ، يا حسن .

حســـن : خذوا هذه المعادلة الانسانية ، على سبيل المثال، وصوغوا منها مسرحية .

خالـــد : ما هـــي ؟

حســـن : البيت الشهير القائل :

علقتها عرضا ، وعلقت رجلا غيري

وعلـــق اخـــرى غيرهـــا الرجل

عازف العود : (يضرب على عوده ضربتين رتيبتين) طبخة جاهـــزة .

جبـــار : ستكون قصة حب .

حســـن : دلني على قصة خالية من الحب .

جبـــار : وحب مشربك .

حســـن : الحب غير المشربك لا يستحق ان يروى .

الطالب الرابع : يعني قصة شامل عبد الواحد لا تستحق ان تروى ؟

خالـــد : علوان يثير قضايا مسرحية دائما .

طالب خامس : شامل لم يحضر حتى الان .

الطالبـــة : ولا سناء .

حســـن : بدأت اميرة تفكر في مستقبل صديقتها .

امـــيرة : كل انسان مسؤول عن نفسه ، ولكن لا تغتب .

خالـــد : سترين بنفسك ، يا اميرة .

الطالب الثالث : ماذا سترى بنفسها ؟

خالـــد : جزءا من معادلة حسن الانسانية .

(عازف العود يوقع ضربات حزينة) .

علـــوان : لطيف يعزف على كل الالحان .

لطيـــف : (يترنم مقلدا صوت عبد الوهاب) العود ملك يمينـــه .

جبـــار : خسارة ، بعد ثلاث سنوات من العشرة الطيبة .

علـــوان : ماذا سيكون وقع ذلك على سناء ؟

امـــيرة : لا تتعجل الامور ، يا علوان .

خالـــد : ها انذا ارى شاملا قادما عبر الساحة .

(الجميع يصمتون . شامل يدخل بادي الوقار ، ويتلفت في الوجوه) .

شــــامل : مالي اراكم مشدوهين ، وكأن على رؤوسكـــم
اللقـــالق ؟

علـــوان : لقالق الحيرة تأكل ادمغتنا .

شــــامل : والسبـــب ؟

الطالب الخامس (يسرع في القول) كنا نجادل في معادلة
انســـانية .

شــــامل : (يهز راسه بثقة) المعادلات الانسانية لا وجود
لهـــا .

حســـن : ماذا يوجد ، اذن ؟

شــــامل : يوجد واقع لا يخضع لقوانين .

خالـــد : ولكن حسن أعطانا معادلة انسانية جيدة يمكن ان
تقيم عليها مسرحية .

شــــامل : أذا دخلتم في معادلات فلن تجدوا غير شخصيات
محنطـــة .

حســـن : وماذا تجد انـــت ؟

شــــامل : تخبطا في غابة العلاقات الانسانية او في متاهتها
بتعبير ادق . وكل انسان ملزم بشق طريقه في
هذه المتاهة ليضع مؤشراته ، حسب موقعه من

التيـــه .

علـــوان : لا تدخلنا في أيراد ومصرف . نحن بحاجة الى
مسرحيـــة .

لطيـــف : انا بشكل عام ضد المتاهات والتخبـــط . الحياة
نغـــم (يعزف على عوده) .

شــــامل : النغـــم شيء مصنوع .

لطيـــف: هذا استخفاف بالطبيعة التي كلها انغام .

الطالب الخامس : بالمناسبة ، قرأت في كتاب سايكولوجي ان الاستخفاف دفاع سلبي ضد جريمة خفية .

علـــوان : اوافقك . لهذا نحن نستخف بالتمثيليات ، لندافع عن جريمتنا ازاء المسرح .

جبـــار : اعفونا من هذا الجدل . سنغفر لشامل أستخفافه بالعلاقات الانسانية ، أذا اقترح علينا موضوعا لمسرحية . مسرحنا يشكو من غياب المسرحيات.

الطالب الخامس : ونغفر كل خطاياه الاخرى .

حســـن : كفى المرء نبلا ان تعد خطاياه .

جبـــار : هيا ، يا شامل ، شغل عقلك .

خالـــد : اذا كان معنا الان .

الطالب الخامس : لن يتخلى عنا مهما تكن الظروف .

جبـــار : شامل صاحب المشاريع والاحلام العظام .

علـــوان : حاضر البديهة ابدا .

شامـــل : يعني ، ماذا تريدون ؟

جبـــار : مسرحيـــة .

شـــامل : (بعد تفكير) اية مسرحية تريدون ؟

امـــيرة : من واقع الحياة : من اعماق واقعنـــا الزاخرة بالحمم .

لطيـــف : الله اكبـــر .

شـــامل : وبدون معادلة ؟.

علـــوان : لتذهب المعادلات الى الشيطـــان ، وحســـن بصحبتها .

(فترة صمت . الانظار تتجه نحو شامل) .

شــــامل : (بتأن) تريدون مسرحية عراقية ؟

اصــــوات : نريد ، نريد .

شــــامل : حسنا . (ثم يتريث) خذوا هذه العائلة .

الطالب الخامس : ماذا فيها ؟

علــوان : جلال دائما يريد أن يعرف ماذا في الداخل .

جــلال : الداخل زاخر دائما .

شامــل : ماذا فيها ؟ اب وأم وثلاثة ابناء وابنة .

لطيــف : توليف كلاسيكي .

خالــد : اســكت .

علــوان : لا تقطعوا عليه حبل افكاره .

حســـن : الرقيــق .

(سكوت)

شامــل : ولكنها كانت تعيش تمزقا حادا .

حســـن : كلنا ممزقون ، يا اولاد .

جبــار : ارجــوك ، لا تقاطعــه .

خالــد : والاسبـــاب الموجبة لتمزقها ؟

جبــار : يا أخي ، بلا أسباب موجبة . ممزقة ، وانتهى الامر ! (سكوت) .

شــامل : (يطرق برأسه وسط الصمت ، ثم يرفعــه ، وكأنه لم يسمع الاعتراض) لان زوجة احــد الابناء قد هربــت .

علــوان : (دقات على عوده) يا خيط المأساة الاسود .

جـــلال : ولكن لماذا هربـــت ؟

جبـــار : اسكت ، يا جلال . اعجبها ان تهرب ، فهربت ، وهل نحن نعرف ما يدور في رؤوس النساء ؟

أميـــرة : لا ، المراة لا تقدم على شيء مصيري دون سبب معقـــول .

حســـن : كلام معقول . معادلة ؟

شـــامل : حسنا ، هربت ، لانها كانت تريد أن تنجـــب ، والرجل لا يريـــد .

خالـــد : وهل هناك مثل هذه المراة في العالم ، أقصد في العراق . سأخنقها ، سأجعلها تهرب .

أميـــرة : (بجدية) حقا ، وهل بلغنا من الحرية بحيث نتحكم في بطوننـــا ؟

شـــامل : حسنا ، هربت ، لانها ... حسنا ، لانها عاقر . هل يرضيك ذلك ؟ والعائلة تريد ان تنجب .

علـــوان : (بتمثيل مسرحي مؤشرا بذراعه) وهنا تدخل القدر ليلعب لعبتـــه .

جبـــار : هنا عنصر الصراع . لا بد من تضحية .

جـــلال : من يتحمل الوزر ؟

حســـن : لا بد ان يتخلى احد الطرفين عن بغلته .

جـــلال : الفرد ام الجماعـــة .

حســـن : معادلة انسانيـــة .

امـــيرة : ستحكمون عليها بالطبع ، ستتخلون عنها . انا اعرف ذلك ، مثلما يتخلى صاحب مصنع عن عامل لا ينتـــج .

لطيــف : كفاك ، يا أميرة . نحن لم نتخل بعد .

حســن : الحكم لشامل .

شــامل : (في وقار حاكم بارد) أتركوا مسألة التضحية جانبا ، وخذوا الامــر برمته . هــذا الزواج المجاني ، الزواج على قارعة الطريق .

لطيــف : (يدق على عوده) ضربة استاذ !

جبــار : لقد قلت لكم : شامل صاحب المشاريع والاحلام العظــام .

علــوان : يعني الفكرة واضحة عنــدك ؟

شــامل : نعم . هذه العائلة المنكودة ادخلت الى بيتها فتاة لا تعرف لها أصلا ولا فصلا . مجرد نزوة من نزوات الابن الاوسط ، على طريقة الحب من النظرة الاولى كما يقولون .

جبــار : الله يستر من هذا الحب .

علــوان : فاذا بالحقيقة تتكشف مفزعة مروعة ! هنا تأتي الادانة .

امــيرة : العقم ليس سلوكا لتحكموا عليه وتدينوه ، بــل هو مثل علة قلبية قد تولد مع الوليد .

شامــل : لنترك الادانة الان جانبا ، وننظر الى الواقع .

جــلال : ولكن من هو الملوم ؟

شامــل : الملوم سوء الاختيار ، ضعف شخصية الزوج ، سلبية الوالدين ، الى اخره .

جبــار : يبدو انك قد فكرت في الموضوع منذ زمن طويل .

شامــل : يعيش في ذهني ، حتى يمكنني أن اوزع الادوار عليكــم .

جبــار : هيا ، نحن على استعداد .

شامــل : حسنا ، لننظر من يصلح لدور الاب .

حســن : خالد ، بالطبع .

شامــل : حقا ، فيه بعض صفاته . انه خشن وواثق من نفسه ، يريد أن يصوغ ابناءه الصياغة الغبية التي في ذهنه ، ليكون الدوحة التي تمد ظلها عليهم . اما الام فهي غبية ككتاب للتعاويذ ، تعودت على الذهاب الى علي الغربي لانه يسجل اكبر نقاط من المعجزات .

حســن : الامام الذي لا يشـور ماذا يسمونه ؟

علــوان : أصل الايمــان .

جــلال : حين فقد الشباب ايمانه ، أصيب بانهيارات .

خالــد : ما زلنا ثابتين ، يا جلال . جيفاراً شعلتنا المتقدة . كلنا على النهج .

لطيــف : الثورة اغنية عصرنا .

حســن : المصاب بالكدمات .

جــلال : الكدمات دليل على انك تعيش . اما ذوو الابراج العاجية فلا بد أن بشرتهم ملساء رخوة من مادة لدائنيـــة .

جبــار : اتركونا من ذلك . لقد اضعنا المسرحية .

جــلال : اشترطوا على مسرحية شامل أن تثير مثل هذا الجـــدل .

شامــل : انتظر ، تــر .

علــوان : كل املنا في شامل .

خالــد : لا تضع الملك كله فتفقده كله .

حســـن : وزع الملك في عقول كثيرة .

خالــد : سيضيع الداس ، يا عباس .

جبــار : يا جماعة ، ستشرد هذه الضجة عصافير الافكار من راس شامل .

علــوان : الصمــت .

خالــد : من ستمثل شريكة حياتي ؟

لطيــف : نعــم ، من ؟

(سكوت . شامل يفكر)

شــامل : (بعد برهة) اظن أميرة تصلح للدور .

اصــوات : عظيم ، عظيــم .

امــيرة : وهــل أنا غيبية ؟

شامــل : لا ، ولكن حين يتيسر لك الاقتناع بشيء لا ترين غــيره .

خالــد : تقصد انها احادية التفكير .

لطيــف : مثل هذا النمط موجود عندنا بين النسـاء والرجال على حد سواء . لا يستطيع ان يفكر الا في هذا الاتجــاه .

جــلال : هــذه سمة الشرق .

حســـن : لا تحكم على الشرق بهذه السرعــة .

جــلال : والله العظيم ، هذه سمة الشرق .

خالــد : انتهى . اقتنعنا بقسمك هذا . أقبلي ، يا اميرة ، اقبلي بنصيبــك .

الـمـيرة : قبلـــت .

جبـــار : الحمد لله . المهم العنصر النسائـــي في المسرح . افرغ ، يا شامل ، من الادوار النسائية اولا ، فهذا ضروري .

شـامــل : بقى عندنا دوران نسائيان : دور الاخت الكبيرة وستمثله سناء .

لطيـــف : (يتطلع من النافذة) ها انا أراها قادمة عبـــر الفنـــاء .

شـامـــل : (بعد لحظات ، وكأنه ينتظر ، وقد لاح عليـــه بعض الارتباك) ودور الزوجة الهاربة ستمثله . . (يتوقف مترددا) .

جبـــار : اسندوه الى التفات .

خالـــد : نعم ، ستلفت التفات بدورها الانظار .

علـــوان : الفتها الله علينـــا .

جـــلال : يا جماعة ، هل فكرتم مرة بالمردود الذي تخلفـــه الاسماء في حياة اصحابها ؟

خالـــد : ذلك يتعلق بعلم الفراسـة .

جبـــار : كفانا بعلم المسرح الان .
(تدخل سناء ، ومعها فتاة اخرى) .

لطيـــف : يا سناء ، تسلمي دورك .

سنـــاء : هل اتفقتم على المسرحية المعرّقة ؟

خالـــد ، لا ، بل مسرحية عراقية من صميم الواقع ، تأليف شامل عبد الواحد .

سنـــاء : لا عجب في الامر ، فشامل صاحب امال عريضة.

حســـن : لنا في العيش امال عراض نرجيها ، واعمار قصار
سنـــاء : ماذا سيكون دوري في مسرحية شامل ؟
خالـد : دور الاخت الكبرى .
سنـــاء : هذا لطف كبير منـــه .
علـــوان : انتهى الاشكال اذن ، تابع قصتك ، يا شامل .

شامـل : (يتريث قبل أن يبدأ بداية جديدة . بصـــوت مختلف ، متأنيا بنطق الكلمات ، وكأنه يخشى الزلل) القصة غاية في البساطة والتعقيـد .
الاب رجل عصامي ، من حي بغدادي ، قديم ، انشأ نفسه من مهنة بسيطة ، وتدرج حتـى اصبح من سكان أحياء بغداد الجديدة ، ولكنه اخذ معه كل تقاليد وعادات الاحياء القديمة ، ولزمه شعور بضعة المنشأ ، والضياع في البيت الجديد ، فكان يراقب اهله ، وكأنهم في غابة .
وكان الابن الاكبـر قد سافر الـى اوروبا ، وابتعد عن سيطرته ، كما أن الابن المتوسط تنكر له ، وتزوج فتاة غير معروفة الاصل ، انتشلها من احد الاعراس ، ونشأ الصغير غريبا على اهله ، مصابا بالقهر والاحباط ، لا يشعـر الا بضغوطهم المهينة ، ولا يتحمل ضعفهم وهزال حياتهـم .
جبـــار : دراما هائلة .
لطيـف : فيها نكران لتواصل الاجيال .
جـلال : الابن الاصغر سيكون المنقذ ، رغم القهر الـذي يحس به والاحباط .

علـــوان : تمزق مسرحي من الدرجة الاولى .

المعد : هيا ، يا شامل ، عجل .

حســـن : اني لآمل منـــك خيرا عاجـــلا
والنفس مولعة بحب العاجل.

اميـرة : والابنة ، ماذا سيكون دورها ؟

شامـــل : سيأتي دورها فيما بعد .

سنـــاء : بدأت اتمثل دورها منذ الان . انها تحاول ان تجد نفسها بين تلك التمزقات العائليـــة ، ولكن لا صوت لهـــا .

شامـــل : بالضبط . لا صوت لها ، ولا سلطة . المطبـــخ عالمها الخاص . ترعى هذا وتحدب على ذاك. ولكن المطبخ ليس صالونا ، ولهذا عندما تضيق تجد نفسها عانسا لا احد يرغب فيها .

سنـــاء : أهذا هو المصير الذي رسمته لها ؟

شامـــل : لم ارسمه لها ، ولكن هي التي خططته لها .

سنـــاء : أهذا نصيب من يبذل نفسه للاخرين ؟

اميـــرة : نصيب الانزواء في المطبخ . ما كان لك ان تسرفي في ذلك . شبعوا ، واتخموا ، ونسوك .

سنـــاء : ولكن ، لا بأس ... الغدارون !

حســـن : نفسي تحدثنـــي بأنـــك غادر
وهواي فيك على ذنوبك ساتر

سنـــاء : ربما كانت هي المذنبة . كانت راضخة لاغلالها .

شـــامل : لك ان تفسري ما شاء لك التفسير .

جبـــار : بدانا نفسر قبل ان نؤدي أدوارنا .

علـــوان : شـامل ، ادخل في الموضوع رجاء .

شـامـــل : حسنا . هل تستطيع ان تمثل الابن الاوسط ، يا جبـــار ؟

جبـــار : مستعد ، ولكن على شرط ان ارسم أنا موقفي من زوجتي الهاربة .

شـامـــل : ممكن . ولكن لا تستعجل ! لا تضع العربة امام الحصان . دعني اتمثله في ذهني . انه شاب نحيل طويل مثلك ، لهوف على نحو ، مثلك فيما يخص قضايا المسرح ، بالطبع . كان من الممكن ان يموت ميتة الحسن بن علي مخنوقا بوسادة، لشبقه ومحموميته . لا يعرف من لذات ألدنيا غير لذة الفراش ، وارجو المعذرة . ولكـــن زوجته هربت قبل ان تؤدي دورها حتى النهاية. وكان ، كما قلـــت ، قد التقطهـــا من احـــد الاعراس ، فتاة غامضة الاصل ، مثل نبتـــة مهملة نمت شعثاء في حرش المجتمع ، فأراد أن يغرسها في حديقة بيته الجديد ، أقصد بيـــت ابيه ، وقد فعل ذلك بطريقة لصوصية لا حاجة الى التوغل فيها . ولما شبـــت في الحديقـــة الجديـــدة تضوعت شـــذى شيطانيا ، شمخت وتكبرت ، ولم تشعر بحسرة حين مرت الشهور والاعوام ولم تحمـــل .

علـــوان : ربما العقيم هو زوجها .

جبـــار : ارجوك ، الزم حدودك .

امـــيرة : نعم ، لماذا ترمون اللوم على النساء دائما ؟

جـلال : النساء سبب الداء .

حسـن : قال معاوية « المرأة غل » ولا بد للعنق منه ، فانظر من تضعه في عنقـك » .

شامـل : عقمها فرضية مني لتكوين العقدة المسرحية .

جبـار : تعيش العقدة المسرحية ، وليكن العقم من نصيبها، اي من نصيب زوجتي التفات .

لطيـف : بدأ جبار يلتفـت .

شامـل : اذن ، فلنقل أنها نبتة عقيم ، وقد رآها الابـن الاكبر ، وكان قد جاء من أوروبا ، حيث العقد النفسية والتفسخ ، والعار لا يحسب عارا ، فرآها زهـرة متفتحة تتوهـج وهجا يخطـف الابصار ، وزوجها يخرج في الصباح ، ولا يأتي الا في المساء اشعث اغبر مثل فأر خارج من نخالة ، فنسي الابن الاكبر العرف والشريعـة وراح يرمقها رمقات رجسة .

سنـاء : وهي ، ماذا كان موقفها ، الخزي والخيانة ؟

شامـل : من أين لها الاحساس بالفضيلة والرذيلة ، وهي الغبية التي لم تعرف لها اخا ولا اختا ، ولا تفقه شيئا من العلائق بين النساء ؟

لطيـف : التفات سترفض تمثيل هذا الدور .

علـوان : في سبيل المسرح يضحى بكل شيء .

جبـار : مع حبي الشديد للمسرح لا استطيع أن اتـزوج مثل هذه الزوجة ، لا ، لا ، قطعا .

امـيرة : لا تحسبوها بهيمة . ربما كان هروبها موقفـا اجتماعيا يسجل لها .

شامـــل : اذا اشفقت عليها ، وضعت لها التبرير . ولكنها اشعلت الفتيلة في البيت ، وولت هاربة . اليس ذلك ادانة لهـــا ؟

امـــيرة : لا اظن . لا بد انها كانت مسلوبة مقهورة ، فرأت ان تلملم نفسهـــا ، وتمضي مضحيـــة بسمعتها ومستقبلها وحياتها .

علـــوان : يا اختي ، لولا هروبها لما كانـــت المسرحية . هروبها عمل درامي رائع . دعيها تهرب ، من فضلـــك .

خالـــد : انا ، كأب ، لن اغفر لها خروجها من البيت خلسة .

جبـــار : لا تستعجل . دع المؤلف يصوغ لك دورك .

شامـــل : في البداية ، سأترك الممثلين يرسلون انفســـهم على سجيتها . لي التوجيه ، ورسم الخطوط العريضة ، انت ، يا خالد ، تجيد دور الاب . وانت ، يا اميرة ، فيك تسامح الام وضعفها . ليكن موقفك الانصهـــار في الاولاد ، ولا سيما كبيرهم .

امـــيرة : الكبير رأس القلادة .

علـــوان : بدأت تتقمص دورها .

خالـــد : سأمنعها من الاشتطاط . انا الجبار ، انا رأس العائلة ، انا ...

شامـــل : هذه هي البداية لكنك ستنهار .

خالـــد : لا ولن . سأمسك العائلة بيد من حديد .

شامـــل : لو كنت امسكتها لما جعلت ابنك يتزوج بـــدون ارادتـــك .

خالـــد : قد تكون هذه غلطة العمر . لكل انسان مثل هذه الغلطـــة .

شامـــل : غلطة ستجر وبالا على الجميع .

خالـــد : ساعرف كيف اداريه .

شامـــل : سبق السيف العذل .

خالـــد : اسمع ، اسمع . التمثيل تمثيل ، والجد جد ..
لا تحملني مسؤولية شيء لم ارتكبه حتى الان.
اياك ان تتمادى في انتقادي ، حتى في التمثيل.

شامـــل : اريد ان أدخلك في صميم المسرحية .

اميـــرة : كفى ، دعنا ندخل باب جنتك الضيق .

شامـــل : هيا ، تحدثا عن مناقب الابن الاكبر .

امـــيرة : قلت انه راس القلادة . (تمثل وتتحدث بصوت ملء الصـــدر) لقـــد استجاب اللـــه لدعائـــي وصلواتي .

جـــلال : هل انت تصلين ؟

علـــوان : اسكت ، يا جلال ، دعها تنغمر في الدور .

امـــيرة : جاء يحمل شهادة .

خالـــد : بلغة لا تعرفينها .

امـــيرة : انه ذكي على ابيه .

خالـــد : ووسيم على عمته .

امـــيرة : شكرا ، ايها الاب المتجبر .

خالـــد : لا شكر على قول الحق .

جبـــار : يا اخوان ، اجعلوا الحوار اكثر حرارة .

اميرة : من هذا الصدر أرضعته .

خالد : ومن هذا الجيب امطرته بالفلوس .

اميرة : سيتزوج امراة ثرية .

خالد : سأختارها انا لا انت . مضى زمن الخطابات ، وجاء وقت عقد الصفقات بالتلفون .

شامل : لا ، يا خالد ، ما كان ينبغي أن تقول ذلك .

خالد : ولماذا ؟

لطيف : هذه عصرية من جانبك اكثر من اللازم .

شامل : هذا لا يناسب انحدارك من حي بغدادي قديم .

خالد : ستلاحقنا لعنة بغداد القديمة الى القبر ... يا اخي ، ترقيت . أعجبني أن اترقى فترقيت .

شامل : اريد لبطلي ان يحن لنداء حبه القديم .

حسن : حيث الطناطل والسعالي .

جلال : ورائحة الدهن الحر المحروق والثمن العنبر تتجول في الازقة .

حسن : والقدر الشائط والعطاب والكافور يذكر بالموتى وبالبخور .

لطيف : وبائع النجل الكركري والطرش حامض .

علوان : والمكادي يرتلون القرآن بأصوات موحشة .

شامل : هذا ما اقصده بنداء بغداد القديمة .

جلال : بغداد المبقورة البطن ، والمصابة بالتفلطح .

شامل : المفروض ان الاب يحس في حيه الجديد بالضياع.

حسن : ولا يالف رائحة القداح .

علـــوان : ويكره السنطـــه .

حســـن : السنوط في اللغة من لا لحية له .

جـــلال : لو فتشت احياء بغداد الجديدة كلها لما وجـــدت واحدا صاحب لحيـــة .

شامـــل : اريد لبطلي أن يحس بالعزلة في حيه الجديد .

جـــلال : حيـــث لا تتخلص من الوحـــول ، الا اذا كنت في شارع واحد مع حكومي كبير .

شامـــل : اريده موزع النفس بين ماضيه وحاضره .

خالـــد : اسمع ، يا شامل ، لماذا لا تكتب انت الحوار ؟

شامـــل : سأكتبه . هذا مجرد اختبار للقوى .

ظِلٌّ...

- ١ -

المسافة بين الوشاش واحياء الرصافة القديمة لا تزيد على خمسة كيلومترات ، ولكن عبد الواحد ، كلما خلف الصالحية وراءه احس بأنه يدخل في أمعاء خروف قضى اكثر من نصف قرن في داخله ، دون أن يشم رائحة كريهة ، أو يشعر باشمئزاز . أنعقدت أواصر الالفة والمحبة بينه وبين امعاء بغداد هذه ، وتطورت تطورا فيزيولوجيا حتى انه ، في بعض الاحيان وكلمة الصدق تقال — يحس بأن هواء الوشاش أخف من ان يملأ صدره ، ويفعم قلبه ، ويترع رأسه . في أحياء الرصافة القديمة يشعر بأنه ركين على الارض ، نابت فيها ، لا يتزحزح عنها الا بمقدار ما تقتضيه الضرورة ، تماما مثلما يفعل بعد أكلة « باجه » مع البصل والمخللات ، او رغيفين منقوعين بماء الباقلاء مع الدهن والبطيخ وسائر المشهيات الاخرى . كان عبد الواحد ، في احياء الرصافة ، يشعر بأنه سلطان ، يتبختر فيزاحم ، ويؤخذ له حساب ، ويرفع صوته فيرن في الارجاء، ويسمع كل كلمة يقولها الناس ، ويرسل النكتة ، فتتلفت وجوه ، وتضحك افواه ، وتلمع عيون بالدمعة أحيانا ، اما في منطقته الجديدة ، في حيه الجديد ، حي الوشاش ،

فيبدو ضائعا ، معزولا ، طائرا في الهواء ، يبتلع الفراغ كلماته ، ولا يفوه فمه بنكتة . ولكن الانتقال كان ضروريا ، لان الناس فعلوا ذلك من قبله ، وسيفعلونه من بعده ... امعاء بغداد القديمة تقــذف وبغداد الجديــدة تستقبل ، والخسارة للتاريخ ، كما يقول هو أحيانا . ولكن سنــة الحياة سائرة لا مناص منها ، ولا مهرب . هناك من العوائل من لحقــت بأبنائها الموظفين المرموقين ، وهناك عوائـــل طوّرت نفسها باتجاهين : من ناحية الابناء الذين تسلقوا سلم الرتب ، والاباء الذين طوروا تجارتهم ، وتسلقوا سلالم خفية ، ولا سلالم المعراج — استغفر الله ! أغتنــوا ، وتبجبحوا ، وعمروا البيوت والقصور ، واشتروا الاراضي بأسعار زهيدة — المتر بمئة فلس اذا كنت من اهل الحظوة والكلمة المسموعة عند الحكومات المتعاقبة ، وادخروها كما يدخر المال في بنك ولكن بفوائد خيالية ، حتى صار المتــر الواحد بخمسين دينارا . وهناك عوائل — مثل عائلته — اتكلت على وليها الاوحد الذي ظل يكدح في دكانه الصغير ، وينحت النقود نحتا بفأس ثقيلة ، وقلم طراش مثلوم ، حتى جمع لعائلته ، في اخر العمر ، مالا قليلا ، واشترى بــه قطعة أرض بسعر ربع دينار للمتــر الواحد ، وتركهـــا مهملة عشر سنين ، ثم اخذ قرضا من مصرف الرهــون ، وبدأ عملية البناء التي أستمرت سنتين ، بين حركة وتوقف، بين سلفة ودين ، وحسب تسهيلات الصرف وشراء المواد حتى استقام له بيت من خمس غرف ، والحمــد لله ، يضم شمل اولاده ، دون اية مساعدة منهم .

ولكن ليت الزمان يصفو ، ليته ينجيـــه من متاعبه ومنغصاته ، ويبعد عنه شره واذيته . ولكن هيهات ! ها هو يجابه مشكلة جعلت رأسه يدور ، وفكره يشرد ، ومزاجه يتعكر ، ويتخلى عن تلك الخصلة ألتي كان معروفا بها : ولعه بمحادثة الناس . ولكنه اليـــوم استقبل بتحية مبالغ بها ، ذكرته بأيامه الصافية :

ـ اهلا بالورد ، بالجمَّار ، اهلا ، ابو ماجد ، شوفتك ترد الـــروح .

التفت ، فرأى عبود المسطول يطل من دكان ودود اللحام ، وعلى فمه ألعريض تكشيرة بدت وكانها تصل بين اذنيه . عاد ألى عبد الواحد شيء من بشاشته ألقديمة ، ووجد نفسه يقـــول :

ـ اهلا ، عبود ، هل كسرت الجرة ؟

ـ لا ، ابو ماجد . بعدها سليمة .. بس ألخميس سأجعلها فدوة لك .

ـ أي ، نعم ، أنت متعلم على كسر الجرار .

ـ ولماذا خلقت الجرار ؟ هل هناك جرة ظلت سليمة طول العمـــر ؟

و « كسر الجرة » معناه ألعودة الى معاقرة ألخمرة . وكان عبود يقسم بجرة امه على أنه قد ترك الخمرة ... مضت ثلاثة ايام ، دون ان يذوقها ، وألله ، بالشرف . ولكن ألجرة تكسر في اليوم الرابع على اكثر تقدير . وأحس عبد الواحد بأنه يدخل عالم الرموز القديم ، ويعود أليه حنينه الى مناكفة الناس بالدعابة الحلوة ، واللمز غير الجارح .

رأى مهدي الجــراح متلثما امام مجــرخته . فكان كالبدوي ، وهو يهم بامتطاء ناقة . بادره عبد الواحد على عادته القديمة :

ــ اين الكرعان ، يا مهدي ؟

كان عبد الواحد يستخف بأرجــل الموبيليات التــي يعطيها للجراخ ليصنعها له ، فكان يسمى الرجل « بالكراع » احتقارا وتصغيرا . دافع مهدي عن شرف مهنته :

ــ لم أضح بعد بخروف ، لاقدم لك كرعانه .

ــ سأذبح ناقتك ، اذا لم تقدمها اليوم .

وابتعد متبخترا ميمما صــوب دكانه رامقا الزوايــا والمنعطفات والناس والابواب والشبابيــك ، وكل ما يقع عنيه بصره الحديد .

ــ حسنه ! اما زلت تسقين السلطانة ماء زلالا ؟

والسلطانة هي بقرة حسنة الحلابة . والشائع في المحلة انها تسقى بقرتها جردل ماء ، قبل أن تخرج بها الى الناس لتلحبها امامهم ، حليبا من الضرع . وكانت حسنة قد تعلمت كلمة « دعاية » من الذين يأتون لشراء الحليب ، ولكنها كانت تضيف لها ألفا فخرجت من لسانها على هذا النحــو :

ــ هذي ادعاية ابليس .

ــ ظل ابليس بالدنيا ؟ الناس صارت تعطي لابليس الدروس . لا يهم ، سنصبر .

واستمرت هذ هالمناكدة بين عبد الواحد والناس حتى اطل عليه دكانه ، أو بالاحــرى ، اطلت عليــه موبيلياته

المتناثرة قرب الحيطان ، فان عبد الواحد كان يوكل فتح دكانه للصانع صبيح ، ويأتي ، ويرى كل شيء جاهزا . على بعد مترين التقى عبد الواحد بجعفر الاشرم ، فتوقف وكأنما قفزت في ذهنه فكرة ، ولم يقل لازمته .

الا ان الاشرم كشف عن كامل لثته ، وصاح « سأطلقها ، سأطلقها » وكان عبد الواحد كلما لقي الاشرم بادره بهذا السؤال « ماذا تفعل زوجتك حين تتزوج ؟ » اثار مرأى الاشرم تداعيات غريبة في ذهنه ، فتيبس امامه، وكأنما التقى بشيء كان ضائعا عليه .

الاشرم ابن حبه القديم « نعيمة » حلالة العقد ، الخشاشة في كل بيت ، المدبرة لكل شيء ، فلماذا لا يستعين بها لتبحث عن الضائعة ؟ ولو من باب التلميح لا التصريح .

وكان عبد الواحد ، في واقع الحال ، قلقا اشد القلق. كان يرى فاضل يذبل ، ويشحب لونه ، وتتغير اطواره ، وينفصل عن أهله ، ولا يكلم احدهم الا نادرا . لا يأتي الا في ساعة متأخرة من الليل ، بعد أن يطرق الباب طرقا خفيفا لتهب فضيلة من نومها ، وتفتح له الباب . وذات مرة غافلها عبد الواحد ، وقفز من مكمنه ، وسبقها في فتح الباب . ولما فتحه شم رائحة عرق كريهة . لقد كان فاضل يعاني ، ولكن ليس معاناة رجل ، بل معاناة طفل ، وهذا ما يعذب عبد الواحد اكثر ، ويجعله يحس بأنه ما يزال مسؤولا عن طفله . ولكن اللجوء الى نعيمة صعب ، فيه ذل السؤال ، ونبش الماضي المقبور ، وهوان الضعف في اوج الرجولة ، واكتمال العمر رغم ان هذا الماضي كان يراه يتمشى في

الطرقات روأحا وغدواً ، ويبادله كلمات حيادية ، لان الحياة قد جرت مجراها ، وكل شيء قسمة ونصيب ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم والمهم ان تكون طيبا (يعني خوش ولد) وتكتحل ألعين بمرآك . وكانت تدعوه « ابو ماجد » وينادبها « أم جعفر » وليؤكد ان القدر قال كلمته ، ولا مرد لها ، ولا بد من ألرضوخ له ، والتصافي . وكل ذلك قد دار في ذهنه حين رأى أبنها ألاشرم قبالته ينتظر منه ان يفوه بشيء ، ويتواصل معه على عادته القديمة . فسأله فجأة ، وكأنما احس بحراجة الموقف :

— اين امك ؟

— اين امي ؟ في ألبيت ، او في ألسوق ، او عند الصاحبات .

— قل لها ان تمر علي .

وجاءت « ام جعفر » في اليوم ألتالي . امرأة ربعة القامة ، مفتولة ألجسم ، حلوة التقاطيع ، في عينيها نظرة تواطؤ ، تتقلب وتدور كالمغزل ، وتحس بها طبقات وأغوارا ومسابر ، منها ما ينفذ أليك ، وما يحيطك ، وما يتخطاك الى ما يضمر المستقبل لك كأنما تعيد تفكيك حياتك الى اجزاء . كان لها صوت جارح ، وحركات يدها اليمنى عصبية ، واليسرى ملفوفة بالعباءة وكأنها مجبرة بها . كلما امعن عبد ألواحد النظر فيها يسائل نفسه بعتاب واستغراب : أهذه هي ألمرأة التي كان يحبها ؟ ولكنه اليوم بحاجة اليها . صاحت قبل أن تصل الى باب الدكان :

— ابو ماجد ، بعثت علي ؟

جفل عبد الواحد ، وترك ما بين يديه من عمل ، وانزوى بها خارج الدكان ، وقال مؤنبا :

ــ اتظلين كل عمرك بهذا الشكل ؟

ــ ماذا في شكلي ؟

ــ عالية الصوت لا تكتمين سرا .

ــ انا ؟ كل الاسرار هنا ــ ودقت على صدرها ــ ما يدخل فيه لا يخــرج .

ابتعد بها خطوتين اخريين :

ــ اسمعي ، العروسة طلعت زعلانة .

ــ أي عروســـة ؟

ــ امرأة فاضــل .

ــ خلّ تطلع ... ستعود ذاعنة مدحورة .

ــ لو كان الامر بيدي لتركتها تذهب الى الابد .

ــ اذن ؟

ــ فاضــل .

ــ يحبها ، اللهم عاف وشاف ؟

رفعت صوتها بلوعة :

ــ الحب يخرب البيوت ...

ــ لا ترفعي صوتك .

ــ انا اعرف الاعيب الحب . هل تذكر لما ربى جعفر شواربه ؟

ــ اذكــر .

ــ العشق جعله يستر على شرمته . وما دخلي به ؟

دعه يتزوج ، ولكن على سنة الله ورسوله . ربما سحرت لــه ؟

ــ مــن ؟

ــ العروســة .

ــ حسيبة ؟ لست ادري . ولكنها كانت لا تخرج من البيــت .

ــ ومن يدريك ؟ ربما جاءت وهي تعرف فنون السحر. ربما وضعت له في ليلة الدخلة شعرة واحدة من شعــرها مبخرة ومعذولة في طاسة الماء الذي يشربه . أنت ، ماذا تعرف عنها قبل الزواج ؟

احس عبد الواحد بأول طعنة منها توجه الى صدره . بلع غصته ، وقــال :

ــ انا اريد ابني ، كما كان .

ــ لازم نبطل السحر .

ــ ابطليــه .

ــ لازم اعرف ماذا فعلت . للسحر مائة شكل وشكل ... عيني ، فاضل مخطوف ؟

ــ جــدا .

ــ وعيونه طايره في السما ؟

ــ اكيــد .

ــ ولا يكلم انسانا ؟

ــ بالضبط .

ــ روحه مرفرفه ؟

ــ كل ما قلته صحيح .

ـ هذا هو اذن .

ـ مــاذا ؟

ـ مسحور ، شامم عطاب . اللهم عاف . ويلي على دامــه !

نظر اليها . كان وجهها رصينا فيه حمرة خفيفة من حرارة الموقف . وجه حلو بلا شك . ما زالت فيه نضارة وطلاوة ، مثل صورة من صور الماضي تحتفظ بسـحرها مهما احاطتها من اشياء مؤسفة . ما زال خداها ناتئين ذلك النتوء المحبب الذي كان يجعــل انفها في منخفض خفيف ، فيلوح صغيرا مثل أنف دمية ... الانف الذي تغزل بــه فتيان المحلة ، واغرم به هو الاخر . ونظرتها ؟ أواه ! نظرتها التي تسبيك ، تلتف من حولك ، تحاصرك . وتذكر عبــد الواحد تلك النظرة التي مرقت كالشهاب في عيني ابنهــا جعفر ، حين سأله عن أمه ، نظرة تأمل في اغوار سحيقة ، وسأل نفسه : ربما قصت له في احاديثها الهاذرة قصتهــا معه ، وكيف انه خاصم اباه وعائلته كلها ليتزوجها . ها هي الان تغزل نظراتها لتلتف حوله كالشرنقة ، ويجد نفسه اسيرها مرة أخرى . قال متململا محاولا ان يفك الاسار :

ـ يعنــي ؟

ـ لازم يبطل السحــر .

ـ يعني يمكن ان يرجع ابني الي ؟

كان في شك في قدرتها على ابطال السحر او عقده ، فلو كانت لها مثل هذه القدرة لجذبتــه كالصنارة ، حين ذلك ، في عنفوان حبها وعرامتها ، ولأنسته كل شيء في

الدنيا ، ولما جعلته يرضخ لالحاح ابيه واهله . ولكنه ، وهو في حالة البحث عن مخرج من أزمته ، مستعد لان يتشبث بكل شيء ، ثم ان السحر لا يطال الا بتقدم السن. فالسحر في شبابك ينبع من ذاتك ، وحين يتقدم بك العمر تحاول ان تشتريه من العطار . وهذا ما يفعله عبد الواحد الان مضطرا ، رغم انه لا يؤمن بالسحر ، مثلما لا يؤمن بدوران السنة على حوت أو قرن ثور او حية ... ولكن هناك ظواهر لا يستطيع تفسيرها ، مثل الحب حين يجن الانسان جنونه ، يتبرأ حتى من أبيه وامه ... الحب عطش ، عمى فجائي ، وذهول مؤقت مثل ذلك الذي حصل له ايام زمان ، واستطاع أن يفيق منه ، لأن الانسان يحب امرأة ، ويتزوج أخرى . اما أن يبقى متعلقا بذيل امرأة احبها من اول نظرة فذلك السحر بعينه ، شيء لا يجوز .

— ما ممكن !

— ما هو الما ممكن ؟

تنبه عبد الواحد الى المرأة التي كانت ترمقه عن كثب ، طوال هذا السرحان ، وتتمعن في ذلك الذي احبته يوما ، وجنت به جنونا . حاولت بخيالها ان تزيل اللغد المتدلي تحت حنكه ، والكيسين الامرطين المتهدلين تحت عينيه ، وتعيد البريق اللاهب في عينيه العسليتين .

— من اين جاء بهاتين العينين العسليتين هذا الارعن ؟ — وتسوى ، وهي التي مارست الحفافة ، ضمن ما مارست من اعمال ، كل الثنيات والشعرات ليبرز له

وجه فتاها القديم الـــذي جنت به جنـــونا ، الفتى المفتول العضل ، المشوق القوام ، الركين الرصين ، المتفجـــر قوة ، التياه على الدنيا ومن فيها ، واحست وكأنها في اخر خلـــوة معـــه .

ــ ان يحب الانسان بهذا الشكل !

ــ قلت لك انه سحر .

ــ وتقدرين ان تبطليه ؟

ــ لا شيء في الدنيا الا وله شيء ضده .

ــ افعلي الذي تقدرين عليه ...

ــ سأفعل ، سأفعل ... ولكن يجب ان تطيعني .

ــ انا لله وانا اليه راجعون .

في المساء كان فاضل منفردا بصديقه الحميم عباس وهو العامل الممتلىء نفسه الذي رآه ماجد يقبل على فاضل، حين كانا يتحدثان معا قرب حائط محل صنع الصناديق .

بعد انتهاء العمل دخل فاضل وعباس مدخل سينما صيفية مهملة تجمعت في اعماقه رفات مقاعد السينما القديمة ومنصة كتب عليها « سينالكو » لا بد أنها كانت تستخدم في البوفيه ، واجزاء مـــن لوحة الاعـــلانات وعاديات أخرى مجهولة الاصل . وقد جاءا من هناك بصندوقين من تلك الصناديق التي تعبأ فيها المرطبات ، واقتعداهما ، واخفيا القدحين والربعيتين قرب الحائط . ووضعا صحن « اللبلبي » على ركبتيهما ، وجلسا متقابلين . وراحا يعيدان ويصقلان في الموضوع نفسه .

ــ لا اعرف كيف ستتطور الامور .

ـ سأجدها حتما . اين تضيع ؟ وسنؤجر حجـرة ونسكن فيها .

ـ وابوك ما موقفـه ؟

ـ كان يريد ان يتخلص منها بطريقة من الطـرق . هو وامي سبب خروجها . سأغادر اهلي الى غير رجعة .

ـ الى هذا الحد تحبها ؟

ـ اعبدها . لا انام الليل بدونها . اوف ، عباس . انا لا اعرف لماذا افتح لك قلبي اكثر مما افتحه لاخي الذي جاء الي قبل ايام ، فوجدت لساني يطاوعني لاقول له مـا ما في قلبي . جاء وتسمرت انا على الحائط. وكان يجرني الى الحديث جرا . كان هناك مانع يمنعني . ربما لانه افندي درس في الخارج ، وسيضحك حين يسمع ان اخاه العامل يحب كما يحب الناس في السينما . ولكنني اقول لك بصراحة انني احبها ، والقرآن الكريم أحبها ، والكعبة الشريفـة احبها . لا استطيع ان انام وحدي في فراشي لان كل شيء يذكرني فيها . في الليل أتصور أنني اسمع أنفاسها ، وهي نائمة جنبي ، احس بدفئها ، وبنعومتها ، حين كانت تتقلب الى جانبي ، وتحشر رجلها بين رجلي ، أو تلقـي ذراعها علي ، تحتضنني ، أو تقرب وجهها من وجهي ، وتغطيني برائحتها ، رائحة ترد الروح للعليل .

وتوقف ، وامسك ماعون اللبلبي ، ومال قليلا ، ومد اليد الاخرى ليلتقط كأسه من الارض ، ويشرب جرعـة . تهشمت تقاطيع وجهه ، وتمطت شفته السفلى وتدلت .

مسح فمه ، والتقط بعض حبات الحمص المنقوع . راقبه عباس من خلال كل هذه الحركات ، واحس بشفقة كسيرة عليها . سأله :

ـ قل لي ، يا فاضل ، كيف تعرفت عليها ؟

ـ قصة طويلة ـ ومد فاضل ذراعه اليمني الممسكة بالسيكارة ـ دعانا احمد . انت تعرف احمد ، ابن عم الاسطه ؟ دعانا الى حفلة عرس . ضجرنا من الجلوس في المقهى او الذهاب الى السينما . فقررنا أن نذهب . راشد واحسان وأنا . حفلة عرس في الكريمات ـ وسكت متوقفا وقفة طويلة مبهمة ـ نعم ، في الكريمات . كان البيت مزدحما . لم نستطع ان ندخل . ودعونا الى بيت مجاور . كان مزدحما ايضا بالنساء والاطفال ، وبعض الرجال . هوسه يا ريمه . ادخلونا الى غرفة صغيرة . وبعد قليل سمعنا اصواتا نسائية :

ـ هذا الشربت لمن ؟

ـ لهم ، للشبان . ادخلهم جاسم ولم يعد .

ـ ادخلي وقدميه لهم .

ـ استحي . ادخلي انت .

ـ وانا ، لا استحي ؟

وسكتت الاصوات ولم تدخل واحدة علينا . وبعد دقائق أعيد الاخذ والرد . واحدة تستحث الاخرى . والممانعة مستمرة ، والحياء يجعل المستور حلوا كالشهد . انصتنا الى حديث النساء وضحكنا في سرنا كأن يدا ناعمة

تدغدغنا . أي ، والله العظيم ، اتذكر النشوة التي احسست بها ، اللهفة ، العطش ، لا الى الشربت ، بــل الى وجه حلو ، يد رقيقة تقدم الينا اقداح الشربت .

واخذنا نتبادل الحديث همسا ، ونتمازح . قلت في شوق : والله العظيم ، التي ستدخل علينا سأخطبهــا .
قالوا : واذا كانت قبيحه ، عورة ؟ لا يهم . واذا كانت متزوجة سيكون ذلك مــن سوء حظــي . ســأخطبها ، وستشوفون . ورحت أنتظر دخولها بفارغ الصبر ، مثلمــا يقولون . انتظرها ، وكأنما انتظر نصيبي ، خبزتي ، ولم نعد نسمع حوار النسوان . سكتن . فقلت لنفسي : الله لا يريدني ان اتــزوج . او ربما سمــع النساء حوارنا الهامس ، فلم يردن توريطي ، او لم تكن لواحدة الشجاعة لتدخل علينا . وحزنت كثيراً . وفجأة سمعنا قلقلة فــي الباب . ودخلت فتاة ، تؤطر العباءة وجهها المحمر . ويدها الحاملة الصينية محمرة ايضا .

ــ وبعديــن ؟

ــ قلت لنفسي ستقذف الاقداح وتهرب ، لان كل واحد منا فتح عينيه ، ووجهه عليها . ولكن الفتاة سارت عبــر الغرفة بخطى واثقة ، والابتسامة الخجول على شفتها ، وتمد الاقداح لنا دون أن نسمع للاقداح ارتجاجا .

ــ وكيف كانت هي ؟

ــ اويلي ، عباس ! ــ وأحس بدفقة من العاطفــة تجتاح صدره ، ومد ذراعه مرة اخــرى ليمسك بصحــن

الليلبي ، ويتناول كأسه من الارض ــ فص الماس . أوه ، يمكن فص الالماس بارد ، لا اعرف . اما هي فقد دخلت وادخلت معها منقلة فحم . هذا ما تصورته ! توهجت . حكتني عليائي . أحسست بابر ألعرق تلسع جسدي . فتاة قصيرة القامة ممتلئة قليلا ، مثل تلميذة مدرسة . عيناها تنظران نظرات تسبي القلوب ، وفمها يسبّح بحمد الخالق . وردة . . . أش اقول لك ، اش اوصف ؟

ولعله خجل في اخر الامر . فالفتاة أصبحت زوجته على اية حال . والعرض عزيز . ولكن الخمرة جعلت للفكر اجنحة ، وجعلته يهيم في رياض الذكرى . تدفقت الصور على ذهنه موجات حية غامرة ، حارة ، خانقة ، مثيرة للشجن وكان فاضل يترنح في ثبجها مثل زورق خفيف . وكانت هذه ثالث مرة يحتسي فيها الخمرة ، ومع الشخص نفسه ويحس بدبيبها يرخي عقد جسمه المتوتر ، ونفسه المتعبة اللائبة . وكان الشخص الذي يجلس امامه ، رصينا جامدا كأن الخمرة لا تحرك شيئا فيه . كان يبدو دائبا في الظلمة ، لا يسمع منه غير نحنحة . وكان فاضل يود لو يسمع كلمة منه ، استحسانا او استهجانا . ولكنه صمت منشغلا بسيكارته وأنفاسه الخشنة . وبعد برهة سأل :

ــ ماذا يشتغل اخوك الذي جاء اليك ؟

ــ لا يشتغل . مهندس عاطل .

ــ العطالة بين المثقفين ايضا ؟

ــ سيجد له وظيفة ، على اية حال .

ـ هل هو معك ام ضدك ؟

ـ يبدو متعاطفا معي . كانت زوجتي تقول انه كان رقيقا معها رقة تخجل منها . وكان يسألها اسئلة غريبة . على العموم انه يبدو غريبا بيننا . كلمة « الشكر » على لسانه .

ـ هل دخلت معه في حديث ودي ؟

ـ يعني ؟

ـ ما رايه في الاوضاع ؟

ـ لا ادري . يقول الوطن الذي لا يوفر لك لقمة عيش كريمة ... لا اعرف كيف قال ... يعني موزين . في ٦٢ كان مختفيا .

ـ تمسك بهذا الاخ .. اشرب ...

ـ لا استطيع ان اشرب ... سكرت ...

ـ حرام ان تعوف العرق الذي صرفت عليه عرق جبينك .

ـ اشربه انت .

ـ تقنيني ربعية عرق كلما شربت العرق .

وفي البيت كانت فضيلة تنتظر اخاها . فرغت من كل اشغالها ، وجلست في المطبخ تنتظره . كان الجو طيب الهواء مضمخا برائحة خضرة باردة ، فتحت النافذة ، وجعلت الهواء ينساب اليها عبر شجيرة التفاح الصغيرة في الحديقة الخلفية . شمت رائحة قداح حملتها اليها النسمة من البيت

المجاور . انعشتها الرائحة ، ذكرتها بأصائل جميلة ولحظات من هدوء البال ، حيث يبدو جميع أهل البيت وكأنهم في كنفها، وتحت رعايتها ، وتبدو ضرورية لهم ضرورة السقف الذي يظلهم . فتحت رأئتيها لعب الهواء . وأطلقت أنفاسا كالزفرات ، وشعرت بخفة وكأنها عادت صبية مباح لها ان تفعل كل شيء . نهضت من جلستها ، وحملت مقعدها قرب النافذة المفتوحة وتلفتت مترددة . وراق لها الجو الساجي، الخلوة مع نفسها . نهضت مرة أخرى ، واتجهت نحو الباب ، واطفأت المصباح ، وشعرت بالظلام يلمس جسدها كثوب فضفاض يتيح لها حرية الحركة ، وكأنها ارتدت « كلاو الخناس » انصتت . البيت خلفها صامت . امها وابوها اعتكفا في غرفتهما منذ زمان . كأنهما يتجنبان ان يريا فاضل عائدا في ترنحه الزري مزرق الوجه ، معتوه العينين . وأعتكف شامل في غرفته . وماجد لا خوف عليه . البيت يبدو كالمهجور . عادت فضيلة الى مقعدها . داهمتها رغبة مفاجئة في أن ترتقي المقعد ، وتنظر في الشارع الليلي. وضعت رجلا عليه ، وترددت ، ثم ضغطت على ركبة رجلها الموضوعة على المقعد ، وصعدت . الشارع الذي يفصلها عن صف البيوت الاخرى فارغ شبه مظلم ، ولكن بعض النوافذ المضاءة تطل فتبدو من بعيد مثل شبابيك من ذهب مقصبة بستائر خفيفة . اشرأبت فضيلة بعنقها أكثر ، تخطت ببصرها البيتين المقابلين ، واستطاعت أن تشمل ببصرها البيت الثالث . رأت المصباح مضاء في الفسحة عند الباب المؤدي الى الحديقة الجانبية . استوقفت بصرها طفلة في ثوب بنفسجي كانت ترفع ذراعها النحيلة اللامعة

لتصل الى فم امرأة لتلقى فيه شيئا . كانت الطفلة تقف بين رجلي المرأة المنفرجتين ، وتمسك بماعون صغير في يدها اليسرى المرتخية ، وعندما توفق في وضع ثمرة ــ ربما هي ينك الدنيا ؟ ــ في فم المرأة ، تضحك ملقية رأسها الى الوراء ، ويهتز شعرها الطويل المرسل على ظهرها . كانت المرأة تمانع ، ترفع عنقها ، وتطبق فمها ، ربما شبعت ؟ ــ ولكن الطفلة تصر ، وتحشر الثمرة في فم المرأة ، وتسحب يدها حالما تنفرج الشفتان المطبقتان . كانت الطفلة تجد لذة في هذه اللعبة ، وتسترسل فيها . ثم بدأ الملال على المرأة فكانت تهز رأسها خائفة ان تنطق بشيء مخافة أن تنتهز الطفلة انفراج الشفتين ، وتضع الثمرة . ثم تضايقت المرأة على ما يبدو فنهضت . ونزلت فضيلة من المقعد . خشيت ان يفاجئها أحد من اهلها . اعادت المقعد الى موضعه ، وجلست بعد أن أدارت زر المصباح . وبعد دقائق ، ضجرت . تافقت . اوي ، فاضل ، متى ستعود ؟ ستطلع روحي . هل زوجتك كانت تنتظرك هذا الانتظار ؟ عندما كانت زوجته في هذا البيت ، كان لا يخرج ليلا . كان يستمع الى التلفزيون مع العائلة ، ثم يصعد مع زوجته الى الطابق الثاني . كانت العائلة كلها تلتف حول التلفزيون ، حتى ماجد ، حين عاد من الخارج ، كان يقضي اغلب امسياته أمام التلفزيون ، مرآة البلد ، كما كان يسميه . وكان يريد أن يتطلع الى هذه المرآة . وبعد خروج حسيبة تشتت الشمل ، وصمت التلفزيون ، وصار كل واحد يدور في فلكه ، وكأنه لم يعد قادرا على ان ينظر في وجه الاخر . تفتتوا ، لملم كل واحد نفسه وبقيت

هي ، فضيلة ، وحدها وفية الى ما الفته وحملته عبر سني العمر الطويلة . تهب في الصباح قبـــل الجميع يخامرهــــا احساس دائم بأنها تأخرت في نومها . تهـــب كالمذعورة تخشى أن يخرج ابوها أو فاضل بدون فطور . تخرج من غرفتها الى المطبخ ، وتشعل الطباخ ، وتضع أبريق الشاي عليه . ثم تذهب لتهيء نفسها قليلا . وتدخل المطبخ ولا تخرج منه الا بعد ان يتناول الجميع فطورهم . وكانـــت تجد لذة في ذلك ، وتفرح بكلمة شكر صغيرة . وفي الضحى تذهب للتسوق ، ثم تبدأ بالتهيئة للغداء ، وهكذا دواليك فلا تبارح المطبخ الا في ساعة متأخرة من المساء . وكان التلفزيون سلوتها الوحيدة ، الوسيلة المعترف بها لتقلها الى العالم الخارجي . وحتى هذا سكت . وكلكلت على البيت غيمة سوداء خانقـــة .

زفرت فضيلة ، وامسكت بالسكين الموضوع علـــى الطاولة بحركة عصبية ، ثم ألقته بذعر مفاجيء . نهضت ، لا تعرف ماذا تفعل . عادت فقربت المقعد من النافذة ، واطفأت المصباح ، وعاودت لعبتها العابثة : الاطلال على الشارع الليلي . شبابيك الذهب غيرت مواقعها ، ولكـــن المصباح في البيت الثالث الى يسارها ما زال مضاء . كانت الطفلة قد كفت عن أطعام امها بالفاكهة القادمة من الاردن، وجلست على مقعد صغير بالقرب من آمها ، ونشرت على ركبتيها كتابا كبيرا نحيلا ، واخذت تقرأ هازة اصبعها في الهواء ، متطلعة ببصرها الى امها من حين الى اخـــر . والام تهز راسها مستزيدة ، مشجعة آياها اكثر من لعبتها

السابقة : وضع الثمرات في فمها . ودت فضيلة لو تسمع ماذا تقول الطفلة . حركاتها متزنة ، وأصبعها تتساوق مع هزات رأسها ، والتفاتاتها . لعلها تحكي لها حكاية من تلك الحكايات التي تمتلىء بها الكتب ، كما تتصور مشوقة تنسي الانسان الدنيا وما فيها ، مثلما يفعل ماجد وشامل حين يخلوان الى كتاب . فتظل تناديهما ... ماجد ، شامل ، الغداء راح يبرد !

سورة من النقمة غير الارادية جعلتها تزهد في كل شيء . هبطت من المقعد ، وأغلقت الشباك في وجه رائحة القداح ، وأدارت زر المصباح ، وجلست جلستها الاولى تنتظر .

سكون الليل يرسل النعاس الى جفنيها . مفاصلها خدرة . قدماها تئنان . هومت فضيلة ، ومرت في مخيلتها صور من حيها القديم ، ايام كانت تبدو وكأن الزقاق كله يلهج باسمها . فضيلة ، فضيلة ... والآن ، تبدو كالمحاصرة ، منبوذة ، لا احد يعرف من هي ، وماذا تحمل على اكتافها . افاقت من هواجسها على خربشة على الباب . نهضت . تعثرت في العتبة ، لانها لم ترد ان تدير المصباح ، ويستيقظ أبواها . كانت تعرف من القادم لو أنها سألت زيادة :

ـ من ، فاضل ؟

ـ افتحي الباب . فاضل !

دخل ودخلت معه الرائحة الغريبة في حياتها . تلمس فاضل يدها في الظلمة ، وقبلها ، وعانقها ، واحتوتها الرائحة المنبعثة من انفاسه اللاهثة . بادلته العناق . قالت هامسة « خفت عليك ، اين كنت » ؟

وفي المطبخ سألته :

ــ طبعا ، لم تتعش .

قبل يديها . كان يبدو في حالة يائسة ، ضعيفا منهارا . قالت له متفجعة :

ــ أنا اعرف انك شربت على معدة خالية . ستقتلني، يا فاضل !

دق فاضل على صدره :

ــ انا المقتول .

ــ انت الذي تقتل نفسك ، وعلى اي مال ؟

ــ وكل شيء يقاس بالمال ، يا فضيلة ؟

ــ لا ، تصدي الذي لا يعرفك لا تعرفه .

ــ فضيلة ، انت لا تعرفين ما الحب . الا يضجرك أن تكوني دائما وحدك ؟

صمتت فضيلة . وراحت تعد العشاء ، وحركاتها الحادة تعبر عما في قلبها . ثم قالت بابهام :

ــ وماذا بيدي ؟

تصور أنها كانت تبدي عجزها عن دفع ما وقع .

ــ كان في وسعك أن تفعلي الشيء الكثير .

ــ ماذا افعل ؟ اتف في الشارع .

ــ كان عليك أن تتفي الى جانبها . انها شابة مثلك .

انفجرت فضيلة باكية بكاء خافتا مخنوقا ، لانها شعرت بظلم شديد . قالت بصوت مخنوق مخافة أن يسمعها والداها :

ـ ماذا فعلت لها ؟ كنت وما ازال أحمل شغل البيت كله على رأسي . ولا ادعها تعمل . ماذا تريدني أن افعل لهـا ؟

رقق فاضل من لهجتـه :

ـ على الاقل كنت تقولين لامي وأبي ان لا يناكداها .

ـ كانا يتصوران أنهما يريدان مصلحتك .

نشقت فضيلة من أنفها ، وقالت :

ـ كان أبي يريد أن يصبح جدا ، يشتاق ألى طفل منك في شيبته ، فتصور ان ...

ولم تكمل . نهض فاضل دون ان يمس الطعام :

ـ آه ... كلكم اعدائي .

ـ حرام عليك ، يا فاضل .

توجه فاضل نحو باب المطبخ :

ـ لا اريد ان اتعشى .

ـ ستجعلني لا انام الليل .

- ٢ -

اذكر انهم غادروا البيت ، ولم اخرج مـن غرفتي . ولو كنت احس بأنها تروح وتجيء هناك ، في الاسفل . ثم ارتفع صوتها بالغناء . خفق قلبي . أنها تغني لي . تدعوني . فهل اكرر ما فعلته يوم أمس ؟ هربت حين أمسكت يدها « ترى ، اقول ؟ » صعدت خائبا الى فوق . احس بأن جسمي مشلول لم اعد ازاول رياضتي السابقة . وجودها ، او اكتشاف وجودها قيد حركات جسمي ، اطلق لافكاري ولاحلامي العنان . صرت احس بوجودها احساسا مقضا للمضجع . كأنني مشدود الى حجر في الاسفل . ماذا يقولون لو قالت لهم ؟ مـن العار ان افسد حسن الضيافة . مثلما لا أريد ان افسده هنا .

هنا ، اه ، هنا . كم أحس بالتعاسة وانعدام الوزن! لو تطول عطالتي فسأبقى حجرا معلقا في رقبة أبي . لا بد انه سيضجر . تعب وشقي ، وارسل لي الفلوس ، واذا به يجد ابنه عالة عليه ، حتى وهو يدنو من الثلاثين . اجد لكل اكرام من جانبهم تذكيراً بحقوقهم علي . فضيلة تشملني برعايتها السابغة ، تشمل البيت كله . الجميع يأكلون ما تطبخ ، ويلبسون ما تغسل . حتى حسيبة كانت مشمولة برعايتها ، ولعلها مثلي لم تقبل بهذه الرعاية

الزائدة فهربت . تريد ان تكون راعية لا مرعية ، ربة ضيف لا ضيفة . الضيافة ثقيلة ومحرجة . كان لي تاريخ معها. عرفت غصصها . عندما كنت ارى حسيبة وراء الطست وتل الملابس الى يمينها ، كنت ارى لمعة الهناءة في وجهها المدور المحمر . كنت اداعبها وكأنما أداعب ذكرياتي : « عليك بالتجويت . ادخلي ضوء القمر الى غرفنا » هل كانت تفهم ذلك ؟ كان وجهها يحمر ، وجبينها يعرق . تلملم ثوبها وتحكمه على ركبتيها . الجلسة نفسها . كانت ساقاها لامعتين ، وذراعاها منظومتين بفقاقيع حمراء وزرقاء صفراء وبنفسجية . وكنت اطل واحس بالدوار ، وكأني اطل على هاوية . قالت : سأشكوك لاهل البيت . قلت : زهقت من المكوث هناك . رجلاي متخدرتان . ولساني ؟ قطعة لحم زائدة . كنت اريد ان اشعرها بوجودي التعس . ربما لاستدر الاشفاق منها . او ربما لا . الاشفاق يثقل على القلب ويجعله كومة من الرصاص . الاشفاق ثقيل كالاضطرار الى الوقوع في ضيافة ... ضيافة اهلك ، والاتعس ، في ضيافة الاخرين. وكان قد مضى اكثر من شهرين كنت فيها حبيس تلك الضيافة ... الاضطرارية المبلدة للحواس .. لا ، لا ... المولدة للاوهام . كانت تفاقم في الشعور بالمطاردة ، وتجعلني اتآكل من الاحساس بالذنب . اقول لنفسي في الليل : لن اهبط اليها اذا خلا البيت من اهله . سأكتفي بالتدفؤ بحضورها في خيالي ولحظات صعودها لتقدم لي شايا . جعلوها تفعل ذلك . جعلوني اقر بالامر الواقع . ثم من الحرام ان تبصق في

الماعون الذي يقدمون لك فيه الطعام ، يا ماجد . ثم انها شابه صغيرة ، وستتضايق منك ، وتفتن عليك . ثم كانت هناك متعة المفاجأة او وحشة الانتظار . كنت اعيد قراءة الصفحة الواحدة مرتين او ثلاثا ، لان فكري كان يسرح ، ويهبط الدرج ويبحث في الاماكن التي تكون فيها : ماذا تفعل الان ؟ كنت اسأل نفسي . واذا جاءني صوتها تصورت موقعها تماما .

جاءتني فضيلة بقدح الشاي قائلة :

ـ الذي لا ينزل أليك اصعد له .

ـ تسلم يداك ، يا فضيلة . شكرا ، الف شكر .

ـ هذا الشكر ما راح يخلص . متى تشعر انك في بيتك ؟

لم اشعر منذ سنين لا اعرف كم عددها . أعترف ان هذا الشعور يلازمني مثل ظلي . ليس لي شيء في هذا البيت ، مثلما لم يكن هناك . حشرت به حشرا . كنت اتحسر حين اسمع الحياة تمور في ألاسفل ، لا سيما اذا جاء ضيوف ، يأتون من هناك ، من خارج الباب الموصود عني . كنت اسمعهم يتحدثون بأصوات طليقة ، فانكمش . يمارسون حقوقهم الانسانية . يهزلون يجدون . يمدحون يشتمون . هذه الحقوق البسيطة كانت محرمة علي . كنت التزم مخبئي كالخلد الذي يقال أنه يولد اعمى ... لا ، لا . انا كسبت العمى في الثالثة والعشرين . مكاسب ثورية ؟ كانوا يقولون انذاك ان المكاسب الثورية تنتزع واحدة ، بعد أخرى . ولكن لم يفعلوا شيئا . كنت أخشى أن احدث

حركة ، ان اعطس ، ان اكح ، مخافة ان اثير انتباههم ..
اقصد الضيوف القادمين من هناك . كنت اكتم في نفسي
رغبة ساحقة في ان ارفع صوتي . أنا هنا . الحياة موارة
في اعطافي . اريد ان اقهقه ملء صوتي ورئتي . كانت
جوانحي تمتلىء بهذه الرغبة الجنونية . كنت امسك نفسي
بعسر شديد . لا اعرف كيف كنت اوفق في ذلك . كان
كياني يصرخ بي ، يتحداني ، معلنا تمرده علي بشياطين
شاطرة تجذبني لارتكاب حماقة .

سمعت لغطا في الاسفل . كان الليل قد مضى ثلثه .
وضعت القلم على الورقة ونهضت . وقفت عند الباب
اتسمع . اصوات مكتومة . لا . هناك صوتان يتهاوشان .
رجالي مبحوح ، والاخر نسائي ملهوف . في مثل هذا الوقت
كنت اسمع وشوشة في الحجرة المجاورة . الى هذا الحد
تغير ؟ اكرهت نفسي على البقاء مطوي الذراعين على
اوراقي ، اصارع حنقا كظيما على شيء ما ، لا اعرف ما
هو على وجه التعيين ، لو نزلت لرايته في حالة يرثى لها ،
ولتحاشاني مظلم الوجه . أعرف حالات تنقلب فيها سحنة
الانسان الى بلاهة مجسدة كمدا أو عشقا او سكرا او
اندحارا . وكل ذلك ينطبق على فاضل . اصيب بطعنة
موجهة مني ومن الاخرين . كان راضيا بلقطته هذا الرضى
المطلق الذي يسد على المرء سلالم الطموح ، سعيدا
تلك السعادة الغيبية التي تخلق من خلو الذاكرة من الحلم
وشائج لا تنقطع مع الاخرين الا بتقطع نوابض الحياة .
كان فاضل يتصور انه يحتضن الكون بين ذراعيه ، وانه

يعثر على مفتاح سعادته ، وغاب عن الناس ومواضعاتهم وما يطلبونه من الزواج ، وما لا يطلبونه . فماذا به يجد الاخرين يتدخلون فيما لا يعنيهم ، ويسلبونه تماسكه .. تماسك ، يا فاضل . هل تعرف مقدار ما صبرت أنا ، وكتمت داخل قوقعة نفسي ؟

في اليوم الذي سبق خروجها من البيت كانت طبيعية معي ، ابتسمت ابتسامتها الدافئة الحزينة . كان الحزن جديدا عليها — وقالت « جرحت اصبعي بالسكين » وأرتني اصبعها المشدودة . هونت عليها . قالت « سيندمل . وليس كالجروح الاخرى » وهذه أول مرة اسمع منها تلميحا للشيء الذي حدث بيننا . ولكن ساعتها لم افكر فيه . كان حضورها يلولب فكري ، ويجعله منصبا عليها ، وعندما خلوت الى نفسي أستوعبت ما ترمي اليه . أم لعلها قصدت معنى اخر مختلفا تماما ؟ حقا ، هناك جروح كثيرة لا تندمل ، في الجسد والقلب والفكر واللسان ، وفي الذاكرة ايضا . وفي اليوم التالي لم أرها ، ولم تصعد الي . كان البيت غاصا ، وظللت قابعا في وحدتي ، واضعا بين يدي كتابا ، يشرد ذهني كلما قرأت بضعة سطور منه . كنت اسمع اصواتهم ولغطهم في الاسفل . ثم جاء اليوم الثاني والثالث والرابع ، وهي لم تصعد الي . وانا لا اجرؤ أن اسأل . هواجسي تزداد ، سحنتي تتغير ، وكلامي يفقد تماسكه ، البيت يتحول الى سجن حقيقي . وحين خلا البيت من اهله . عدت امارس رياضتي المعتادة مفكرا تفكيرا غبيا بأنها ، كما كانت من قبل ، قابعة خلف خصاص

ترقبني . كنت اشعر بقشعريرة هذه المرة ، فلم آخلــع قميصي وبنطلوني . ولكنني مارست التمارين السابقة نفسها. صعدت وهبطت الدرج عدة مــرات ، قلبــت « عقربا » ومشيت على ألارض ، حنجلت . اخذت « شناو » لاهثا فاحا كالثعبان . تدليت من عارضة . تناولت كرسيا ، ورحت ارفعه وانزله بيد واحدة لتبديد طاقتي الحبيسة ، الطاقة التي كانت تدوي في اعماقي كالحمم ، وتوشــك ان تتفجر وتدمرني . ولكن كنت اقوم بتمثيلية ، هذه المرة ، حماسي جزء من نقمتي وضياعي . امسكت عن هذه اللعبــــة الحمقاء ، لانني ادركت عبث ما اسعى اليــه . لقد اقفر البيت الى ما لا علم لي به .

ذات مرة صعدت الي بقدح الشاي وتفاحة . وقالت :

ــ تقرأ وتقرأ . لازم عندك أمتحان .

ــ امتحان صعب . لا اعرف هل سأنجح فيه ام لا .

ــ لا بد انك ستنجح . لانك النهار كله حابس نفسك في البيــت .

ــ لان الحياة هي التي ستمتحنني .

نظرت الي نظرة مستغرقة ، وقالت مصدقة علــى قولــي :

ــ امتحان الحياة اصعب امتحان .

وكانت هذه اول مرة يدور بيننا حديث لا تفكهة فيه ولا مزاح ، لا مداورة فيه ولا مناورة . حديــث بين قلبين مستعدين ان يدخلا في تحالف . سألتها :

ــ من اين انت ، يا ... ؟

ــ انا من قزر باط .

ــ ونزحت منها الى بغداد ؟

ــ جئتها مع اختي الكبيرة للعمل .

ــ ووالداك ؟

ــ تركنا امي ترعى ابي المتورم الركبتين بورم لا نعرف سببه ، يأتيه في الربيع ، وتمتلىء ركبتاه بالماء .

التزمت جانب الجد ، وتركتها تذهب . لم تساورني الافكار الخبيثة التي كانت تغلي في أعماقي كلما رأيتها تقبل علي بقامتها الممتلئة المائلة الى القصر . لمع ثوبها البيتي المورد في عيني مثل ومضة برق عابرة ، حاملا معه لهفتي .

صمت اللغط في الاسفل . سمعت وقع أقدام مرتبكة على الدرج . فاضل يدخل في حجرته . وحين هدأ كل شيء ، سمعت وشوشة مبحوحة في قعر الدار . ربما كان ابي يقظان حين جاء فاضل سكران ، ولم يرد أن يغادر غرفته لكيلا يصطدم في الواقع . آثر ان يتدثر بالذكريات الخوالي ، ان يحتفظ بفكرته عن الزواج المثالي ... أنجاب الاطفال ثم انجاب الاطفال الى ان يقصم الله ظهر الرجل . يدي تعبت من سحب القلم على الورق . تركت القلم وارخيتها . ولكن حواسي متيقظة . وعيناي لا تغمضان . النوم يناصبني العداء . وهو والفراغ لا يجتمعان في شخص واحد . اعرف ذلك من تجربتي ، قضيت ليالي طويلة مسهدة لم تكتحل عيني بالنوم فيها الا مع الفجر . ولان جسدي مرتاح لا يحمل اي وتر ، فأنا اناجي افكاري . من مؤهلات النوم ان يوتر جسدك باثقال التعب ، أن تئن قدماك وتصرخا عليك . اما ان تضج نفسك

بالهواجس والظنون والافكار والاحلام والمخارف ، فانك تجرع حقنة مركزة ضد النوم . جسدي مرتاح ، ونفسي مضطربة ، عجيب ان الجسد يتعب ويئن من الانهاك . اما النفس فان لها أحاييل خاصة بها لتخزين التعب ، وامتصاص الصدمات ، وترسيبها الى الاعماق عبر فلزات ملونة ... التناسي ... التغاضي ... التسامح ... واني لاعجب لنفسي كم امتصت من صدمات ، واختزنت من مواد حارقة .

في الساعة الثانية من ظهر هذا اليوم كنا خمسة مهندسين ننتظر في باب المديرية على أمل أن نقابل مميز الذاتية . اقبل علينا شاب كان يبدو وكأنه يبحث عن وظيفة مثلنا . الا انه قال بغموض :

— سوق العمل ؟ ايه ، ايتها السواعد المفتولة ، الى متى تذوين في المدينة ؟

قال جاري على الحائط المتكأ :

— هذا جليل العطار ، فنان متمرد .

قلت ببلاهة :

— ماذا يقصد بعبارته ؟

— انه يدعونا للثورة .

— وضعنا مشجع لها .

بعد الساعة الرابعة اجتمعنا في مقهى « علوان » وهو مقهى صغير يجاور حانوتا للحلويات ، يرتاده العاطلون من المثقفين الثوريين ، والمخبرون السريون من ذوي العيون النمهة ، والاذان المرهفة ، ولعل هذا المقهى هو البقعة

الوحيدة التي يتعايش فيها هذان الصنفان في سلام ظاهري على الاقل . رايت الزملاء قد سبقوني . كان الفــراغ في عيونهم ، والملل على أيديهم المرتخية على ركبهم أو على اذرع التخوت . وكان احدهم يقضم « صمونة » عبثــت بشيء ما لا يبتلع بسهولة . فكان يتكور خلــف الخديــن المنتفخين .

كم انا اكره هذا القطيع ، وكم انا مستسلم لضياعه ، وخدره ! كانت كل كلمة تقال تصاغ لتبدو حيادية ، وبصوت عال اراحة للمخبرين ، على المثل القائل : « احدثــك يا بنتي ، واسمعي ، يا جارة ! » وكانــت اعلى « ثورية » مسموح بها في هذا الجو ترديد البيت القائل « بلادي ، وان جارت علي ، عزيزة » . فقد كان كل شيء عزيزا علينا : الخبز والبطالة ، النفط والجوع ، والاصدقاء والمخبــرون ، الشعب وجلادوه ، مقهى علوان وبار الطاحونة . وصاح الذي فرغ من علك الصمونة :

ــ انا مطمئن الى بضع ساعات من الان .

ــ انت شاب ، يا مؤيد . والشباب له الغد .

ــ ليس كل الشباب ، بل المخلصون منهم .

ــ كسرت يد من لا يخلص .

ــ احسان ، انظر الى هذه الفتاة ، ترى : الى اين هي ذاهبــة ؟

ــ « طالعة من بيت ابوها ورايحة لبيت الجيران » . صمت للحظات .

ــ مؤيد ، ماذا يعرض في سينما الخيام ؟

ـ لا ادري ، ولكن أعرف ماذا يعرض في سينما النصر ؟

ـ ماذا يعرض في سينما النصر ؟

ـ الذي كان معروضا فيها قبل اسابيع .

ـ حماتي قنبلة ذرية ؟

ـ ما هذا العنوان الهدام ؟

ـ ثرثرة في مقهى علوان .

ـ يا جماعة ، تكلموا عن شيء جدي .

ولم يجدوا شيئا جديا يتكلمون فيه ، فسكتوا ثم جاء جليل العطار فهشوا به وبشوا ، واحاطوه بـ « الله بالخير » . كان نحيلا رزينا عليه مسحة من حزن محبب يضفي على قامته الطويلة انطباع « شمعة تحترق » . ولم لا ؟ ألم يقولوا انه فنان ثوري ؟ وكانت « الثورة » كلمة سحرية رومانطيقية مثل جيفارا وكاسترو وكوبا وبوليفيا والبؤر الثورية ، وجدت من حولي من الشبان يتهامسون بها ، ويتمطقون . وقال أحسان مخاطبا جليل العطار :

ـ ألاخ ماجد هو اخو شامل عبد الواحد ، صاحبك في معهد الفنون .

ـ صاحبي ؟

تساءل ببراءة واستنكار ، وشملني بنظرة نارية الهبت مؤخر راسي . ثم قال وكأنه يبدأ بسرد حكاية :

ـ شامل جسور .

نظرت اليه ، لاسمع المزيد . انا اعرف اخي . جسور . قال مختتما حكايته :

ـ يشغل قسم التمثيل كله بمسرحيته . اعطني كتابك يا مؤيـــد .

ـ كتاب تافـــه .

تبرع احسان ليقول ذلك . مؤيد :

ـ على هذا تلاحقني ؟

احســـان :

ـ أنا افضل التسكع على قراءة كتاب تافه .

ـ ليس تافها كليا ، بل مضجر . ونحن على سنـــة النواسي . وداوني بالتي كانت هي الداء .

قال الذي كان قد اطمأن لبضع ساعات :

ـ اذن ، متى ستبدأ بالدواء النواسي الحقيقي ؟

ـ المساء لم يقبل بعـــد .

ـ لن تجد مكانا في البارات الرخيصة ، اذا تأخـــر الوقـــت .

وصار احدهما يستحث الاخر بطريقة من الطـــــرق يعتبرها غير مقصودة . ونهض الجميع ، ونظـــروا الي . احسست بالمغناطيس الذي في عيونهم . لم ارد أن اذهب معهم ، والله العظيم ، فأنا اكره الخمرة . ولكن تصورت الفراغ الذي سيبتلعني بعد غيابهم . نهضت . واستسلمت الى تلك العفوية المخدرة التي تستحوذ على القدمين دون ان يدري صاحبها ، وكأنه مقامر دخل لعبـــة ولا يريد ان يخرج منها الا مع الرهان الاخير . سرنا مثل فلول . رايت شمس الاصيل تتوارى وتشمث سقف النخيل في الجانـــب الاخر من النهر . في تلك البلاد كانت تختفي وراء بنايـــة شاهقة . ترى الدنيا عسجدية ، احيانا ، وفجأة يحل اللون الرمادي الباهت . ويبقى مدة لا بأس بها ، وتعتريك وحشة

الغروب مثلما تعتريك الان فستفيث منها بسينما وبمسرح او بلقاء مع واحدة من الجنس الاخر . اما هنا ، فحماتي قنبلة ذرية . وبار الطاحونة . رايتهم يقفون امامه ، واحدهم يقول للاخر « احسن منه لا تلقى » .

كان البار اشبه بالمغارة ، له نافذة عريضة مقلمة بقضبان معوجة ، وقد لاح منها بطن الجسر ، وقد تلونت اضلاعه بشمس الاصيل الغاربة . قال جليل العطار :

ـ هذه الاشعة تذكرني بشمس المعتقل ، ايام ٦٢ .

قال مؤيد :

ـ وظلت تلاحقك حتى الان كاللعنة ؟

قال جليل :

ـ لا ، ابدا . كان ذلك المعتقل معتقل جبهة وطنية. كان يضم شيوعيين وبعثيين وقوميين وسائر الاقليات الوطنية .

قال احسان :

ـ يا اخوان ، للجدران اذان .

قال الذي كان يملك صمونة ، واسمه حيدر :

ـ في ذلك الوقت كنت في الكويت .

ـ واين كنت ، يا ماجد ؟

قلت باستحياء :

ـ كنت مختفيا في احد البيوت .

وشعرت بجفاف في حلقي . كأن كل الاشياء تتآمر عني لتنبش الماضي ، الذي كنت اتصور انه قد انقبر او

اندثر ، وغاصت اثاره ، ندوبه ، تحت ركام مـن الهموم الاخرى . ولكن للماضي قوة للتحدي والمراوغة في كل لحظة من لحظات الحاضر .

قال مؤيـد :

ـ أما انا ، فكنت مع الشعب في محنته .

ـ فكسبت الثواب ، أليس كذلك ؟

قال حيدر ذلك ، وضحك . ثم صمتنـا حين جاء النادل . وقدمنا طلباتنا متفرقة ناطة كقفزات العنز .

قال جليـل :

ـ عجيب هذا البلد ، لا يخلو سنة واحدة من معتقل .

قال مؤيـد :

ـ أينما رايت معتقلا وجدت روحا ثورية حوله تحوم.

ـ من قال هـذا ؟

ـ احد الثوار لا اذكر اسمه .

قال جليل العطار كالنائح :

ـ وما اكثر الثوار حين تعدهم ، ولكنهم في النائبات قليـل .

جاءت الخمرة وملحقاتها من الماء والثلج واللبن الزبادي وصحن مزة مشترك للجميع .

قال احسـان :

ـ نحـن نضرب الامثال دون ثمرة ، حتـى خبزنا اليومي لا نحصل عليـه .

قال جليـــل :

ـــ اذا حصلت على خبزك اليومي كففت عن ضرب الامثال ، بل وحتى عن التفكير .

قال مؤيـــد :

ـــ لا ، يفكر ، ولكن بطريقـــة غير ثورية . الخبـــز والثورة كالماء والنار لا يجتمعان في كيان واحد .

قلـــت :

ـــ دوستويفسكي يقول : الخبز والحرية لا يجتمعان.

صـــاح احسان :

ـــ دوستويفسكي كاتب رجعي مثالي مصاب بالصرع.

قال مؤيـــد :

ـــ الدمغة المعتادة .

قال جليل بعد جرعة كبيرة :

ـــ سنصاب جميعا بالصرع ، اذا بقيت الامور على هـــذا المنوال .

قال مؤيـــد :

ـــ سنلجأ الى ما يصفه احد الكتاب بالكذب المنقذ .

ـــ دوستويفسكي يقول هـــذا شخص يكـــذب كما يتنفس .

ـــ اكذبوا تصحوا ، او قل تعيشوا .

ـــ اشربوا تنســـوا .

ـــ كأسك احســـان .

ـــ لن ينقذنا شيء ـــ قال جليل بحماس ـــ ـــ الا مواجهة الحقيقة .

مؤيـــد :

ـ والحقيقـــة ؟

ـ نحن خاملون .

ـ الان ؟ في هذه الحانة ؟ نحن في منتهى الثورية .

ـ اسكت ، احسان ، الثورية في مواجهة الحقائق ؟

ـ واين نواجهها ؟

ـ في التعبئة الجماهيرية .. وليس كما يفعل البعض.

ـ انا ضد تعبئة الجماهير في الحانات .

ـ انت تعرف ماذا اقصـــد .

بدأت الكؤوس ترفع بتعاقب متزايد . وقال مؤيـــد لتخفيف توتر الجـــو :

ـ دعونا نسمع راي ماجد . لماذا هو صامت ؟

قلت بسرحان ذهـــن :

ـ كل شيء متوقف على اللحظة الثورية .

قال جليـــل :

ـ وما اعظمها من لحظة ثورية . تذمـــر ، نقمة ، فساد ، رشوة ، وحكومة عاجزة حتى عن سداد رواتـــب موظفيها . فماذا تريدون ؟

قال احسان محتجا بصوت خفيض :

ـ ولكن مثل هـــذه الاحاديث لا تجـــري في المقاهي والبـــارات .

ـ واذا كنا قد حرمنا من ابسط حقوق المناقشـــة الحـــرة ؟

ـ من حرمك ؟ ولكن ليس في البارات .

طق جليل اصبعيه وقال :

ـ آها ، وضعوني في سرك ، وقالوا لي : ألق خطبة الجمعـــة .

قال مؤيـــد :

ـ بدأ سكرك مبكرا ، يا جليل .

ـ هؤلاء يسكرون الذي لا يسكر .

ـ لا تحارب عدوا خياليا متوهما . حارب عدوك الاصلـــي .

ـ هل تتهمني بالجبن ، يا احسان ؟

ـ لا ، واكرر ليس من الشجاعة أن تطلق لعواطفك العنان في البارات .

ـ ماذا تريد منـــي ... أقف في ساحـــة التحرير ، واصرخ : يا عالم ، يا ناس ، كذا وكذا ..

ـ لا اريدك أن تصرخ ، اريد أن تناقش.

ـ تفضل ، ناقشني .

ـ قلت لك : ليس هنا ، والاعصاب متوهجة .

ـ الاعصاب دائما متوهجة . هذا من ثقل الواقـــع الكابوسي ..

ـ الخمرة تزيد من توهجها . الخمرة تؤجج لواعج النفس ، وتضخم المتاعب . وتقرب الآمل وتبعده ، تماما كما يحدث في حين يتسلى المرء بالنظر في منظار من عدستيه الامامية والخلفية بالتناوب .

ـ لا فض فوك ، يا احسان .

قال جليـــل :

ـ الحكمة تعني فلسفة العجز ، احيانا .

ـ لا تدعنا نتبادل الاتهامات .

قال مؤيد متذمــرا :

ـ لم نخل مرة الى الخمرة ، الا وكانت السياســة ثالثتنــا .

ساد صمت . حقدت على جليل في سري ، حقدت على هذا الاهدار العنيد للطاقة الروحية . ولكــن لا بد من ان هذا الغمز واللمز يشير الى تاريخ شائك من العلاقــات الخاصة والعامة . فضلت الا اجادل . في زماننا كنا نتجادل ونصرخ وندق على صدورنا . وكنا نخلط في العناوين ايضا . وهذا جيل يبدو غريبا عني بعض الشيء ، في حيويته الزائدة وقنوطه الشمشوني . ولا بد أن له أسبابا كثيرة لاثــارة الزوابع والتلذذ بالسورات التي تحدثها طاقة نفس حبيسة تدور هناك في الاعماق .

الصمت القصير اراح الاعصاب كثيرا . قيلت كلمات متقطعــة للمجاملة ولاراحــة النفس . وتبودلــت كلمات متهامسة في جناح اليمين وجناح اليسار من المائدة التــي اشتغل مؤيد في ان يحفظ توازنها بوضع علبة سيكائر مطوية تحت احدى أرجلها ، وليمنع الارتجاج والرنين بين الاقداح والزجاجات .

همست لاحســان جاري :

ـ يبدو ان جليل متألم كثيرا .

ــ يعاني من شيء ما ــ قال بالهمس نفسه ، ولكنه رفعه قليلا حين قال ــ ولكنني اعــرف اعماقه .. انهــا طيبـــة .

وكأن جليل سمع « طيبة » ، فقال كالمترنم ليثبت ذلك:

ــ ولا يبقى أمامك غير الانتحار ، كشكل واحد للبطولة في بعض الاوقات .

قال مؤيد ، وقد فرغ من تثبيت المائدة :

ــ الانتحار لا يحل معضلة .

ــ على الاقل مع نفسك . عندما لا تجد مجالا تنفس فيه عن حممك لا تجد غير نفسك لتفجرها .

قلــت :

ــ المنتحرون يخسرون حتى طيب الذكر .

ــ هذا ما يقوله بعض الناس . اما هم فقد ماتــوا مضحين بأنفسهم أحتجاجا على بلادة العالم وجموده .

تمتم احسان بشيء ، واشاح بوجهــه :

ــ وبلادة العالم لم يأخذوها معهم .

ــ الانتحار ضرب من البطولة .

وبدت عليه كآبة قسرية مفاجئة . عصر الكأس بيده، وشرب جرعة ، وتهشمت تقاطيع وجهه ، فقــذف الكأس صوب النافذة المفتوحة . ونط وكأنما يلحق حطامها . في تلك اللحظة بدا النهر قريبا جداً . فما هي الا وثبة اخرى ، ويكون في احضان النهر . الا اننا كنا مطمئنين الى ان قضبان النافذة ستقيه كل مكروه . راقبناه بالقرب منها ، يحاول ان يفلت ، ويحشر كتفه بين قضيبين معوجين ، ويعاركهما .

اخذنا نتأمل محاولته ، وكانما نشهد مشهدا سينمائيا عن فرار سجين . كان قلبي مع السجين ، اريد ان تصل محاولته الى غايتها . كنت انتظر لحظة الافلات ، واخشاها في الوقت ذاته . صرت وكانني اراقب شخصا يمشي على حافة هاوية . يبدو ان الحديد استجاب لقوة حنقه . ارتجفت يداه بتوتر مرتعص ، وانفرجتا ، ولاح راسه واضحا بين القضيبين المعوجين . الا انه عدل فجاة ، حين التفت التفاتة مفاجئة الى يساره ، في الزاوية المظلمة هناك ، فقفز الى هناك ، وابتلعته الظلمة . اهتزت المائدة حين نهضنا دفعة واحدة ، وكادت تنكفىء . بعد خطوتين راينا فجوة غير منظورة في الجانب الايسر من الصالة المطلة على الشاطىء . ورايت شبحا يترنح متجها نحو لمعان الماء . لم يستطع مؤيد ان ينفذ من الفتحة ، فاتجه نحو الباب في هرولة صاخبة ، بينما استطعنا نحن ان ننسل عبر الفتحة نفسها واحدا بعد الاخر . وكنت اخرهم فسمعت صياح النادل « عمي ، وين رايحين ؟ والحساب .. » ولم احفل به . كانت حياة احدنا في خطر . كان البار يجاورباحة تستخدم موقفا للسيارات . كانت الباحة عالية الى يسارها ، وامامنا منحدر الشاطىء الوعر . ولكن النهر لم يكن بالقرب الذي تخيلته به ، وانا جالس الى المائدة . كان السير على الشاطىء المنحدر ، وفي الظلام ، ليس بالامر السهل . الصخور حادة ، والفضلات والزجاجات المكسورة تخشخش تحت الاقدام . وحتى جليل ، المصمم على « الانتحار » كان يجد عسرا في الوصول الى احضان الموت غرقا . كان

شبحه الطويل يتمايل مثل شجرة في مهب ريح غير منظورة، وكان يقصر ويطول ، وتبتلعه آلارض ، ثم يبرز شبحـــه منها في اصرار عنيد . كان يكبـــو ، على ما يبدو . تقافزنا خلفه كالارانب ، ولولا كبوته آلاخيرة لما استطعنا اللحاق بـــه ، ولاعطينا شهيدا لــ « بلادة هذا العالم » مجانا .
امسكته من يده اليسرى ، وامسكه مؤيد من خلف . كنت اسمع لهاث مؤيد المتحشرج . بينما وقـــف احسان حائلا بينه وبين النهر الذي كان ما يزال يبعد اكثـــر من متـــر .
شعرت بلزوجة ، وانا امسك معصم جليل . لا بد انهـــا لزوجة دم . وحصرنا « المنتحر » في كماشة ثلاثية . كان يقعد على الحجارة كتلة غامضة من الافكار والتمنيـــات ، الرضوض والانسلاخات . قال مؤيد في الصمت المظلم :

ــ لم كل هـــذا ؟

ــ تتصورونني جبانا لا اقدم على شيء .

ــ لا احد يتصورك .. لعله شعور بالذنب .

ــ انتم المذنبون ..

ــ ما يخالف ، كل شيء نحن .

ــ وهذا لا يمدني بذرة من الطمأنينة ... ستقـــع كارثة من هذا الاعتراف ..

وغرقنـــا فـــي نـــهـــر الصمـــــت جميعـــا ، شهداء احياء لواقع يحاول كـــل واحد ان يملأه بالكوابيس التي تتراءى له ، وتلتف حول رقبته . نهـــر الصمت بارد ومكبوس ، ونحن آلغرقى ، نرفس داخل كيسه المطاطي .

اوصلنا جليل الى بيته ، صامتين . وعدت انا الى غرفتي ، لاخلد الى اوراقي ..

ايه ، ايتها الاوراق ! لماذا حين احتاج اليك لا اجدك ، وحين يخلو رأسي من كل فكرة أجدك مكومة امامي كعملة ورقيـــة لقوم انقرضوا .

في اليوم التالي حدثني احسان كثيرا عن النشـــاطات الجارية في الخفاء ، عن الحركة القوية بين الطلبة ، عن تذمر قطاعات كبيرة من الناس ، عن تيارات ومســـارات اخرى لا يجوز البوح بها . ولكـــن سوداوية جليـــل ظلت تغرقني في لجتها الكابوسية . من أين كل هذه الكآبة ؟ ما مبعثها ؟ ألخيبة ؟ فقدان الامل ؟ جراح الماضـــي المسممة للنفس ؟ كل ذلك جائز . ولكن بدا لي ان السبب الاقوى هو عدم الاقتناع بما يزاوله في حياته العامة والخاصـــة .. التفجع على شيء مفقود كبراءة الطفولة .. آه ، كـــم تفجعنا ، بغموض حزين ، على شيء يفلت منا ، دون ان تتسنى لنا لحظة النظر في ملامحه الحقيقية ! يبدو ان مئات من الرغبات الطارئة والملحة المزوجة باللحم والدم تحتضر وتموت كل ساعة في اعماق ذواتنا ، دون ان نملك الجرأة على تسميتها باسمها الحقيقي ، فتنسج في شراييننا أنسجة عنكبوت لزجة ممرضة معوقة .. انا اعرف موت الرغبات المجاني هذا ، اعرفه من تجربتي الخاصة ، وكـــم مـــن المفجوعين برغباتهم أنتموا الى الحركة الثورية لهذا السبب، قبل تلك الاسباب التي تأتي معرفتها فيما بعد عادة . ولعل جليلا احد هؤلاء المفجوعين . شاب وسيم مقدود القامة ، تشع الحيوية في عينيه ، وحركات جسمه كله . لا اظن انه ينطق عن سوء نية . شيء يتفتت في نفسه ، ولا يعرف كيف

يوقفه ، ولا حتى كيف يتخلص من ترسباته في قعر ذاته ، فيحس بالضيق من تكالب مردة غير مرئيين ، لكنه يحسهم بما ينفثون من سموم ، بالضجر والضيق وارتخاء الحياة ، وتعاقب الليل والنهار بدون تغير ، وبخذلان الاحلام ، وبموت الرغبات . والانتحار هنا ، في ذلك الضياع الباحث عبثا عن مخرج . وأي ضياع سام هذا ، حين تحس ، وانت الربان الماهر لسفينة الاحلام والاماني الكبيرة ، بأنك غير قادر حتى على ان تكون نوتيا نافعا لقارب صغير حمولته بضعة ارطال من خداع النفس . الضيق ، هذا الضيق الذي يمزق شرايينك يجعلك تتشبث في خلق عدو قريب منك ، حتى ولو كان جزءاً من كيانك ، لانك تعرف انه يتحملك اكثر من غيره من الناس . وبالكلمات الكبيرة المعجزة الشبيهة بنوبة بكاء حادة ، او صرخة الم جارحة ، تنفث سمك ، وترفه عن نفسك بعض الشيء . يبدو اننا ، نحن العراقيين، لا نستطيع أن نعيش بدون سياسة . السياسة كالخيمة ، عفوا ، كالقبة السماوية ، نحس بكل ما يجري تحتها من زوابع واعاصير ، من نسائم وامطار ، من جفاف وخصب . لا اعرف في أية مجلة قرأت ، أو في اي كتاب ، قول احد الكتاب الفرنسيين بأن شخصياته اذا لم تتكلم بالسياسة ، فانها لن تصور قومه الفرنسيين في عام كذا . لا ادري . نسيت ! اما انا فأقول أن العراقيين اذا لم يتكلموا في السياسة فانهم لن يشبهوا العراقيين في كل العهود والازمان .

اننا في السياسة نحصل على هويتنا المفقودة ، ونلج عالم الفرسان الشهداء ، ونعوض عن الخسارة والحرمان والشباب المهدور ، ونحول عاطفته الى حماس نبيل . الم اهتف ضد الحلف الباكسبتاني التركي ، وانا في المتوسطة ، دون ان أعرف ما هو ؟ الم أتمن لو اسقط شهيدا في المظاهرات في نصرة مصر ؟ الم آسف ، لانني لم آكن جنديا بسيطا في صبيحة ١٤ تموز ؟ و ... و ... و ...

ولم يكن صدق العاطفة ، ولا حماس اليقين مفقودا في كل ذلــك .

- ٣ -

« الوقت عصر . شامـــل جالس وحــده في حجرة الدرس يهيىء المشهد الاول من مسرحية « عقاب الضمير ». يكتب ، ويشطب . ينكب على الورق ، ثم يشرد ذهنــه ، ويحلق في الفراغ . القلم مرتخ بين أصابعه . الواقع انه كان يهيىء لمشهدين : مشهد المسرحية ، ولمشهد اخر كان يتصور انه لا بد ان يقع بينه وبين سناء ، بعد أن تكشفت علاقته الجديدة مع فتاة ، هي الابنة الخامسة لاستاذ الآلات الشرقية العجوز ، عديل مدير المعهد ، وذي الحظوة لدى السلطات العليا . كان ينظر الـــى الباب متــوقعا قدوم الممثلين ، ولكن الذي حدث شيء اخر لم يكن على البال . دخل جليل مدلهم الاسارير ، مديد القامة ، ناويا على شر ، حتى اذا دنا منه غرز سبابته في صدره .

جليل : دعني أقول لك : لا تتحرش بهذه الفتاة .

شامل : اية فتاة ؟

جليل : لا تتغاب ! الا تعرف أسمها ؟ هيفاء .

شامل : (ينهض محتجا) ماذا يعني هذا ؟

جليل : يعني انذارا . لعلك تتصور نفسك ذكيا ، وتحسب انك ستفوز بغنم كبير . انت مخطىء. ونصيحتي لك

ان تبتعد عنها . وهذه النصيحة ليست من اجلك، بل من اجل اخيك ماجد .

شامل : (محتدا) لا تشرك اخي في الموضوع . وانا حر ، واعي ، واحسن التصرف .

جليل : هذا ما تتخيله . ولكنك صبي لا تدرك ابعاد ما أنت سالكه : وستصاب بالخيبة .

شامل : انا لا إسمح لك بهذا .

جليل : انا اعرف تصرفاتي .

جليل : ستكتشف هيفاء ما ترمي اليه في علاقتك ، وستصفعك فتجرجر اذيال الخيبة .

شامل : ارجوك . قف عند حدك .

جليل : لا أظنك صادقا في علاقتك الجديدة ، مثلما لم تكن صادقا في علاقتك القديمة .

شامل : (يحتد) قلت لك لا تتدخل .

جليل : ثم ، الا تكترث بأقوال الناس ؟ ماذا يقولون حين يرونك تراوح بين فتاة واخرى ؟

شامل : هذا شيء يخصني ، فليقولوا ما يقولون . انهم يتوهمـــون أشياء زائفة ، يبنـــون عليها احكاما واهمة . فما لي واحكامهم ؟

جليل : (بنوع من السخرية الباردة) يعني ان علاقتـــك بسناء كانت واهمة .

شامل : لم تكن هناك اية علاقة .

جليل : والتصاقك بها طوال هذه الاعوام ؟

شامل : (نافضا كتفيه) مجرد زمالة . والناس مغرمون بتعقيد الاشياء .

جليل : كم أود ان تكون صادقا !

شامل : اسمع ، يا جليل ، انا لم ابحلنفسي ان أسألك عن شؤونك الخاصة ونواياك ، فلماذا تتدخل في شؤوني ، وتستفسر عن نواياي ؟

جليل : لان القضية لم تعد تخصك . أنها مسألة اخلاق ومثل .

شامل : لا تمزج الاخلاق والمثل بمسألة بسيطة . ثم لعلك تعرف أن الاخلاق والمثل لم تخلق الا لخدمة الناس، وليس بالعكس .

جليل : اهذا مبدؤك في بدء حياتك العملية ؟

شامل : نحن نعمل بهذا المبدأ ، وان كنا غير صريحين فيه.

جليل : اذا كنت صريحا ، فاكشف لسناء عن علاقتك الجديدة .

شامل : سناء ليست عمياء ، كما أنني لا أمارس اعمالي بسرية ، كما يفعل البعض . انا مكشوف ، ولا اخفي شيئا .

جليل : لو كنت صريحا لقلت لهيفاء انني مهتم بك ، لانني على ابواب مستقبلي العملي .

شامل : ليس لمستقبلي اية صلة بانسان غيري . انا اصنعه واخلقه ؟

جليل : اوه ، هذا الاعتداد الفارغ .

شامل : ثم الا استطيع بعد كل الذي أبحته لنفسك في التدخل بشؤوني ان اسأل : لماذا تهتم بهيفاء بهذا الشكل ؟

جليل : انها قصة معقدة اكبر من ان تستوعبها بكل ابعادها .

شامل : اها ، قصة معقدة .. لعبة ! اتحسب أن الناس لا يعرفون بها ؟

جليل: لولا معرفتي بأخيك لصفعتك .

شامل : (بتوتر) أتحداك ! هيا ، ارفع يدك ، أتحداك .

جليل : (يقترب منه ، يبحلق فيه ، يستصغره ، حين يرى تقاطيع شامل الصبوية توشك ان تنفجر باستغاثة او بكاء) انذرك للمرة الاخيرة بأن حساباتك ستخيب ، وان ما تتوقعه من غنم لا يساوي عشر ما تتكبده من خسارة اخلاقية . (يتجه نحو الباب) .

شامل : (ورأءه) عن اية خسارة تتحدث ؟ عن خسارتي ام خسارتك ؟ الفتاة عرفت لعبتك فأصيبت بما اصيبت به .

جليل : (عند الباب) ذلك خير من أن يكون زنيما (يصفق الباب) .

شامل : الزنيم من يفرض نفسه على الاخرين (يلوح بذراعه ، ثم يجلس هامداً . وبعد لحظات يعود الى اوراقه ، ويحاول ان يتابع تفكيره السابق . الا انه لا يستطيع . ينهض . يذرع الغرفة في مشية

مرتبكة . يهز ذراعه ، وكأنه يدافع صامتا عن موقف . الطلبة يدخلون) .

خالد : شامل متلبس بموقف تمثيلي .

سناء : لا بد أنه يستعيد دوره الخاص الذي لم يفصح عنه ، حتى الان .

عنوان : لا بد ان يكون أعقد الادوار .

لطيف : لا تضايقوه !

جلال : نحن اصحابه .

حسن : اقيموا ، بني أمي ، صدور رماحكم

فاني الى أهل سواكم لاميل ..

جلال : الفن من ارومة واحدة .

لطيف : الا تلاحظون أن لسان حسن قد اختفى ، وراحت تصدح السنة الشعراء ؟

حسن : الشعر لسان الانسانية جمعاء ، تجده يشدو لكل الاجناس .

خيل صيام ، وخيل غير صائمة

تحت القتام، واخرى تعلك اللجما

جبار : هيا ، يا شامل ، لا تجعلنا نعلك اللجم من نفاد الصبر .

شامل : اين التفات ؟

لطيف : تشرب القهوة مع هيفاء .

شامل : ستؤخرنا . اليوم دورها . لماذا لا تدعونها ؟

جبار : ناديتها . ولكن اذا اشتركت امرأتان في حديث ، فلن تفكهما ، ولو بكلابتين .

جلال : حديث عاطفي .

خالد : عن القسمة والنصيب .

لطيف : النساء متكاتفات اكثر من الرجال .

حسن : ان النساء كأشجار نبتن معا

منها المرار ، وبعض المر مأكول .

جلال : اما الرجال فجزر وسط المحيط يفتقد الكثير منها الى فنار يهتدى به .

شامل : فنارنا الهادي انفسنا .

خالد : ستقتلنا بثقتك الباردة .

جبار : اذا بقينا على هذا المنوال لما اكملنا المسرحية في نهاية العام .

خالد : يا شامل ، قل بصراحة : هل الفصل كامل ؟

شامل : الفصل كامل يتكشف عن مشهد مبتذل . الابن الاكبر يغازل زوجة اخيه . المهم في المسرحية الحديثة ان تصدم . وسأشبع المتفرج في مسرحيتي بالصدمات . ذلك لان الحياة الحديثة تتكشف دائما عن مفاجآت ، هي في الواقع حقائق تغافلنا عنها ، او لم نعرها انتباها . وحين نفاجأ بها نصدم ، ونصاب بنكسة . بينما هي ، في الحقيقة ، تحيطنا كالالغام المتفجرة ، وتخرج السنتها علينا زراية ونكاية ، واستهجانا من غفلتنا .

خالد : هذا هو الشك بعينــه .

شامل : لولا الشك لمـــا كان اليقين . اليقين الغيبـــي لا اقره . انه استسلام .

جبار : وجنة القناعـــة ؟

شامل : جنة للخنوعين والمستضعفين .

جبار : اليست لك قناعة في شيء ؟

شامل : القناعة عملة زائفة لا تشترى بها كسرة خبز .

لطيف : ولكن تهديك راحة .

جلال : نوم اهل الكهف .

حسن : القناعة كنز لا يفنى .

شامل : لانه كنز من الاوهام .

علوان : ما أجتمع العراقيون في مجلس ألا أختلفوا .

جلال : يبدو ان شامل متوتر من شيء ما .

علوان : ويحمل لابطاله ضغينة .

شامل : لا ، ابدا . أنا أرثي لضعفهم وهوانهم .

اميرة : حكمت عليهم بالضعف ، ثم جاء رثاؤك . ذلك هو التحامل بعينه .. بينما الكاتب يجب أن يفهـــم ابطاله ، ويبرر افعالهم .

شامل : انا لست كاتبا . انا قاض .

خالد : وتحكم عليهم بالتعاسة .

شامل : هم الذين حكموا على أنفسهم بها ، من جـــراء تصرفهم المهين .

جبار : انت الذي خلقتهم في فكرك ، وجعلت لهم هذا التصرف المهين .

شامل : انا حرب على المهانة . انا لا اطيق انسانا يهين نفسه . لقد اهين الانسان بما فيه الكفاية ، والان يجب ان يقف ضد المهانة بكل انواعها .

خالد : اسمع ، يا شامل ، انا لا اسمح لك بأن تهين الشخص الذي امثل دوره . انت تعرفني . انا حساس ، وصاحب انفة . أن الشخص الذي يتحمل الاهانة ، ويتجرعها ينطوي على وضاعة . بينما قلت انت : أن الاب عصامي كون نفسه بنفسه . انه رجل صاحب ارادة ودأب .

شامل : صحيح ، ولكن يبدو ان العرق دساس . لقد عاد الى اصله . لقد قلت في المرة السابقة انه موزع النفس بين حاضره وماضيه .

خالد : وكيف تبرر ذلك ؟

شامل : في سلوكه الفالت مع ابنائه . العاطفة الجاهلة تهشم شخصيته . لا تفكير ، ولا تعقل . واذا به يفاجأ بثمرة ضعفه .. هروب زوجة ابنه .

علوان : اذا كان أحد سيفاجأ فهو زوجها .

جلال : الزوج اخر من يفاجأ .

جبار : اسمع ، يا شامل ، هل كان بين الزوجة الهاربة وزوجها حب متبادل ؟

شامل : كان بينهما حب خامل مبتذل يقنع بغرفة وفراش .

حسن : أي كما قال الشاعر :

واعجبها من عيشـــها ظل غرفة

وريان ملتـــف الحـــدائق اخضر

ووال كفاهـــا كل شـــيء يهمها

فليس لشيء اخر الليل تسهـــر

شامل : كل شيء الا ملتف الحدائق .. عسى ان تعيش بخـــن .

لطيف : شامل مستعد لان يضرم النار في كل ما اقتنعنا به وتواضعنا عليـــه .

جلال : لا تعرف كيف يفهم الحـــب .

علوان : ربما لا يقر بوجوده كليا .

لطيف : الفاشلون في الحب وحدهم ينكرون وجود الحب .

حسن : لولا الحب لتيبست جوانحنا .

شامل : انا ضد الحب القانع الخنوع ، ضد الحب المتسول.

حسن : انت ، انت يبدو ... أوه ، أعوذ بالله (يرفـــع راسه بالدعاء) اللهم قني هذا اللسان الفالت .

لطيف : سطه ببيت شعر .

حسن : انه لم يلتذ كما التذ العباس بن الاحنف حين قال :

ما انس لا انس يمناها معطفـــة

على فؤادي، ويسراها على راسي

وقولها : ليته ثوب على جسدي

او ليتني كنت سربالا لعبـــاس

اوليته كان لي خمرا ، وكنت له

من ماء مزن فكنا الدهر في كأس

لطيف : حسن يواجه تحديات العالم بالشعر .

جلال : لكل منا درعه الواقية يواجه بها تحديات الحياة .

جبار : يبدو وكأنه سيد الموقف .

علوان : كما الحال مع شامل .

اميرة : يصدر حكمه القاسي بتمزيق عائلة .

شامل : عائلة خلقت لتكون ممزقة .

خالد : (بثقة) سنأخذ مصيرها بأيدينا .

شامل : لتخلقوا مسرحية ميلودرامية .

جبار : ولتكن ميلودرامية . أنها وقفة لالتقاط آلانفاس .

شامل : وقفة خادعة في طريق لا يحتمل على ظهره الواقف والمتلكىء والعاثر .

جلال : اسمع ، يا شامل . العقدة لا تعجبني ، أن يحب الاخ زوجة اخيه . ذلك غير مقبول شرعـــا . انا اعرف أن اخوانا اختصموا على فتاة واحدة . وذلك اصوب واقرب الى الشرع .

شامل : وما المقبول شرعا عندنا ؟ معاقرة الخمرة ، مزاولة الدعارة ، الاغتناء بالربى ؟

خالد : انت تقول ان الابن الاكبر كان في الخارج ، ودرس في اوروبا . يعني انه مثقف . وزوجة أخيه ، حسب ما تقول ، جاهلة ، من وسط وضيع . فما الذي اجتذبه اليها ؟

شامل : ضعفها ، استسلامها الرخو . كانت تبدو مثل
معزى بلا راع . كانت تستسلم للفراغ والدعة .
ولا بد انها كانت تحلم بشيء يهز حياتها . فلما
راته يطل عليها ، حليقا معطرا ، استسلمت له ،
ولم يتورع هو عن ان يشاركها اثمها .

جبار : وتجعلني ، انا زوجها ، ديوثا .

شامل : المفروض فيك ان تخرج في الصباح لعملك ، ولا
تأتي الا في المساء متعبا ، مثلما وصفتك ، جرذا
خارجا من نخالة .

جبار : وهل هذه المكافأة التي تقدمها لكدحي الشريف ؟
اهذا حكمك على الآلاف من امثالي ؟

علوان : اغفر له ، من اجل تقديم عمل مسرحي جيد .

جلال : نية سيئة لتقديم عمل يهز المشاعر .

شامل : انا لا احكم حكما شاملا . انا احكم على حالة
بعينها .

لطيف : شامل لا ينظر الى ابطاله من الداخل . ابطاله
قطع شطرنج .

جلال : ضحايا يسوقهم للذبح .

جبار : ولا يعطيهم اي صوت .

خالد : كل ذلك ليثبت شيئا يخربش في صدره .

شامل : اريد ان اهز المتفرج، ان اوقظه من حلمه على كرسي
مريح .

علوان : ليست في مسارحنا كراس مريحة ، او قل ليست عندنا مسارح .

جلال : شامل ، لا تضع توقيعك على الصورة منذ الان .. ودعها تنمو بيسر . هل حكيت لكم قصة التوقيع المسبق ذات مرة ؟

علوان : هاتها ، لاسمعها للمرة العاشرة .

جلال : في المتوسطة كان عندنا معلم رسم اريحي كريم . كان يأخذنا الى المرسم موفرا لنا كل شيء من الفرش والاصباغ والاقلام ، والورق . وكان يقول لنا : تفضلوا ، ارسموا ! وكان في صفنا طالب كان يحب ان يضع اسمه على كل شيء ، فكان يأخذ ورقة بيضاء كبيرة ، ويذيلها بتوقيعه اولا ، قبل ان يبدأ برسم خط واحد . ثم يبدأ بتفكير عميق ، ويشرح أحلامه ومشاريعه ، وما سيخرج من تحت ريشته . ولكنه لا يوفق الا في رسم خط أو خطين ، ثم يرمي الورقة البيضاء من غير سوء ، الا من اسمه . فكان المعلم يقول له بأسف : لا تبصم أسمك على شيء لا تعرف ربما سيكون سبة لك . ولكن الطالب لم يتخل عن ديدنه ، ولم يصبح رساما ابدا .

جبار : شامل يريد أن ننصبه سيدا مطلق الصلاحية .

حسن : وان بقوم سودوك لفاقة

الى سيد ، لو يظفرون بسيد

لطيف : وماذا رأينا منه حتى الان ؟

حسن : راى الله عبد الله خير عباده فملكه ، والله اعلم بالعبـــد .

خالـــد : شامل دكتاتور صغير .

شامل : وانت لا تتمرد على من خلقك .

جلال : انت لم تخلقه بعد ، بل خططت خطين ، كما فعل تلميذنا سيىء السمعة .

جبار : دع ابطالك ، يا شامل ، يعيشون المأساة التـــي رسمتها لهـــم .

لطيف : شامل لم يكشف لنا حتى الان عما في راسه الزاخر بهبات الخلـــق .

اميرة : بالتحاملات . هكذا هو دائما ، يفعل ما في ذهنه ، ولو اجتمعت المردة والشياطين لما استطاعت ان تزحزحه من موضعه .

شامل : تلك قوة الحقيقة التي لا يشترط فيها أن تـــروق للجميـــع .

لطيف : انت حتى الان لم تبسط حقيقة واحدة يمكن ان تبرر.

لطيف : سوى عقم الزوجة ، فان له سوابق وامائيـــل .

علوان : وقد يكون الزوج عقيما .

شامل : انتم اغفلتم ناحية مهمة من الموضوع . لقد جعلت الزوجة الهاربة مجهولة الاصل ، لأؤكد علـــى ان الانسان لا يستطيـــع ان يسلم مقاليـــد حياتـــه للمجهـــول .

اميرة : ولكن المجهول يكتنفنا من كل جانب . رغم ان رحم المراة غيـــب .

شامل : رحم المراة السوية ليس غيبا . هناك حالات شاذة قليلـــة .

خالـــد : يبدو ان شامل ينادي بنقاء الدم العائلي .

جلال : بالعكس . لقد قرات أن انغلاق العائلة على نفسها بالزواج يجعلها رهينة امراضها ومواطن ضعفهـــا الموروثـــة .

شامل : ولكن ذلك لا يعني ان تلتقط فتاة من الشـــارع . هذا هو الذي اقصده .

جبار : المهم ان يكون العقم عقدة المسرحية .

جلال : انا اعتـــرف بأن مثل هذه الحقيقة دمرت عوائل .

لطيف : وهي من صنع الغيب نفسه ، لا سيطرة للانسان عليهـــا .

شامل : رجعنا الى الغيب .

خالد : ولكن شاملا ، لغرض في نفسه ، يجعلها منفذا لبذر بذور الشك في كل عمل من عمل الابطال . لا اظن ان ذلك ضار جدا .

جلال : من وجهة نظر المسرح نعم . ولكن من وجهة نظر الحياة !

علوان : المسرح هو الحياة .

شامل : والشك ملح الحياة . الحياة بلا شك ماسخة لا طعم فيها .

اميرة : ستتآكل ديدان الشك قلبك .

شامل : الشك هو تمالك النفس ، وعدم الذوبان .

حسن : لقد أسرفت في هذا ، يا فتى . وقدقال معاويـــة : ما رأيت سرفا قط ، الا والى جانبه حق مضيع .

خالد : حقوقنا هـــي المضاعة .

جبار : نحن الذين يريد شامل أن يجعل منا دمى .

جلال : اعطهم الحق على الاقل للدفاع عـــن انفسهـــم ، للاحتجاج ضد مصائرهم .

شامل : وهل سلبتهم اياه ؟

حسن : في طريقتك الفجة هذه : نعم . لا تكن حلوا فتزدرد، ولا مرا فلتفظ .

جبار : دعنا نشارك في المسرحية ، يا شامل .

خالد : نعاونك على حمل المهمة .

شامل : شرط ان املك انا حـــق النقض . أنا صـــاحب الفكـــرة .

علوان : اتفقنـــا .

ظلٌ...

- ١ -

طيلة اسبوعين ظلت نعيمة « ام جعفـر » تمارس نشاطا مكثفا . تجوب ازقة ، تدخل بيـوتا ، وتتلفت في الزوايا ، وتردد مع نفسها « صدق ؟ صدق ان يصير لي اعتبار عنده ! بعد كل هذه السنين ؟ بعد الاهة والونة ؟ بعد العذاب والحسرة وطلعان الروح ؟ اوف ، يـا ربي . اصير انا المسيطرة ، لا هو . ليعرف من هي نعيمة .. نعيمة ام القلب المفتوح ، واللسان الذي يا ليت شددته بخيط .. نعيمة التي تجرعت الخيبات ، وشربـت المرار ، وبكـت بعرسه .. الجرح بقلبـي كبير . وجرح القلـب هيهات يندمل ، ولو بقي الف سنة .. كل شيء يشفى الا جـرح القلب .. كل شيء بالدنيا يشفى الا جرح القلب .. يظل يعن عليك ويمن ، حتى تأخذه معك في قبرك .. انا اعرف ! نعيمة ليست غشيمة ؟ يا ما تحملت المر ، يا ما صبـرت على القهر ، يا ما ويا ... » وظلت نعيمة تجوب الازقة تنوح في سرها . وبخفتها ، كحفافة ، وصبرها على التقاط كل شعرة ، كانت تبحث وتستجوب ، وتتسلل الى اسرار الصدور . امسكتها بأسنانها هذه الفرصة الذهبية ، ان يلجأ اليهـا ، ان يستعين بهـا ، بعـد هـذا العمـر الطويـل ، وذلـك الحاجـز الذي ظـل يرتفـع مـع العمر . يعنـي ما زالت تستطيـع ان تكـون قريبة منه ،

نافعة له ، ضرورية .. ومدها ذلك بالثقة . وقالت لنفسها :
« غير هو الحظ ؟ والا ما الفرق بيني وبين رباب ؟ لان اباها عنده علوه بسوق الغزل ؟ شكل ، جمال ؟ علم ، فهم ، وانا كل المحلة كانت تركض ورائي . نعيمة هذا ، ونعيمة ذاك ، واركض ، واركض . وايدي والهواء .. »

ظلت تردد ذلك مع نفسها ، في خلوتها ، وفي غدوها ورواحها . واحيانا تقول ذلك بصوت مسموع لتقنع نفسها به ، حين كانت تخرج من احد البيوت مثيرة بين نسوانه سورة ، وتكتشف اسرارا خفية تزيد من رصيد صندوق الاسرار ، الذي هو صدرها . وكانت تحسن اثارة هذه السورات بين نساء متلهفات الى شيء جديد يلون حياتهن الرتيبة الخاملة ، ويبحن ، بسهولة ، بما تنطوي عليه صدورهن من حكايات صغيرة تضخمت وترهلت من كثرة ما اعيدت وصقلت ، وما نسجت حولها من خيالات واوهام ، عسى ان يخطىء القدر يوما فيحول احد هذه الاوهام الى حقيقة ، فتخرج واحدة منهن من خدر الاهمال الى السنة الناس القوالة . كانت نعيمة تتلمس طريقها بحذر ، وبفطنة معهودة منها . وهي تستطيع ان تحوك حكاية كاملة بغمزة من عينيها ، برمشة تفسر ألف تفسير ، وتعد بأشياء تدير الرأس دوارا يدفع الدم الى الاوصال المتيبسة من الانتظار والقعود في البيت ، ولعل وعسى . وكان كل ذلك يعطي مدلولات كثيرة مبهمة لكل كلمة تتفوه بها .. حتى أي عيني .. خلف الله عليج .. قلبي علمني .. ما كو شيء بالدنيا ما ينعرف .. حتى ضربها ظاهر كفها بباطن كفها الاخرى . وكانت بذلك ، وخلال ذاك ، تجمع اعترافات صغيرة ، وشكاوى مريرة ، وتوسلات من نساء نبذهن ازواجهن نبذ الذين كفروا ، لمجرد فلتة لسان .

ـ يعني لو كنت كافرة بالانبياء ، ما كانت الملائكة عملت بي مثل ما عمل بي شهاب ..

كانت هذه المراة في أحدى المشاجرات مع امراة اخرى قالت لها اشياء خفية ، لا يمكن أن تعرفها الا اذا كانت تشارك تلك المراة وزوجها فراشا واحداً . وناقل الكفر ليس بكافر . والكافر ابن الكافر هو زوجها الذي نقل لها الخبر ، نقلا عن فلان وفلان . ولم تعرف انها ستبوح به ، وتفسد العلاقة بين رجال عليهم العمل . وتأذى الزوج ، وغضب ، واخرجها من بيتها مع ولدها وابنتها ، وباحت المراة المنبوذة لنعيمة بهمومها ، وسخام حياتها قائلة :

ـ رجالنا يرتكبون الخطايا كل يوم. ولا ندري بها. واذا درينا سكتنا مجبورين . ولكن الواحدة منا ، اذا زل لسانها بكلمة ، طردت برفسة خارج البيت ، مثل القطة الضائعة . لازم انا التي تطلع زعلانة .. عند ذاك يعرف قدري .. هناك بنات لا اصل وفصل ، ويطلعن زعلانات ... يا ريت طلعت وانهزمت مثل حسيبه .. كان عرف قدري .

ـ اي حسيبة تقصدين ؟.. بنت ...؟

ـ ما اعرف ابنة من ؟ وهي عندها اصل ؟ كانت نمجة وسايبه .. بس الحظ ، ومنين اجيب الحظ ؟

ـ عيني ، استري على البنية .

ـ وهل قلت شيئا ؟ أهو ، راح اصمه صم .

ـ واين رايتها ؟

ـ لما طردني الكافر ابن الكافر شهاب .. نمت اليومين الاولين في بيت عطية العمية ، ورايتها هناك .

ـ اسكتي ، وكأنك ما شفت وما سمعت .. وانا ساجلب لك زوجك للباب .. وحسيبة ايضا سترجع لزوجها

.. بس اياك ولسانك ! سيجلب لك البلايا اذا حركته بكلمة واحدة ، كأنك لم تري ولم تسمعي ؟

ــ سأعطيك رقبتي لتقطعيها ، وليس لساني فقط .. عيني ، الولد من غير أب مثل الغنم من غير راع .

ــ كل شيء سيكون على مرامك .

واشترت سكوتها بأمل مؤجل . وانصرفت بصيدها ، راضية عن نفسها ، قائلــة في سرها « النســاء يصدقن بالعجل » وكم صدقت هي في حياتها ، وانخدعت ، وصبرت صبر أيوب . ولامت نفسها على كل ذلك . ولكن هذه المرة!

كانت تعرف ازقة بغداد جيدا . كانــت جزءا مــن حجارتها الهرمة ، وترابها الهش ، وسيانها ، وخشــبها المنخوب . تلمست طريقها الى العمياء راسا . لا تريد ان تفوت الفرصة . وكانت تعرف عطية جيدا ، كانت جزءا من طفولتها ايضا . تقلبت في أعمال شتى ، حتى أنزوت تبيع الحلوى التي تصنعها للاطفال من السكر غير الطبيعــي ، حتى عميت ، وقبعت في دارها الصغيرة التي اقتطعت من دار مجاورة . كان الوقت عصرا ، والدروب تزخر بروائح اطعمة تعد للعشــاء ، وأطفــال يمرقون بــك ، ويكادون يسقطونك ارضا ، ونساء فضوليات يطللن برؤوسهن من وراء ابواب مواربة ، ورجال يمخطون ، ويتكلمون بأصوات غليظة . ولاول مرة شعرت « ام جعفر » بأنها تسير بين مصائد واشراك . انقلبت هذه الازقة جواسيس عليهــا ، تتعقب خطاها . كانت تنسل خفيفة الحركة ، تحــاول ان تحجب وجهها بعباءتها . ولكن كيف تحجب مشيتها التــي يعرفها الناس بها ؟ حاولت ذلك ايضا . تحاشت الاصوات والحركات والعيون المتلصصة من خلف الابواب . ثم داهمتها لحظة ذعر مفاجئة . ماذا لو تفلت هذه الفرصة من يدها ؟

ماذا لو كانت سعدية قد كذبت عليها ؟ لا ، عينـي ، مـا معقول ! وراح تخلص من لساني ؟ آخ ، لساني ! ثم لمحت باب البيت الذي تقصده . توقفت . خانتها جسارتها لحظة خاطفة . لحظة جبن طالما كانت تمر في حياتها ، وتعض بعد ذلك اصابع الندم . تجاوزتها الان . تلفتت ، ثم سـارت بشجاعة مستميتة نحو الباب . دفعته بيدها . كان مغلقا. طرقته طرقا خفيفا ، وقربت فمها من خشب الباب : « خالة عطية ؟! » . وانتظرت يساورها الشك في ان يكون البيت خاليا . ثم سمعت صوتا هرما هلما « منـو ؟ » . وكان قريبا من الباب . بحت نعيمة :

ــ انا ــ ام جعفر . الشمس بعد ما غابت !

وفتح الباب بتوجس . ودخلت نعيمة البيت ، وكأنما تدخل في الليل بكل ابالسته ودسائسه ، في كتلة من الظلام المتعفن مثل شعر منفوش .

ــ الله يمسيك بالخير ..

ــ هـلا ..

ــ كأنك ما تعرفيني .

ــ اي ، العمر ، عيني ، العمر ..

ــ عمرك طويل ، خالة عطية .

قالت نعيمة تبدد وحشتها ووحشة العجوز . وكانت هذه الاخيرة ما تزال قوية ، رغم تحدب قامتها قليلا . وكانت تعرف بيتها جيدا . وتسير فيه كالمفتحة العينين. سارت في خط مستقيم ، وبلا تعثر ، وحتى دون ان تتوكأ على الحائط الذي كانت تسير بمحاذاته . على عكس أم جعفـر التي كانت تجد صعوبة في تلمس طريقها ، في الظلام الشـاحب

العفن المقبض للروح ، ولا سيما في اللحظات الاولى قبل ان تتعود عيناها ، وتلوح لها معالم « الطارمة » الصغيرة ، والتخت المقابل للباب . اتجهت اليه عطية ، ورفعت ذراعها في الوقت المناسب لتمسك بعضادته الجانبية ، وتنفتل ، وتجلس ، متكئة بذراعها على العضادة .

وبعد أن التقطت العجوز انفاسها ، وزفرت زفرة ارتياح ، يبدو أن ذاكرتها عادت الى العمل . فسألت متضاحكة :

ـ ها ، يمه ، جئل لتحفئيني ؟

وعكفت ساقا واحدة ، ووضعت قدمها على طرف التخت وراحت تضرب عليها ، وتمسدها ، مما يدل على النشوة وراحة البال . ردت عليها نعيمة بمجاملة :

ـ الحفافة للوجوه الحلوة .

كركرت عطية مرة اخرى :

ـ والشيب ، والعمى ؟

ـ الشيب ما له دخل . وعمى القلوب هو العمى وليس عمى العيون . ونحن نرى كل يوم مفتحين ، ولكن العزا ! خاله عطيه ، وادق يدي على الخشب ، وجهك يبرج .

ضحكت العمياء ، وشهقت ، واخرجت خرقة مفتولة من جيبها ، ومسحت عينيها .

تعرفت نعيمة على ملامح العجوز كاملة ، حتى في اختلاجة الغروب الاخيرة ، والبيت مثل بيت خيمة الاعراب . وجه عريض ناتىء الوجنتين ، ومقلتان بلا حياة ، وانف ما زال نافراً ، وفم مزموم مخسوف الان الى الداخل . كل ذلك

له شبه بالماضي ، وليس بالماضي ، مثل اطلال دارسة لمربع من مرابع الصبا . اهذه هي المراة التي كانت مثال الحيوية والنشاط ؟ تبيع ، وتصرخ ، وتتهاوش ، وتشتم ، وتقول ما لا يقوله الرجال انفسهم ؟ أهي التي كانت تقول كلمة ، ولا تستثني بأخرى ؟ اربعة اربعة . ما اعطى بالدين. هذه رفات ماض ايقظته هبة نسيم مفاجئة . وكانت نعيمة تعرف من تجربتها الخاصة ان اشارة عابرة قد تحيي في الذاكرة عالما كان ميتا . والان لم يمت عالمها . ما يزال اشخاصه أحياء ، وما زال عمل وامل ، وما يزال هناك اثبات على ان ما يفعله الانسان ليس دائما هو الصواب . الخطأ يتربص بالانسان كالمرض ، والا فكيف رضيت هي بصادق زوجا ، ورضي عبد الواحد برباب زوجة ، بعد ان عرف كل الناس انها ، أي نعيمة ، ستكون في حضنه ؟ النصيب يسوق الناس احيانا سوق الغنم . الله وكيلك ! وتظل تعاني وتتعذب والخالة عطية شاهدة على عذابها ، ورعونتها ربما ، واطمئنانها وثقتها بالناس . ولكن ما صار صار . وهي الان تحاول ان تفرض كلمتها ، تستعيد الماضي، تعوض ولو شيئا قليلا عما فقدته ، ان تثبت انها كانت على حق ، وانها امراة ولا كل النساء . يهرع اليها بالملمات.

عادت العجوز تمسح عينيها .

ـ دموعي تسبح مثل المزريب .

ـ الدموع تغسل العيون .

ـ غسلتها .. راحت .. ظلت عيون ؟

ـ عيونك مثل الورد .. خالة عطية ذاك اليوم كنا نشتري منك الحلاوة وشعر البنات ، ذاك اليوم لبسنا المعاضد الملونة منك .. اذكر لما تعارك عبد الواحد مع

فتاح علي ، وانا بنية .. ذاك اليوم ، وذاك اليوم ..

وكانت صادقة في قولها . فمنذ ان لجأ اليها عبد الواحد وهز دفين ما فيها ، صار الماضي ينتعش في ذاكرتها ، وكأنما رش عليه ماء الحياة . صارت تتذكر ، وتتخيل ، وتنبش ، ويخامرها شيء جنوني غامض لا تريد ان تثبته بكلمات ، ولكن تأمل فيه بكل جوارحها .

ضحكت عطية ضحكة صافية هذه المرة . وقالت :

ــ عيني اندنيا اظلمت ؟ اشعلي الضوء . المفتاح فوق رأسي . المفتاح الاول .

وازدهت الطارمة بلون اصفر هزيل ، ولكنه كاف لان يكشف كل ما فيها ، وجانبا من الفناء الصغير . تلفتت نعيمة فيما حولها ، وقالت :

ــ اللهم صل على محمد ... البيت نظيف .

تعمدت ان تقول ذلك ، رغم كل الاضطراب الذي كان يسود الجزء المقابل من الطرمة ، حيث تتكدس اشياء مغبرة تعود الى ماض قديم : دولاب قديم ، جمبر مشطور ، صحيفة صدئة ومحجان ، واشياء أخرى مجهولة الاصل .رفات ماض غابر تريد نعيمة ان ترد له الروح ، وتعيد النور لعينيه المطفأتين .

ــ من عندي ليوسخ ؟

قالت نعيمة تؤكد ما في فكرها :

ــ لا ، خاله عطية ، لازم عندك واحدة تنظف .

وضحكت هي ، ومست جارتها العمياء مدأعبة ، وسألت حارفة اسمها نحوها قليلا :

ــ من هي ؟

ــ انا اعرف من هي ، خاله عطية .

وامتلأ وجه العمياء بالتوجس ، وجمد فمها خوفا من ان تفلت منه كلمة زائدة . فطمأنتها نعيمة قائلة :

ــ انا جايه عليها رسول صلح ، لا رسول حرب .

ــ الحرب على القوم الظالمين .

ــ بارك الله فيك . والله العظيم نحن المظلومون ، لا الظالمون .. لو تعرف كم كان يعذبني المنبوش الصفحة صادق . مرة أخذته من المستشفى . أمضاني الطبيب الكبير وقال لي : من آلان فصاعدا ، انت المسؤولة .. كبده بعد ما يتحمل قطرة عرق . قلت له انا المسؤولة ، وكلمتي اقوى من كلمة عشرين رجل . ولكن صادق ما ظل شهر حتى عاد سيرته الاولى ، يغافلني ويشرب . وصار يتجاسر علي . مرة رفع علي الطبر . وانا اعرف انه جبان ، رجل دجاجة ما يحل . ولكن الخمرة أم الكبائر . خفت ، وختلت عن الجيران للصبح ، ورجعت له . ما هربت ، ولا تركت البيت. ومعقولة حسيبة شالوا عليها طبرا ؟ فليش هربت ؟

ــ عيني ، ما أعرف على من تحكين .

ــ خاله عطية ، كنت من الاشارة تفهمين .

ــ هذا عمى العيون .

ــ ولكن العقل مفتوح . معقولة لم تقل لك ؟ عايشة معك ولا تقول لك ؟

ــ على مــن تحكين .

ــ على ام القبقاب ، هذا الذي شايفته قدامي ؟ يعني معقولة انت تلبسين القبقاب .

ــ من كنــت صغيرة .

وضحكت ضحكة فضحتها . كان الضحك يغزوها في نوبات مفاجئة ، وفي لحظات لا تختارها هي . قالت نعيمة :

ـ لازم علي جيه .

ـ مـــن ؟

ـ اوي ، خاله عطية ، ام القبقاب ، حسيبة ..

ـ والله لا ادري .

ـ ولكن انا ادري . هربت من زوجها . واهلها قلبوا بغداد كلها في البحث عنها .

جمدت عطية ،وكأنها وجدت نفسها متلبسة بشيء منكر.

ـ اقول لا ادري اين تروح . تطلع من الصبح ولا تأتي الا في العشا .

ـ وتتحملين خطيئة بنت الناس ؟ الانسان لا يستطيع ان يتحمل خطيئته ، فكيف بخطايا الاخرين ؟

ـ ماذا افعل . اذا جاءت تتوسل .. دعيني انام عندك يومين . وهذا أكثر من اسبوع .. انا لا اعرف عمتها .

ـ مقطوع الكلام ، اهلها طلبوا مني ان ابحث عنها . وبحثت ووجدت .

قالـــت العميـــاء :

ـ خذيها . ليس لي غرض في الموضوع . لا هي تطبخ لي ، ولا تلف لي ورق السيكاير .. انا وحدي اعرف دربي..

احست نعيمة بأن العمياء تريد ان تبرىء نفسها ، ولم تكن تريد ذلك .

قالـــت :

ـ لا ، خاله عطية ، ما دام ادخلت راسك في المسألة؛ لازم تخرجيه صاغا سليما .

ـ ماذا تريديني أن افعل ؟

ـ أبقيها عندك آلان . اقول لك بصراحة : اهلهـــا يريدون ان يقتلوها .

روعت عطية ، وادارت راسها نحو صوت محدثتها .

ــ ويلي ! من اين جاءت لي هذه المصيبة ؟

ــ الله امر بالستر .

ــ وماذا عندنا غير الستر ؟

وتكدرت عطية على نفسها تستر شيخوختها وعماها ، واخذت تلعب بأصابع قدمها اليمنى . وفي تلك اللحظة فتح الباب ، واطلت حسيبة . يبدو انها فوجئت ، فقد ندت منها « هيه ! » وحاولت ان تنكص ، ولكن نعيمة امسكت بتلابيبها :

ــ تعالي ، تعالي . ما راح نخطبك مرة اخرى . ما صار صار ، وما يتكرر مرة اخرى ... خشي .. انا لست غريبـــــة .

دخلت حسيبة مرتبكة مترددة . كان وجهها عرقا ، وعيناها عيني قطة متوفزة ، يتقاسمهما عناد صارم ، وثقة في النكوص في اخر لحظة . كانت يداها مسبلتين في استسلام لا اثر للرخاوة فيهما . بشفتين محمرتين ، كأنهما وضعتـــا طويلا في ماء ساخن . وجدت حسيبة امامها امرأة بدت غريبة عليها ، ولم يهدىء هذا من روعها . كانت تتصور ان شخصا اخر ارهب موجود يتربص لها ، لا محالة ، زوجها او حماها . وهذا ما جعلها تقف عند حنفية الماء تتظاهر بغسل يديها ، بينما كان بصرها يتجول في الزوايا المظلمة . صاحت المرأة الغريبة بعد أن رأتها تتلكأ عند الحنفية :

ــ تعالي ، تعالي . حاضنة الحنفية وواقفة . الفرج ما راح ينزل من الدرج . وممن خايفة ؟ لو كنت خايفة مـــا انهزمت .. تعالي ، لا غريب بيننا . تعالي نتفاهم .

فكت حسيبة يديها من الحنفية ، وجاءت تخفق بنعليها ، واسندت ظهرها على باب الحجرة الوحيدة في البيت .

ـ وتتصورين لا أحد سيعرف مكانك ؟ حتى لو حبست نفسك في سبعة اسفاط .

نكست حسيبة رأسها ، واخــــذت تنظر في اصابعها القصيرة المنتفخة :

ـ كيف تتركــين اهلك ؟

ـ مجبـــورة .

ـ والبنت تقدر أن تتبرا من اهلها بهذه السهولة ؟ كانت الناس ما عقدت العقود ، ولا راحت للقاضي . وكل من لا تحب اهلها جمعت اغراضها ، وشالـــت . ولا من سائل يسأل ، ولا محاسب يحاسب . ها ، حسيبة ؟

ـ واذا كان اهلي لا يحبونني ؟

ـ ماذا فعلوا لك ؟ اجاعوك ؟ نزعوا منك ثيابك ؟

ـ اكلوا رأسي اكلا .

ـ ما يزال رأسك على رقبتك ، ولم يأكله احد . ولكنك بهروبك اكلت قلوب أهلك .

ـ لا أظن واحدا تحسر علي .

ـ انت المذنبة ، وتريدين ان يغسلوا رجليك بمــــاء الـــــورد ؟

ـ لم ارد سوى ان يتركوني وحالي !

ـ والشرع والسنة ؟ انـــت بالشرع هاربة . وهذا وحــــده يكفي .

ـ لم اؤذ غير نفسي .

ـ آذيت الجميع الا نفسك . ثبرت البيت ثبورا . الا يكفيـــك هــذا ؟

طفقت الهاربة تبكي ، وسعلت عطية مولولة . ربمـــا

احست بورطتها . وعرفت نعيمة انها امسكت بالمراتين ، واشعرتهما بذنبيهما . قالت لحسيبة :

ــ روحي اغسلي وجهك ، لا ينفع البكاء .

واخذت تلح عليها ، حتى استجابت حسيبة ، وهدأت وذهبت لتغسل وجهها . فلحقت بها الى هناك او همست لهـــا :

ــ اتعرفين اية ورطة وضعت نفسك فيها ؟ والان ، يا حمار ، خلص نفسك من الوحلة . اهلك يحدون لك السكين .

ــ اوي .

ــ واذا راوك في الطريق ذبحوك .

ــ دخيلك .. اين اولي وجهي ؟

ــ اقعدي في هذا البيت ، ولا تخرجي . اين تذهبين طوال اليوم ؟

ــ اشتغل هنا وهناك في غسل الملابس ، اللقمة تراد.

ــ سأجلب لك ما يكفيك .. اقنعي الان بنصيبك حتى تنفـــرج .

شهقت حسيبة ، وزفرت زفـــرة عميقة فيها بعض التــــرويح .

ــ وفـــاضل ؟

ــ لا تسألي عن فاضل ، ولا عن غير فاضل ، حتى نرى كيف تنفرج .

كان فاضل ، في ذلك الوقت ، يجلس المساء في احشاء السينما الصيفيـــة المهجورة مـــع خدينه عباس . كانــت روائح الاطعمة الشعبية تتحدر اليه ، عبر الدهليز ، مخلوطة بحروقات السيارات ، وهي روائح يزداد احساسك بثقلها اذا كان في معدتك شيء من الطعام . وكان فاضل قـــد

« خطف رجله » الى بيته بعد انتهاء الشغل ، وتناول «اللقمة» فيه ، ارضاء لفضيلة التي كانت تبكي وتقول : « لمن اطبخ ، اذا كنتم جميعا لا تأكلون في البيت ؟ » . كما انه ما يــزال يخامره امل ضعيف ينوس في قلبه ، فيتصور انه سيعود الى البيت ذات مرة ، ويجد حسيبة قد عادت . كانت والدتــه وحدها تغذي هــذا الامل فيه ، مــع تشجيعات فضيلــة وابتساماتها الحنون ، ولطفها ، وتمنياتها الموحية بالامل : « ان شاء الله !.. » وكان يتحاشى والده . لم يشترك معه في حديث صميمي منذ اليوم الذي وقف متحديا ، ولم يجسر بعد ذلك ان يرفع بصره الى وجهه ، مخافة ان يــرى فيه قسوة ، اهانة ، ادانة ، استخفافا . وكل هذا لا يتحمله. كان يعرف ما ينطوي عليه هذا الوجــه ، او يتخيله علــى الاقل . الكلمة التي ينطقها الوالد ترسم له الملامح راسا . المعبأة دائما بشيء اهونه عتاب صامت جريح . ولهذا كان يلعب مع ابيه لعبة القط والفأر ، لا يكاد يستقر معه تحــت سقف ، ولا يضمهما مجلس مشترك واذا فوجيء به تحين اقرب فرصة للهروب . ولكنه الان لم يجد أباه ، بل وجد اخاه ماجــدا . تبادل الاخوان النظــرات ، وقال ماجــد « الله يساعدك ! » وأبتسم له ابتسامة هزيلة ، وكأنه يعتذر له عن الوعد ألذي قطعه له للمساعدة ، فتركها لله ، كلمــة عاجزة لا تحل عقدة ، ولا تريح ضميرا ، ولا تبشر بأمــل محقق كأنما يقول له : يا أخي ، انا ايضا مثلك أركض وراء شيء مفقود . وغادر فاضل البيت بسرعة .

كان عباس في انتظاره . وبعد ان انتظم المجلس قال له بعد صمت قلق موسوس :

ــ ايه ، تكلــم .

ــ لا ! اليوم انت تكلم .

ـــ ماذا اتكلم لك ؟ عن بقع الشيب في راسي ؟

ـــ صحيح ، عباس ، ان راسك كله مبقع ببقع بيض. والناس لا تشيب بهذا الشكـــل .

ـــ هذا ليس شيبا ، هذا مرض اسمه مرض الثعلبة. الم تسمع به ؟ (نفى فاضل) .. اصبت به خلال ثلاثة ايام. اصابتني فزعة شديدة ، وبعد ثلاثة ايام امتلأ راسي بهذه البقـــع .

ـــ معقـــول ؟

ـــ وليس عن جبن . مع ان الانسان لا يعرف متـــى يستبسل ، ومتى يستسلم لجبن خبيث مفاجىء ، متى يقتحم ، ومتى يفزع فزعا عصبيا يصيبه بمرض عصبي لا علاج له . من الصعب ان تفهم اطوار الانسان هذه . كلها اجتهادات ، كما يقول رجال الدين . وكل طور مرتبط بشيء مخفي في نفسك ، يطفو في ساعته على السطح . انا اقرأ الجرائد ، والكتب . يسمون هـــذا الشيء المخفي في نفسك بالبعـــد النفسي ، اذا لم يختلط علي الامر . ولكن لا احد يعرف متى تتحول الكيفية الى كمية ، كما يقول جماعة ماركس . خذني مثلا . يا ما رايت ويا ما قاسيت ، ويا ما صرخت بهتافات حتى حين كانت كلمة « سلام » محرما عليك أن تقولها . ولكن حادثة صغيرة ، ولا اريد ان ادخل في التفاصيل ، خلفت خيوط المنكبوت على راسي اليابس . وانت نفسك ، ربما في ظرف معين لم تكن تتأثر هذا التأثر الحزايني ، حين هربت زوجتك . يعني ، النساء قحط ؟ ولكن هذه الحادثة حركت ذلك الراسب في الداخل ، هناك .

واشار الى صدره .

ـــ اتخيلها ، دائما اتخيلها ، والنبي العربي ، والقرآن

الشريف . انا احيانا حين ادق مسمارا في صندوق اتصــور انني ادق مسمارا في تابوتها .

ــ هذا هو الفزع الاكبر .. ستصاب بمرض الثعلبة.

ــ وعندما آكل أتخيل انها في الجانب الاخر من الصينية، تنظر الي بعيون جائعــة .

ــ ابعد هذه الخيالات من ذهنك .

ــ لا أستطيع ، لا استطيع .

واحس عباس بالخذلان ، ومرر يده على شعره ، وكأنه يتحسس ندوب حادثة مريرة ، محنة لم يستطع ان يتخاطاها، فكيف يستطيع ان يعطي لنفسه الحق في ان يلزم زميله على تخطي محنته الخاصة ؟ لايام كثيرة كانا يجلسان هذا المجلس، ويضعان مشاكلهما على صندوق المرطبات المقلوب ، المتوج بصحن حمص مسلوق وصحن باقلاء . وكانــت الذكريات تسكب كالدموع ، وتختلط بما يحتسيانه . والذكرى والعرق كلاهما يساعدان على نفث السم المتراكــم في القلب ، وعلى التشبث بذلك الشيء المغروز في النفس ، الامل المصــلوب على الف مشنقة من الخيبة ، وما يزال باقيا على قيد الحياة . كان عباس يساعده ويقيه من الوقوع في الانهيار التام . كان يصغي الى ذكرياته بأذنين سمعتا اهوالا ، وكانتا تستصغران الفقدان . ولم تكن تصدر منه كلمة نهي قاطع ، ولا استكبار جارح . قال عباس يراجع نفسه خوفا من القسوة الطائشة:

ــ قد تكون على حق . لا تستطيع الان . أنت الان مغلف بها ، مغمور بذكرياتها .

ــ اتذكر كل شيء من حياتنا .

قــال بمــزاح :

ـ وتذكر ليلة الدخلة ايضا .

ـ اتصورها في خيالي مرارا وتكرارا ، قبل ان اغمض عيني للنـــوم .

ـ ليلة الدخلة سواء عند كل الازواج .

ـ لا ، فيها شيء خاص وفرته لي حسيبة .

ـ ماذا وفرت ؟ وجدت امرأة تنتظر مع العروس .

ـ نعـــم .

ـ وتصافحتما ، ثم تركتكما لحديث الليل .

ـ الى هذا الحد يشترك جميع العرائس . ولكن البقية تعود لها وحدها .

توجه عباس اليه بكل انتباهه ، واعتدل في جلسته . وزاد ذلك من تلذذ فاضل باستعادة الذكرى :

ـ خرجت العجوز . هذه خلوتي الاولى مع تلك البنت الجسور التي اقتحمت علينا مجلسنا ، نحن الرجال ، بتلك الجراة الغريبة ، وقدمت لنا الشربت . عاينت عليها . رأيتها تحتضن رمانة السرير مطبقة جسمها عليها ، مطرقة براسها الى الارض ، غائبة عني وعن الدنيا كلها . لم اعرف ماذا اقول لها . كلما اقتربت منها خانني جســـدي بالارتعاش ، واسود وجهها . ولكن بعـــد محاولات خائبة لمست يدها . واحسست وكأنني امس كهرباء . فارتعش جسدها كله تحت يدي ، سحبت يدي وهمست : « خايفة ؟ » لم تنطق بكلمة . كانت تدير وجهها عني . وبدا « المزواق » في ضوء مصباح النوم بقعة حمراء زرقاء . أم هذا دمها قد احتقن من الخوف ؟ عجيب اين ذهبت شجاعتها ؟ في ليلة الدخلة تختفي الشجاعة . ولكن رأيت عرائس يخرجون بمناديلهم الحمـــراء بعـــد عشر دقائق من الدخلة . ماذا اقول لاهلي الذين كانوا ينتظرون وراء الشباك ، واسمع اصواتهم وهمساتهم ؟ ماذا افعل ؟ اشفقـــت عليها

اشفاقا جديدا . تصورت أنني لو اقترب منها يغمى عليها .
همست لها « تريدين ان نؤجل القضية ؟ » اخرجت من صدرها صوتا كالحسرة . لمست يدها مرة اخرى . كانت باردة كالثلج. وركض جلدها بين اصابعي . فسحبت يد ي. وابتعدت عنها .
وكان اللغط يزداد في الخارج عند الشباك . وكان قد مضى اكثر من نصف ساعة ، ونحن في هذا الجمود . وزادت شفقتي على حسيبة ، وحيرتي . وقلت لنفسي « اولا واخيرا هي لي. اين تروح ؟ الاحسن ان لا اغتصبها اغتصابا » وكان احد الاصدقاء قد اعطاني سكينا مطويا في المطعم الذي تعشينا فيه للمزاح ، قائلا : اذا امتنعت اسحب عليها السكين .
(واخذته للمزاح ايضا . سكين صغير وصدىء . نهضت من السرير ، وانزويت في زاوية ، واخرجت السكين . من المحال ان اسحبه عليها . انا لا اتزوج نعجة) فتحت السكين ، وغرزت راسه في العضد . واحسست بألم لذيذ . وتناولت المنديل من جيبي .ومسحت الدم فيه . يبدو ان حسيبة احست بذلك اخيرا ، فتأوهت . قلت « لا تخافي ايــن منديلك ؟ » اخرجت منديلها . لوثته بالدم . ثم شددت الجرح بمنديلي ، عاونتني حسيبة ، وانزلت عليه ردن الدشداشة . وقلت لها « لنؤجل القضية . آياك آن تقولي لاحد » وخرجت الى اهلي، واريتهم المنديل وارتفعت الهلاهل .

ـــ هذا اعجب زواج في حياتي .

وضحك عباس ، وهز رأسه هزات كبيرة ، سخرية او استظرافا .

ـــ اليس في ذلك نكهة حسيبة ؟

ـــ فيه نكهتك اكثر .

ـــ الا توافقني على ذلك ؟

ـ لا ادري .

وانبرى يضحك من جديد ، وحمل كأسه وقربها من فمه، واضـــاف :

ـ أبديت ثقتك الزائدة بها . يعني وقعت على بياض ؟

وراح يهز رأسه استغرابا .

ـ اصارحك ان هذه الافكار السوداء ظلت تدور فـــي راسي . وانا بين اهلي . ماذا لو طلعت غير بنت ؟ ولكنني اسلمت نفسي للقدر من البداية ، وليكن ما يكون . انا الملوم في البداية والنهاية . لعب الشيطـــان في صـــدري ، وملأه بالوساوس . كنت كالذاهل او المدحور بين اهلي ، بارادتي او بغير ارادتي . استعجلـــت ودخلت عليهـــا ثانية ، بعد الترتيبات ، رايتها هذه المرة نائمة في الفراش ، وقد افردت اللحاف ، وتركت لي مكانا الى جانبها . يعنـــي ، تفضل ! في هذه المرة انا الذي كنت ارتجف مثل السعفة . لا استطيع ان اثبت على نفسي . دخلت الفراش ، تحت اللحاف ، ورأيت عينين واسعتين ترمقانني ، تريدان ان تأكلاني . وكان الشعر الاسود قد تناثر وفقد لمعانه . وفجأة نسيت افكاري السوداء، وتخلصت من الريبة . قلت ، وارجو ان لا تضحـــك مني : « تريدين ان تنامي ؟ » هزت رأسها . ونزلت خصلة شعر على جبينها . ازحت الخصلة ، واحتويت وجهها في يدي . أحسست بالتوهج في خدها . قلت لها « جلدك حار ! » والتصقت بها ، وغطست برودة جسدي بنارها الكبيرة . ولم اجد ممانعـــة منها . سألت هي ، لاول مرة بلسان ثابت « كيف ذراعك ؟ » قلت لها « نغزة بسيطة » وعانقتها ، ورأت انها هيأت نفسها لي ، ولم تبد اية ممانعة . وطلع الدم الصادق هذه المرة .

وتوهج وجه فاضل في الدكنة المرتجفـــة بالاضـــواء ،

والخفاقة من بعيد ، ورفع يده بحركة افتخار مبالغ فيها. وكان صاحبه يلتهم حبات الحمص المسلوق صامتا ، وينود برأسه المبقع بطرات بيضاء ، وكأنه يتتبع توثبات طفل أرعن اطلق له العنان ليعبر عن طاقته كما يشاء . ثم لاذ كل منهما بافكاره. وفي الصمت المرتخي انطفأ توهج فاضل ، واعمل فكره ليخرج صاحبه من صمته المشبوه المبدد للنشوة .

قال يستدرجه :

ـ قلت : وقعت على بياض ؟ حلو ! تعجبني ! . نعم وقعت على بياض . ولانني وثقت منذ البداية اريد ان امضي الى اخر الشوط . أشعر بأنني شاذ وغريب بين اخواني . خرجت على السنة المتبعة منذ البداية . تركت المدرسة وانا في الصف الخامس الابتدائي ، ولم يعجبني ان اعمل في دكان ابي . اريد ان اكون حراً ، واخترت زوجتي على مزاجي ، رغم معارضة اهلي جميعا . وهم الان يشمتون بي . والدي خصوصا ، واخي الصغير شامل .

ـ اين يعمل اخوك الصغير ؟

ـ ما يزال يدرس . ممثل اصلي . يحب الخطابة في المطبخ ، ولا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب . البارحة قال لاختي : لو كان فاضل قد فقد آباه وامه دفعة واحدة لما جن هذا الجنون . يريد ان يؤلب الاهل علي .

ـ ستقتل نفسك قبل ان تؤذي احدا منهم . ارحم نفسك .

ـ كلهم ضدي ، ما عدا اختي . لو جئت حتى منتصف الليل لرايتها تنتظرني في المطبخ تدفىء عشائي .

قال عباس في غير رضى :

ـ بعت الدنيا كلها بمشكلتك الخاصة .

لم يفهم فاضل كيف باع الدنيا . كان يريد ان يحتويها وما يزال . كان يريد أن يصل الى قمة السعادة والرضى عن النفس ، كان يريد ان يكون هو نفسه ، لا ما يريد الاخرون له ، كان مقتنعا وما يزال بأن ما فعله هو الصواب ، وان الاخرين مخطئون ، لانهم لا يقدرون مشاعره . اعترته وحشة غامضة من توارد الافكار الجارحة على ذهنه . قال بعتاب :

ــ وانت ايضا ضدي ؟

ــ لا ، ابداً . . انا افهمك جيدا ، والذي يفهمك لا يمكن ان يقف ضــــدك . قل لي : الم تكن لك مشاكل معها ؟

صمت فاضل قليلا قبل ان يقول :

ــ كانت لها مشاكل مع ابي وامي كما قلت لك .

ــ ما هي تلك المشاكل ؟

ــ كانوا ينكدون عليها عيشها ، لانها لم تحمل مني . هذا كل ما في الامر .

ــ وهذا لا يقلقك ؟

ــ أبدا . ثم كيف اطلق امرأة ، وانا لا اعرف هل انا المذنب أم هــــي ؟

ــ ولكن الابناء بهجة الحياة الدنيا .

ــ لا اريد هذه البهجة . او قل اريدها ، ولكن مــــاذا افعل اذا حرمني الرحمن أو الشيطان منها ؟

وسكت ، ودار في رأسه السؤال نفسه الذي كان يلح عليه في آلاونة الاخيرة ، ولا يقوله لاحد . والان ، مع الخمرة وتدفق الاعترافات عاد السؤال يضرب بيافوخه : ماذا لو كذب الاطباء ، وكان هو السبب ؟ اعترف لصاحبه بشكه في قالب ادانة :

ــ ربما اكون انا السبب ؟ كم فسقت قبل الزواج !

ــ كلنا فسقنا . ولكن عندنا اولادا جميعا .

ــ هذا حظي .

ــ يبدو انك تخلق المشاكل لنفسك .

ــ الناس يخلقون المشاكل لي . انا منسجم مع نفسي الى اخر حد .

سامحه عباس على هذه القناعة. الجرح ما يزال حارا. سيسى ، وسيجذبه الشوق الى امراة اخرى ، مثلما جذبه هذا الشوق الغريزي . قال بتأن وبلا تقريع :

ــ انت تختلف عني كثيرا ، يا فاضل . انا اعتقد ان الزواج كالعمل واجب وضروري لتمشية الحياة . انا لا أخلق لي مشكلة اذا لم أوفق في عمل . ظروف . مزاج . اتركه الى عمل أخر ، ولا اذكره بخير او شر ، ولو كان له حسابه الداخلي في نفسي . تجربة غير موفقة ، ولا تعني حياة غير موفقة . وكذلك المراة . انا لم اوفق في زواجي الاول ــ ومط شفتيه بتقزز ــ خطأ في التقدير مني او منها ، ففضلت ان اطلق . اترك عملي الاول بالسهولة التي يجيزها لنا القانون . والتحق بعمل اخر ، يعني اتزوج باخرى . وانا الان اسعد معها في حياتي مع تلك .

ــ ولكنني كنت سعيدا مع حسيبة كل السعادة ، والله العظيم ، والكعبة الشريفة ، بالقران والفرقان . فلماذا يقفون ضد سعادتي ؟

وانقضت برهة صمت خاوية تباعد فيها الزميلان الى حد القطيعة . وامتدت يداهما معا الى ما كان بينهما على الصندوق المخلخل ، يداريان جرحا يوشك ان يدمى . وكان

عباس اول من رفع راسه ، فرأى شخصا ضخم الجثة ينحدر نحوهما عبر دهليز السينما المهجـورة ويكـاد يتعثر بفعل انسراحه آلى الاسفل . ثم رفع فاضل رأسه ، عنـدما سمع وقع الاقدام الثقلية غير المتزنة . وحاول ان يخفـي كأسه ، فارتطمت بالصندوق واندلقت . رأى اباه يطل عليه مسود الوجه ، يبدو راسه ضخما في هالة الظلام الهش . بادره الاب بصوت جزع :

ـ انت هنا ، يا فاضل ؟ مررت عليك في الشغل .

ـ جئت هنا لاستريح قليلا .

ـ كأنما ليس لك بيت .

كان فاضل يريد آن يقول أنه مر على البيت ، واكل . ولكن تحشرج صوت الاب آثار في صدره اللوعة والانقطاع . رد بشكل غامض :

ـ كان لي بيت .

ـ دفنت اهلك ، وهم احياء ؟

هذا الاتهام الباطل زاد من تفتته وغربته عن نفسه .

ـ لم آدفنهم . ولكني يئست من حنانهم .

ـ ماذا تريد ان نفعل ؟ نهيم علـى وجوهنا مثلك ؟

التعاسة الانتقامية تكلمت :

ـ اتركوني وحدي .

ـ تقتل نفسك ؟ كأن الناس قبلك لم يفقدوا اعـزاء غالين .

ـ كان اهون علي لو انها ماتت . اذن ، لنفضت يدي. ولكن اعرف انها الان في مكان ما ، حية مثل بقية الاحياء ، وربما هي في مأزق . وهذا الذي يفتك بي .

ـ وهل وضعك هذا يقرب من مجيئها اليك ؟

ـ ماذا افعل ؟ ابحث عنها في الطرقات ؟ ومع ذلــك لم اقصر .

ـ تؤذي نفسك بالخمرة . كنت مستقيما كالميل . ربما هذه عشرة ســوء ؟

تكلم عباس محتجا :

ـ أرجوك . لو كنت تعرف ماذا كان يدور بيننا قبل دقائق لما تكلمت عن عشرة السوء هذه .

قال عبد الواحد كالمعتذر :

ـ فاضل يحتاج الى مساعدة مــن اصدقائه الان ، ليتخلص من الشدة .

ـ كنت اقول له : هو الذي يخلق لنفسه المشاكل .

ـ مغلوب على امره . انا اعرف طبعه . دائما يركب راسه . يا ما عذبني ، وعذب امه .. هيا ، تعال معي ، يا فــاضل .

ـ لم انعس بعــد .

ـ انت تعرف أن أختك وامك لا تنامان الا حين تأتي .

ـ ذهبت الى البيت ، وتعشيت .

ـ وانا لا يهمك امري ؟.

واطبق شفتيه على شيء يريد ان ينطق به . استدار عبد الواحد وانصرف .

ـ سآتي بعد ساعة .

قال فاضل في أثره اشفاقا . ربما احس بعطف عليه ، وخزة في صدره . لم ير اباه من قبل في هــذا الموقف قط . كان السكوت العملة المستخدمة في تعاملهما اليومي النادر . واحس فاضل بعد ذهابه بالتعب والذبول .

وخلال ذلك كانت نعيمة تمر بدكان عبد الواحد خطفا وتلفي بارقة امل مبهمة ، وتنزلق في الاتجاه الثاني من الشارع، وكأن مجيئها كان عفواً ، وهي مشغولة الى حد الاختناق . وكان عبد الواحد ينشد الى صوتها المألوف ، كما يشد بحبل مفتول ، ويتابع حركاتها باذعان خفي . كان يشعر بالخيط الذي يشده اليها ، خيط رفيع لا يريد ان ينقطع ، كالامل في عودة شيء مفقود . وكانت اذا توقفت عند باب دكانه تغزل عيناها غزلها المعقد الذي يلف الراس ، ويحس بأنه ملتف به . كان لا يعرف ماذا تقصد بكلماتها المبهمة ذات الدلالات ، والموحية بالقدرة على ان تنال ما تريد أن تناله . هل كانت تتحدث عن السحر الذي تريد أن تبطله ، او عن الهاربة التي تتحاشى ذكرها لاتفاق خفي بينهما ؟ كانت تتحدث بنفسها ، تمسك بادرة الحديث ، وتسأل وتجيب بنفسها ، تستفهم وتشفع استفهاماتها بما لها من القدرة على ان لا يستعصي عليها شيء .. تحوف الدنيا كلها تكسرت على رأسي ، وتريد ان يخفى علي خاف ؟ وكان لا يستطيع في خاتمة حديثها السريع غير المترابط الجامع الشامل ، الملقى بألف رجاء وأمل ، ان يوقفها ، ويسأل السؤال الوحيد الملح عليه : يعني ....؟ ولا تدعه يتم السؤال .

واليوم جاءت ، على عادتها ، في لحظة غير متوقعة ، والناس حوله قيام يريدون « طاقم » عرسهم ... « مال بياتهم » . واسرت له : « عندي اخبار » ، وغمزت له بعينيها الغمازتين ، وابتسمت بكل وجهها البيضاوي الذي لم تزايله ملاحة الانوثة ، وجعلته يرتبك ، ويستعجل انصراف النـــاس قائلا لهم « أعطوني مهلة اسبوع . غدر بي بائع الخشب . لم يف بوعده ، وهو يطالب بأسعار اعلى .. » وانهار كل ما كان في ذهنه ليفاوضهم على سعر جديد ، يتفق مع ارتفاع

الاسعار . كان يريد انصرافهم بسرعة ، ويخلو لها ، حاملة الاخبار ، حلالة العقد . واسرع فصرف صبيحا ليجلب لـــه الغداء من البيت . وكتم تعليقين او ثلاثة تقفزت الى ذهنه ، حين رأى بعض معارفه يمرون .. عادة لا يستطيع التخلي عنها . كانت نعيمة تتبختر كالبطة في رقعة بصره المتلفت ، في الزوايا البعيدة عن متناول صوته ولهفته المتحرجة . ثـــم انسابت اليه قصيرة الخطى بعد ان خلا الدكـــان الا منه ، وحطت على باب دكانه مثل حمامة ناضرة مستعجلة لتطير .

ــ كيف حال فاضل ؟

ــ يتدهور ... راح يقتل نفسه .

ــ هذا هو العشق ، والا فلا ــ وتنهدت من صدر متدثر بفوطة ، وغمزت غمزة لا شعورية ، وبربرت بشيء في سرها. وانتظرت حتى يفقد صبره . وهذا ما كان .

ــ ما هي اخبارك ؟ وجدتها ؟ سمعت عنها ؟

قالت كالعليمة بكل شيء :

ــ لا شيء يخفـــى في هذه الدنيا .

وتلتفت فيما حولها ، وقذفت بجملتها الحارقة .

ــ تعـــال اليـــوم ...

ــ الـــى ايـــن ؟

واسرت له عنوانا ، شفعته بنيشان معروف . فسأل:

ــ هل هـــي هناك ؟

ــ لا تستعجل .. كل شيء ــ يصير على مرامك .. بس أعطني حلمك .

وغادرته ، وزرعت في صدره نار لهفة . وانطبع فـــي ذهنه بقية اليوم وجهها الواعد المنتصر المبتسم بسمة مبطنة ، بسمة ذات معنى ، كأنها تقول من لا يقدم لا يفوز . وبدا لعبد

الواحد ان هذه البسمة تعود الى ماض سحيق ، صاحبته طوال حياته ، وانغرزت في ذاكرته الى الابد ، وانها كانت دائما تتربص به ، ويقاومها ، ولكنه الان يجد نفسه واقفا امامها اعزل بلا دفاع ، لاول مرة ، الان كانت تبث فيه وهنا كالخدر . واحتشدت في ذهن عبد الواحد صور وطعوم وروائح تعود الى الدروب القديمة من حياته ، الى الزوايا المنسية ، حيث كان ينفرد بها خطفا ، والان تعود اليه مغرية مهينة كالمحرمات ، تستحثه على الاستسلام للفرح العابر وتدمير النفس . وتذكر عبد الواحد حلما رآه الليلة البارحة ، وهو انه كان على شاطىء ، والوقت قبيل المغرب ، ولكن الجو شفاف لدرجة خادعة ، حتى كان يستطيع ان يرى طرة ساعته تشير الى السابعة والربع . وكل ما في المكان واضح وضوحا مذهلا ، خط الشاطىء المعوج ، الماء الرقراق المترامي الازرق زرقة الغروب ، واشباح الناس متناثرين على الشاطىء . وكان عبد الواحد ينتظر شيئا لا يعرف ما هو على وجه التعيين ، ولكنه ضروري ، وهو يخشى ان يهبط الظلام دون ان يلقاه ، ويبتلع السواد كل شيء حتى الدرب المؤدي الى بيته ، الذي كان يلوح هناك ، في العطفة ، وراء نخلات كان يراها وهو على الشاطىء .كان عبد الواحد يحس بالاستعجال واللهفة المشوبة برهبة كخدر مقيت ، يحس بمتعة هذا الجو الترقبي وبالخوف من فوات الوقت ، تتناهبه الاحاسيس نفسها التي تتناهبه الان. ترقب. خدر. استعجال. انقطاع . خيبة . وكان فاضل في افق خياله ، يلوح مالئا الشاطىء كله ، شاطىء الانتظار . انتظار اي شيء ؟ غير معلوم .ولكنه انتظار يشده الى الشاطىء ، يشل حركته ، يغريه ، يخدره ، يلتذ به مثل الانفاس الاخيرة لسيكارة .

جاء صبيح ، وايقظه من تصوراته ، واعاده دفعة

واحدة الى ارض الدكان الصلبة المزروعة بسحابة الخشب ونشارته . اصحته من الحلم والتداعيات رائحة الطعام البيتي الشهي ، وتذكر في الحال ابنته وزوجته والاخرين .

في المساء اغلق دكانه ، وركب سيارته « البيك اب » وهام في شوارع بغداد ، على غير هدى ، تتقاذفه حركة السير ، وفي ذهنه تزدحم التوقعات يريدها ويخشاها في آن واحد . لا يستعجل الزمن ، بل لا يريد أن يفلت منه ، ويندم . وبعد الساعة الثامنة ركن سيارته في عنق زقاق متفرع من شارع الرشيد ، وانحدر فيه . كانت غيوم التوقعات تغشى بصره ، وتذهل فكره ، ولا تجعله يحظى بلحظة تأمل . ماذا سيقول لها ؟ بماذا يبدأ القول ؟ كيف ستلقاه ؟ ما هو هذا البيت الذي اوت اليه ؟ عشرات من الاسئلة تتوارد على ذهنه ، متلاحقة مذهلة ، لا يريد ان يرد على اي واحد منها . كان مدفوعا بنداء خفي نابع من اغوار قصية في نفسه . لا مجال للتراجع ، ولا للتريث ، ولا لتقليب الفكر . فجأة دخل منطقة اللارجوع . كان الزقاق مضاء اضاءة تخفي اعالي البيوت ، وتثير شريط الماء الآسن الذي يجري في الوسط ، ولكنه استطاع بشيء من السهولة ان يهتدي الى البيت الذي يتوسط بيتين من طابقين احدهما بشناشيل خضراء ، والاخر ناتيء عن خط البيوت قليلا ، فيه شباكان مطلان على الزقاق . وجب قلب عبد الواحد ، حين وقف امام الباب الذي بدأ كالمرقع بتداخل الالوان القاتمة والفاتحة عليه . ماذا تخبيء نعيمة له ؟ لعبة من لعبها السابقة أيا مالكر والفر ؟ الصبا والرعونة ؟ وارتفعت يده من تلقائها ، وطرقت الباب . وسعل لينبيء أن القادم رجل . ولم يسمع وقع اقدام خلف الباب ، ولكن الباب فتح ، وكانت نعيمة وراءه تقول «تفضل»!

دخل الى باحة انيقة الشكل يتصدرها ايوان عريض ،

مزين بعمودين خشبيين سميكين مضلعين تلمع من خلال لونهما البني الفاتح أريكة وكراس ملبسة بقماش مورد زاه ، تضفي على الايوان والبيت كله اضاءة اخرى بهيجة . والى اليسار ايوان اخر مستطيل ضيق ، بأعمدة ايضا ، فيه ثلاجة وادوات منزلية . ويبدو البيت كله وكأنما نظف وغسل لتوه . سارت نعيمة امامه حتى الاريكة لا تنطق بكلمة ، وكأنها لا تريد ان تنبه بمقدمه . وجلس عبد الواحد على الاريكة متوجسا حذرا وكأنه يدخل بيتا مسكونا بالاشباح . وجلست نعيمة على كرسي الى يساره . وتابعته بعينيها يفحص البيت كله ، ويرسل بصره الى اركانه القصية ، وعلى وجهه الملغد قليلمن دهشة وتساؤل وانتظار . حتى اذا التقت عيونهما فهمت نعيمة سر الدهشة . كان التساؤل يكاد يقفز من قسماته المتوترة . بادرته :

ــ الم تعرف البيت حتى الان ؟ هذا بيت صالح لاوند .

ارتخت قسماته بعض الشيء . ورف ظل غض من طيف الذكرى :

ــ بائع الدوندرمه ؟

ــ هو نفسه . حين مات قسم اولاده البيت الى ثلاثة احواش ، هذا الحوش ، والحوشين الى اليسار . هل تذكر ؟ كان يقف في دكانه الصغير معوج الفك ، افطس الانف ، يلف راسه بيشماغ متهدل ينزل على جبينه . كانت الناس تقول انه اقرع ، ويغطي قرعته بالياشماغ . ولكن تبين ان اليشماغ لم يكن يغطي قرعة بل دنانير .

واخذت عيناها تغزلان غزلهما الرقيق ، وتلفانه به ، وتجذبانه الى ماض سحيق متصل بالطفولة .

ــ كأنه ذاك اليوم .
ــ هل تتذكـــر ؟
ــ جعلتني اتذكـــر .
ــ استطيع أن اذكرك بكل شيء . اذكرك بأم طه . بيتها ما يزال قائما في اخر الدرب الى جامع المصلوب . هل تتذكرهــــا ؟
ــ من هي ام طـــه ؟
وحاول جاهدا أن يتذكر ، يزيح عن ذاكرته غبار السنين المتحجر . ولكن لم يكن في ذاكرته غير اشباح بلا وجوه .
ــ امونة التي كانت تصنع « الغرارات » الملونة لزوجها محمود ، فيبيعها لنا ، عندما كنا اطفالا .
ــ اها ، عندما كنا أطفالا .
ارسل آهة ، وكأنه أحس بوخزة .
ــ ابنها طه غرق . هل نسيت ؟ هذه الحادثـــة ما انساها طول حياتي . ذهبنا ، ونحن اطفال ، نتفرج . فرأيناه على الشاطىء ممددا منفوخا ازرق .
ــ تذكـــرت ، تذكـــرت .
ــ أسبوعين ظل ألاولاد يخافون من الشط الغدار ، ولا يقربون الشاطىء .
ــ لم اكن غاوي سبح .
ــ كنت جديا ، عندما كنت تريد ذلك .
ــ ابي جعلني كذلك .
واغفل ما ترمي اليه ، ولو شعـــــر به مثل وخز في الخـــاصرة .
ــ كنت اراقبك والفأس او المنشار في يدك .
ــ انت تتذكرين كل شيء .

ــ كل العيون كانت تراقبك .. بس انا كنت انتظر لفتة منك .

وجعلت تطارحه الذكريات . اغرقته في لججها المتتالية حتى شرق بالغصة . ضحك حتى دمعت عيناه ، ولم يشعر بها ، وهي تنتقل من الكرسي الى الاريكة ، ثم تزحف جنبه كزحف الشمس تلهب جلده ، وتوغر روحه ، فيرفرف قائلا :

ــ اية ذكريات ! كأننا لم نكبر .

ــ كبرنا ، ولكن الذكريات لا تشيخ ولا تهرم . والخرابة ؟

ــ الخرابة !

ــ تحت بيت المهندس يعقوب ، كأننا لم نجتمع فيها .

اطلق ضحكة خجل واعتذار ، لتذكر شيء مخجل وجسور . ولم ينطق بكلمة . وابتسمت هي ابتسامتها المبطنة .وتذكر عبد الواحد الان اين رأى هذه الإبتسامة لاول مرة ، فانطبعت في زاوية مطمورة في ذاكرته : اين رآها ؟ في الزقاق القديم ، ام في دكان ابيه ، حيث كانت تنزوي في ركن وتراقبه ، عند بائع الدوندرمة ، قرب شجرة « الغرارات » الملونة التي كان يحملها محمود ، في الخرابة نفسها .. لا ، في الخرابة لم تكن تبتسم . كانت ترتجف وكان هو ايضا . واحس عبد الواحد بحراجة من تداعي صور الماضي كلها أمامه ، وهذه الذكرى بالذات .

ــ هل تذكرت ؟

وفجأة ظهر على شاشة ذكراه الغائمة نتوء بارز قبيح : هو صرتها المنتفخة ، فلجمته ، وقال :

ــ يعني ، لا بد أن تنبشي الذكرى ؟

ــ لان الرجال ينسون ، والنساء لا ينسين .

ــ ونحن ايضا لا ننسى .

قال متشفعا ، وبصدق . فقد كان الماضي يخرج من بطن ذاكرته كيونس من بطن الحوت ، حيا ولكن بندوب .

ــ ربما تتذكر الشيء الذي تحب ان تتذكره . اما انا فكل شيء عندي كقطعة قماش واحدة فصلتها ، ولبستها طيلة حياتي .

ــ ماذا تعنين ؟

ــ بقيت ملازمة لك منذ ان كنا صغارا ، وحتى الان انت تملأ قلبي . لم اخنك ، ولكن انت الذي خنت .

ــ خافي الله ، يا ام جعفر .

ــ ليتك قد خفته انت .

ــ للهزل وقت ، وللجد وقت .

ــ اتحسب أن علاقتنا كانت هزلا ؟ كانت كل الناس تعرف .

ــ ولكن القدر يقرر شيئا غير الذي في قلوبنا .

ــ لا تدخل القسمة والنصيب في الموضوع .. انت الذي أردت وقررت .

ــ هذا الذي حصل . فما نفع الشكوى ؟

ــ ولكنك ما زلت في مكانك من قلبي .

ــ ما هذا الذي تقولينه ؟

ــ اريدك .. انا ما ازال امراة . ربما انا اصغر منك بسنوات كثيرة ، كنت تلعب بي لعبا .

ــ يا ام جعفر ، كان من الممكن ان اكون جدا .

ــ ولكن صورتك لم تتغير في عيني .. ما زلت الرجل الذي اريد ، أنت من دون كل الرجال .

والتصقت به ، وطوقته بذراعها .

ـ جئت لغرض اخر .
ـ ارض غرضي ، ارض اغراضك .
ـ انا عفيف ، يا نعيمة .
ـ العفة كلام العاجز . هل انت عاجز ، لم تعد رجلا؟
ـ عاجز عن خيانة زوجتي ، بعدهذ هالسنين الطويلة .
دفعته بقـــوة شديدة ، وقالت :
ـ لقد خنتني طوال عمرك .
ـ أتسمين عبث الصبيان خيانة ؟
ـ هل تتصور ذلك التاريخ الطويل عبث صبيان . الم نشترك في رغبات واحدة .. الم نتعاهد ؟
ـ على أي شيء تعاهدنا ؟
ـ نسيت كل شيء ؟
ـ لم اقسم لك بالقرآن ، لم اخطبك .
ـ هكذا ، اذن ؟ هذا كل ما تبقى في ذاكرتك ؟
ـ كنت تطاردينني ، ولم ارد أن اكسر خاطرك ..

واسف في الحال على الجملة التي قالها . اذ لا يمكن التبرؤ من اشياء حقيقية ، ولو كانت حماقات العمر ، ثم انه الان تحت رحمتها . جاء بمحض ارادتـــه الى بيتها ، وترك لها الحبل على الغارب لتثير الذكريات الدفينة ، وتتذكر مـــا كان يشدهما بخيوط كثيرة . يبدو انها هي الاخرى قد أحست بالندم والهزيمة . قالت مكلومة :

ـ كنت اطـــارد حظي .

وغمت نفسنها ، وللمت اذيالها منه ، وتركته منبوذاً لا يعرف ماذا يقول . ساد صمت مرهق مثل السير في كهف مظلم مكتوم الهواء ، طلع منه عبد الواحد بهذا السؤال مبحـــوح الصوت :

ــ ايــن البنــت ؟
ــ ايــة بنـــت ؟
ــ حسيبـــة .
ــ ما زلت ابحـــث عنها ، وسأجدها في يوم ما ، لاقدمها هدية لك من حبنا القديم .

وامتلأت نفس عبد الواحد ثقة وبراءة . نهض ليقبـل رأسها ، وينصرف .

ذهب عبد الواحد الى بيته مهموما متأثما ، وكأنه خرج من بيت مشبوه ، من الخرابة ، حيث كان يستجذبها اليها ، ويرفع ثوبها ، ويداعب صرتها المنتفخة . كانت تقف ملتصقة على حائط الخرابة المسقفة ، رافعة ثوبهـا الى صدرها ، مطبقة ساقيها ، لتتركه يداعبها ، في المواضع التي لا تترك اثرا . ويبدو ان ذلك كان يورثها لذة طويلة لا تنتهي الا بتعب اصابعـه ، وملـله ...

في حياته اللاحقة كانت تظهر له من حين لاخر ، باصرار عنيد يؤجج في نفسه رغبات جامحة ، ويزيده ارتباطا بهـا ، ويثقل كاهله بمسؤولية عن شيء لا يستطيع التخلي عنـه كليا ، لا يستطيع التبرؤ منه ، ولا ان ينكره . وكأنما مدته بجرعة ماء اثناء غيبوبة عطش . وكانت طوال حياته تلح عليه مثل عالم كامل من المحرمات الشهية المحرقة . ولكن الشعور بالذنب بقي يلازمه كلما رآه ، ويسد عليه نوافذ النسيان ، كان يريدها ويتحاشاها ، ويشعر بظلها الكثيف فوق حياته التي أنسابت في مجرى اخر .

كان قد ركن سيارته « البيك اب » قرب الحيدر خانة ، وانحدر الى الزقاق القريب من الجامع . والان رآها تنتظره ، ولكن رأى بعجة شوهـاء ، في الرفرف الايسر الخلفـي

لم تكن موجودة . لا بد ان سائقا ارعن احدثها ، وهرب .
وتألم عبد الواحد ، وتطير ، وقال في نفسه : « هذه حوبة زوجتي » ، ورضي بهذا العقاب الصغير ، ولم يمرر يده على البعجة ليتبين حجمها في ضوء الشارع المهلهل . وانطلق في شارع الرشيد ، بأقصى ما تسمح له السرعة في تلك الساعة المريبة من المساء .

في البيت فتحت له فضيلة الباب ، وقالت في رنة عتاب :

— تأخرت ! صرتم تتأخرون جميعا .

واحس عبد الواحد بأنه مشترك مع اولاده بتقصير واحد ، وزاد شعوره بالذنب انه جاء الى البيت خالي اليدين، وهو الذي تعود أن يأتي محملا بحاجيات العائلة . لم ينادها لتأخذ منه ، ذلك النداء الذي كان يريح ضميره : « فضيلة ، تعالي خذي » !. جاء الى البيت فارغا منخوبا لا شيء يهديه اليها . وزاد ذلك شعوره بالاثم ، ومده بدفقة حنان غامرة نحو بيته ، وكأنما غاب عنه سنين طويلة ، محجوزا عنه بألف جدار .كانت غرفة الجلوس مظلمة ، وغرفة الطعام الى اليسار ايضا . يبدو ان فضيلة ، في غمرة استعجالها ولهفتها،نسيت أن تشعل المصباح فيها .فاسترشد عبد الواحد بالضوء المتألق في المطبخ . وجلس على كرسي قرب منضدة الثرم .

— اصب لك العشاء ؟

— لا اشتهي ... ولكن يعجبني ان اجلس معك قليلا .

— العشاء ما يزال على النار .

— لا اريد . هل تعشى اخوتك ؟

— لم يتعش غير ماجد .

— وفاضل ؟

— لم يأت فاضل . وشامل قال عنده تدريب على مسرحية . ستقتله المسرحية .

ـ وستقتلني ايضا . اين نحن والتمثيل ؟ نحن اناس محتشمـــون .
ـ كل واحد سيقتله ما في قلبه .
ـ ماذا يفعل ماجد ؟
ـ لا ادري .ربما يكتب .
ـ ماذا يكتـــب ؟
ـ وهل انا اعرف . اقرأ لأعرف . ماذا يكتب . ولكن ، على الاقل فيالبيت ، فليكتب ما يريد . ليت فاضلا كان في البيت وليفعل ما يشاء .
لم يرد أن يسترسل معها في هذا الحديث الشائك . جاء ليتناغى معها .
ـ دعيه . سيعود الى عقلـــــه . المهم انت ، لماذا انقطعت عن رؤية فيلم السهرة في التلفزيون ؟
ـ لـــوحـــدي ؟
ـ افتحي التلفزيون ، وستجدينا نتحلق حوله .
ـ نحن أصبحنا قصة تصلح للتلفزيون .
ـ سيكون كل شيء على ما يرام .
اجهشت تبكي : من الفرحة بالامل ، ام من القنوط ؟ فقـــال لهـــا :
ـ المهم الا تجعلي الدموع تبلل عينيك . الدموع ربما تغسل العيون ، ولكنها تجرح القلوب ، تنخبها من الداخل .
كفكفت عبراتها ، وقالت :
ـ وهل البكـــاء بيدي ؟
ـ بيـــدك .
ـ لا. انا لا ابكي على نفسي. الاخرونيجعلونني ابكي.
وترقرقت العبرات في كلماتها . فراح ابوها يردد :

ـ كفى ، كفى .. رجعنا للبكاء ؟ صرنا عاشور الاعور يبكي على حماره ، لان حمار جاره مريض ، جعلتني اشعر بالجوع ، يا فضيلة . اين طبيخك ؟ هاتي ما عندك ، واشفقي على ابيك من الجوع .

تهنهت ما بين الضحكة والعبرة ، وقالت :

ـ سألتك من الاول . الان ، في دقيقة واحدة سيكون جاهـــزا .

ودبت الحيوية في حركات فضيلة . راحت وجاءت ، بل وضحكت على نكات ابيها عن « عاشور الاعور » هذا ، وتهللت اساريرها . لما فرغ الاب من طعامه ، صعد الــى ابنــه ماجــد .

كانت حجرة ماجد قرب السلم . واذا كان بابها مفتوحا كان الجالس فيها يرى جانبا من درجا تالسلم الاسمنتية ، والمصباح المطل على باب المطبخ . نادى عبد الواحد عنــد البــاب المغلــق :

ـ ماجد ، هل انت نائم ؟

ـ لا ، يا ابي ، تفضل .

دفع عبد الواحد الباب ، فرأى ابنه يدير له جذعه ، هاما بالنهوض من وراء المنضدة الصغيرة ، التي يكتب عليها ، المنضدة نفسها التي صنعها له عند تخرجه من الثانوية ، على امل أن يلتحق بكلية الهندسة ، ولم يرد شامل ان يستخدمها في غيابه . والان بدا ماجد وكأنه كبر عليها .

ـ تبدو ، وكأنك ما تزال ذلك الطالب المجد .

ـ الجد مطلوب في كل الاعمار .

ـ وما الفرق بين عمر وعمر ؟

ـ جرعة المرح المسموحة للانسان .

ـ كأنك في قلبي ، يا ماجد . وماذا تكتب ؟

ـ لا شيء يستحق الذكر . ولكن لا بد للانسان ان يفعل شيئا ليقتل الضجر ، الى ان يوفق في ايجاد عمله الاصلي .

ـ ستجده . لن تظل الاحوال على هذا المنوال . لا تهتم ، ما دمت انا على قيد الحياة .

ـ الله يطيل عمرك .

ـ ولكن مثلما قلت . لا بد ان يفعل الانسان شيئا ، والا فلماذا خلقت يداه ودماغه ؟

ـ اذكر انك ، بين عمل واخر ، كنت لا تريد ان تتعطل فتصنع لنا مقاعد ومناضد واشياء اخرى لسنا بحاجة شديدة اليها .

ـ كنت افعل اسوأ من ذلك .

وضحك عبد الواحد ضحكة قصيرة ، لانه ندم كيف افلت منه ذلك . العل ذلك من تأثير لقائه اليوم بنعيمة ؟ فاستدرك مستغفرا :

ـ لا ، لم أكن افعل شيئا لا يرضي ضميري . ولكن كنت اسلي نفسي او الهيها حتى لا تصاب بالكسل . عندما كنت صغيرا كنت آخذك الى سوق الدجاج لاماكس البائعين على سعر زهيد ، لمجرد ان اثير الحركة في نفسي . كنت اخاف السكون والصمت ، وما زلت اخافه . هل تظنني ارتاح اذا رايت بيتي صامتا كالقبر ، لا مرح ولا ضحك ، ولا صياح. لا ، والله . هذا ما يرعبني كالموت .اريد له ان يكون صاخبا مرحا ، فيه من يدب ، ومن يحبو ، ومن يركض مالئا البيت مرحا وضجيجا .

واطل صمت مطن طنين الذباب ، من الافكار التي اثارها

في راسيهما . ولم يجد عبد الواحد كلمة مشجعة من ابنه ، فطن انه لم يفهمه . فقال كلمة اعتذارية :

ــ نهايتهـــــا .

سارع ماجـــد ليقول .

ــ في الحركـــة بركة .

ــ هذا شعار أجدادنا ايضا . ربما لان اصلنا بدو رحل لا نستقر في مكان حتى نبارحه الى اخر .

ــ نعم ، يا ابي ، والشعراء تغنوا بالحركة والضجيج. فقالوا : « ولما اصبحوا اصبحت لهم ضوضاء » .

ــ احسنت ، احسنت ــ وتشجع عبد الواحد ليفصح اكثر ــ كنت اريد لهذا البيت العامر ان يكـــون مثل العرب الشايلة ، ولكن ..

ورنت « لكن » في حلقوم عبد الواحد رنينا فجوعا فقال ابنه الكلمة التي كان ينتظرها منه :

ــ انا افهمك ، يا ابي .

ــ هل تظن انني كنت ضد حسيبة ، لان اهلها كـــذا وكذا . لا ، والله . نحن ، اصلنا من اين ؟ نحن كسبة ، كادحون . عمرت هذا البيت بغضاريف يدي ، ولم استغل احدا ... آه ... انا سعيد لان ابني الكبير يفهمني .

ــ أنا افهمك جيدا .

ــ شكرا لله على انني مفهوم من احد اولادي ، على الاقـــل .

ــ والاخرون يفهمونك ايضا .

ــ لا ، فاضل لا يفهمني .

ــ سيفهمك .

ــ لم ارد ان اسبب له سوءا . لم اكـــن اعرف ان

خروجها يسبب له كل هذا الالم والعذاب . انطلقت من مبدئي ، كما قلت لك ... البيت الساكن كالقبر . لا تنس انني انجبت عشرة ، لم يبق منهم الا انتم . كنت اريد بيتا يعج بالصغار .

– سيمتد بك العمر لترى ذلك .

تأفف عبد الواحد ، وقال :

– لقد يئست من قدومك . قلت : غسلت يدي من ماجد . سيجد عملا هناك ، ويتزوج من اجنبية ، وينسانا . لان رسائلك كانت قليلة . ولما طلب فاضل الزواج ، لم اعترض الا لاننا لا نعرف البنت . ليس اصلها وفصلها . فقط لاننا لا نعرفها . ثم توكلت على الله . قلت لنفسي : اذا كنت لا أعرف متى سيتزوج ابني الكبير ، فعلى الاقل ارى ذرية ابني الوسط .. ولم ادر انه بلا ذرية .

وكانت الجملة الاخيرة مشحونة بعاطفة جارحة ، وكانها نذير بموجة بكاء .نهض ماجد من مكانه ، واحتضن اباه الذي كان يجلس الى سريره ، وجلس الى جانبه . وكان عبد الواحد يبدو مدعوك التقاطيع ، وكأنه يبكي بكاء صامتا ، بكاء أخرس ، بلا تهاويل البكاء . هون عليه ابنه :

– لا عليك ، يا أبي ، ستملأ ذريتك الدنيا .

تأوه الرجل ، وقال :

– لا ، بل اريدها ان تملأ بيتي .

– ستملأه حتما .

– وفي حياتي ؟

– في حياتك .

وتنفس الرجل ، وكأنه يتنفس الصعداء ، ثم اعقب ذلك بسؤال محرج :

ــ اتعرف ، يا ماجد ، وانا ابوك ، ان ضميري يعذبني ... ربما آسأت أليها ، والى فاضل .

ــ انت لم تسيء الى احد ... هذا شيء منطقي .

ــ ربما جنيت عليها ، شردتها ، وهي الان في حالــة سيئة . لم اكن اتصور ان رد الفعل سيكون بهذه الشدة .

ــ انا اعرف ما في قلبك .

ــ كنت أريد الخير للاخرين ، كنت اريدها ان تنجب .

ــ انا أعرف ذلك .

ــ وليس لي شيء ضدها ، قسما بالله .

ــ اعــــرف .

ــ وانا الآن اشعر بالخطيئة عايها وعلى فاضل ... يجب ان نجدها .

ــ سنجدها . اين تذهب ؟

ــ لا بد ان نجدها ، مهما كانت الامور .

قال ماجد مثلما قال لاخيه فاضل من قبل :

ــ سنتعاون على ان نجدها .

ــ اتفقنا ... سنتعاون كلنا .. انا ، وانت ، وامك ، وفاضل . ولكن لشامل قصة اخرى ... كان يتضايق منها .

- ٢ -

كم اقطع من وعود ! وانا ابدو كسلحفاة مقلوبة على ظهرها قرب شاطىء الحياة ، أرفس بأرجلي في فراغ الهواء ، يقابلني وجه السماء الجامد ، واتزحزح بيأس ، على رمل الشاطىء ، عسى ان اعود الى وضعي الطبيعي ... متى.. متى سأعود مالكا أرادة التحرك ، وانغمر في رجرجة الامواج، واتلذذ بملمس الرمل الهش المترع الحياة ؟ وعدت ابي ، ومن قبل وعدت اخي بأن أساعده في البحث . عمن ابحث ؟ عن اي ضحية ؟ ضحيته ام ضحيتي ؟ كلانا كانت له ضحية ، بشكل او باخر . كلانا حاكت له الظروف قصة غامضة لم يكن يعرف نتائجها . كلانا استجاب لوجدانه الذي تشكل بمعزل عن ارادته ، في غفلة من الزمن .. ام كيف ؟! كلانا استسلم لصوت طاغ متعجرف ملح يظل يطن في اذنيه طوال العمر .. آه ، لو وجدت واحدة من الضحيتين ، على الاقل . اذن لأرحت شيئا من ضميري المعذب . كلنا ذوو ضمائر معذبة . الم يعترف ابي بذلك ؟ ليتني اساهم في زحزحة الثقل الذي يبهظ كاهلي ، او كاهل اي واحد منا ... ليت ، والف ليت ! ولكن سنوات الغربة تشعرني بأنني اسير في ارض وعرة . الارصفة المهشمة الطابوق ، الطالعة الهابطة ، تعكف ركبتي ، ويتعبني السير عليها ، وتجعلني اشعر وكأنني سأسقط في اللحظة التالية . كنت اتعرف

على اسماء مطموسة ، واخاف الخطأ بشكل مقرف حتى في احاديثي العابرة مع الناس . أغدق بالاعتذارات لأقل زلة . واتوجس وأنا اسير في شوارع بغداد ، واحاول ان اعيــد الالفة بيني وبين الاماكن والاشياء التي تركتها هذه السنوات. كنت اسير في الطرق المؤدية اليها ، واراقبها من بعيد ، واتهيب من الاقتراب منها . من يدري ماذا غيرت السنون ؟ ربما اصطدمت بوجه غريب علي ، وافترستني نظرة مرتابة . كان الفراغ يشل خيالي ، ويفقدني نعمة التوازن . كانتنــي اخترق شوارع المستحيل ، واتخفى عن عيون الواقــــع ، ولا انال من السلوى غير حفنة من تداعي الذكريات . صار لي أصدقاء جدد ، ولكنهم يتكلمون بلغة مفردأتها الكثــيرة غريبة علي . مادة متفجرة ، وانتحارية احيانا ، لغة استقوها من واقع عاشوه ، ولم اعشه انا ، لغة لا استطيع ان افهمها بسهولة ، فردية تريد أن تصنع البطولة لهم وحدهم . الذات متضخمة تضخم الغدة الدرقية ، او مهروسة هرس حشرة ذليلة . والنهار منبوذ من الزمن ، والليل بارد وضائع ومكثف الحزن ، وانا احاول أن اضعف كثافة حزنه باعترافات لا تجلب الفرح . اية اعترافات هي ؟ انها تزويق صورة قاتمة بألوان باهتة من المبررات . ربما اصبت بعدوى اصدقائي في التسربل بزرد بطولة هش ، لا تستر عورة زلاتي وذنوبي ؟ ربما لانني رأيت شبها لزهرة في حسيبة ، والنهاية واحــدة مجهولة ، وغير مأمونة .. فتململت افاع سامة كانت نائمة في اعمــاقي .

لا اعرف كم قضيت من الوقت ، وانا مراقب . لم يكن يعنيني الزمن ، آنذاك ، على الاطلاق . لم اكن انظــر في الساعة ، ولا أعد الايام ، ولا احفل بليل ولا نهار . والسلوة الوحيدة عندي ، الترقب الوحيد الذي كان يفري جلدي احيانا،

هو ان يخرج من البيت اهله ، ويتركوه فارغا لي ، مثل سفينة هجرها راكبوها ، والبحر من حولها عباب ، مملوء بالكواسر . عند ذاك ، أخرج من مخبئي ، في غرفتي الصغيرة في ألطابق ألثاني ، تحت الدرج المؤدي للسطح ، تلك الغرفة المموهة بقطع الاثاث الكسيحة ، والمعماة بستائر قذرة بنفسجية تبعث في نفسي عربدة ألجنون ، والرغبة في الانتقام ... ممن ؟ من نفسي اولا ، تلك التي لا استطيع ترويضها ، فتتوثب في داخل جلدي حرنة شموسا ، وتقذف بي من غرفتي الى البيت الفارغ ارعن مسعورا ، تتفجر في داخله قوة تدميرية لا تبقي ولا تذر ... كنت اترقب خروجهم . في الضحى كانوا يخرجون ، في العصر كانوا يخرجون ، بعد العشاء كانوا يخرجون ، كلما اشتهت انفسهم الطليقة ،كانوا يخرجون . وانا بين هذه الفراغات اتأرجح مثل برميل من البارود ، معلق على حبل دقيق . واذا خرجت من مخبئي ، وخطوت ألخطوات المتوجسة الاولى الى النافذة المطلة على الحوش ، واخرجت جبيني ثم عيني ، ثم راسي كله ، ورقبتي، ودليت جسدي الى الاسفل فعل منتحر ، في تلك البئر السحيقة التي هي دنياهم ، وانقلبت كل حواسي الى آذان ، وأمنت الخطر ، تسللت حافيا ، على اطراف اصابعي ، الى الممر المؤدي الى الدرج ، باللباس والفانيلة ، وجسمي احسه يتحرر من قيوده ، وينساب اثيريا في الهواء ، منتشيا بكل حركة صغيرة جديدة عليه ، متلذذاً بحريته الموشكة ان ترد له ، مطواعا ، عربيد فرح ، قناص نشوات ،مغامراً انتهازيا ، صياد فراشات أحلام .. ولا يزايلني توجسي الوهاج الا حين انزل الدرج ، على مهل وتريث ، متهيئا للنكوص بمثل تهيؤي للوثوب من جلدي . وتستقر قدمي اليمنى على ارض الحوش ، العالم السفلي المحرم علي ، واضرب ذراعي في الهواء ، وكأنما انبئه بوجودي ، بحريتي التي توشك ان تطل

مثل راس حلزون امن الشر والاصطياد ، عندئذ لا يسعني البيت الفارغ كله . تضيق بي الجدران كلها ، تلتهم رئتاي هواء البيت كله . اصير حيوانا هائجا شجعه سجانوه باطلاقه في حلبة . احس بالفرح الطاغي واصدر اصواتا مكتومة متشنجة ، كزكزة ، واصعد الدرج واهبط منه عدة مرات . اقفز في الهواء ، الاكم أشباحا ، اركل حيوانات ، اقلب عقربا، اقفز حصانا غير مرئي ، أهز كتفي كراقصة مصرية ، صدري ، بطني ، مؤخرتي . ارقص رقصات الزنوج . اريد ان انفس عن الطاقة الحبيسة في اعطافي . واعجب متى ستنضب تلك القوة الكامنة في . يتصبب مني العرق ، وهي لا تنضب ، دق قلبي كالمدكة، وهي لا تنضب ، توجعني مفاصلي وهي لا تنضب ، بل أحس بدبيب تعب مريح ، تعب عافية وأستفراغ حمل زائد ، تعب نشوة كتلك التي تحسها حين تقضي حاجة جسدية ضرورية .

كانت تلك طقوسي ، صلاة جسدي المثقل باعباء الاختفاء ، رياضة لو لم أكن ازاولها لذبلت اعضائي ، ولنسيت الحركة والسير ، وشعرت بجسمي يتحول الى حجر . كم شهدت هي صلاتي ، قبل أن اكتشفها ؟ كم مرة خافت ، تسمرت مشدوهة . ضحكت ، وضعت يدها على خدها دهشة ، على فمها مخافة آن تند منها آهة ! لا ادري . كانت تراقبني من مكمنها هي الاخرى ، مكمن اختارته لتطيل امد المراقبة على الاكثر . لم يكن المطبخ ، ولا الحمام ، ولا غرفة الغسيل ، ولا التواليت ، بل علبة مهملة فيها دراجة اطفال ، وموقد غازي صدىء ، وصفائح الغاز السائل الفارغة ، وغير ذلك من سقط المتاع . ظلت قابعة هناك تراقبني زمنا لا ادري ما طوله ، ولم تبح هي لي به . ولولا تلك الهبدة العابثة من دراجة الاطفال لظلت تراقبني الى ما شاء الله .

في بادىء الامر فزعت حين لمحتني ــ كما قالت لــي فيما بعد ــ ثم استلذت بالحنقباز الــذي يلعــب امامها ، واستطابت حركاته المخبولة .

تلك الهبدة جعلتني التهم الدرج لا الوي على شيء ، كأنها طلقة مسدس من الذين يتعقبونني . ولما وصلت الــى مخبئي ، وهدأ لغيط انفاسي ، وثاب الي صوابي ، ضحكت من نفسي في سري ، وقلت : انها قطة ، لا محالة . وظللت انتظر خروج القطة . وبعد ذلك سمعت حركات اكثر معقولية لا تأتي بها القطط ولا الفئران ولا الارانــب . استسلمــت لمصيري . قلت لنفسي : على الاقل استرحت خلال شهرين من الاختفاء ، وانا الان مستعد لمواجهة جلادي .

ظللت اراقبهم من نافذة مكمني المغبرة ، من بين قضبانها الخارجية الصدئة ، في وضع غير مريح . ولو صورنــــي شخص ، وانا اطل من الفرجة ، لبدوت مثل شخص صلب نفسه على قضبان نافذة ، وعض لسانه داخل فمه ، واعوجت عنقه الموقوفة ، واندفن سواد عينيه تحت شحمة مقلتيه . تصورت نفسي بهذه الصورة ، وانا ارفع حنكي ، واغوص ببصري الى اقصى نقطة استطيع الوصول اليها في الاسفل ، واعاين البقعة الشعثاء الزوايا من قاع البئر التي هي حوش البيت ، مستميتا في تعقب الظلال التي كنت احسها تكمن في الجزء الذي لا يطاله بصري ، المعذب بالبحلقة وتدفق الدم ، وتشدخ الاعصاب في اسفل العينين ، حتى لمحت الشبح ... شبحها يقفز من الجزء غير المرئي الى جزء اخر غير مرئي ، باعثا الرعشة في جلدة ظهري .

ومن تلك اللحظة بدأت مطاردتي للشبح . كففت عن ممارسة طقوسي الجسدية . رياضتي الرعناء ، وصرت انتظر خلو البيت لاطارد ... الشبح الذي لم ينبئني احد من اهل

البيت بوجوده ، كما لم الحظ اختلافا لا في سلوكهم معي ، ولا في تصرفاتهم فيما بينهم . وكنت ، خلال المدة ، قد تعرفت على اصواتهم ، وايقاع حركاتهم فردا فردا ، ولم اشعر بشخص طارىء بينهم . العلهم لم يريدوا أخافتي وبث القلق والتوجس في نفسي ؟ خافوا على اهتزاز طمأنينتي المهزوزة اصلا ، ولم ينبئوني بشيء . ومضت الحياة على منوالها دون تغير في الظاهر . بعض الممارسات الخفيفة لرياضتي السابقة ، التنقل الخفيف بين الدرج والمخبأ ، تمطية اعطائي المتيبسة في الغرفة .

ولكنني أمنت بوجود الشبح حقيقة خلال اسبوع من المراقبة الدقيقة . كان يبدو حبيسا مثلي ، يقفز كالقطط المذعورة من غيهب الى غيهب ، خارج دائرة بصري الضيقة ، ولكنني عد تاتتبعه موقنا بأنه لن يفلت مني هذه المرة . كنت اطل عليه من فوق ، واحاصره ، قدر ما تسمح دائرة بصري ، في ذلك الجب المشعث بالنتوءات الزائدة من الدرابزين ، وبقية الجادر الملفوف ليغطي الحوش في الصيف ، والقاعدة التي تستقر عليها المبردة في موسم تشغيلها ، واطراف قرون الوعل المسمر في نهاية الجدار . كنت اقول لنفسي : سجينة ، مثلما كنت أنا في وقت ما ، روح حبيسة اخرى تأكل نفسها . كنت افهمها ، اعرف موقفها ، معاناتها ، انقطاعها عن الاخرين ، وبقاءها في البيت لا تزور ولا تزار .

عندما كان أبي يفتح حديثها كنت أحاول ان ارده ، بشكل لا يثير صفراويته . المراة ليست دجاجة ، واذا لم تبض لك ذبحتها ، وأكلت لحمها .لن ينفعنا ان نأكل لحم حسيبة ، فهو مر محرم . فلماذا نذبحها ، حتى ولو على القبلة ؟ كنت

اراها احيانا كسيرة الخاطر ، غريبة مهجورة . كنت اسألها احيانا :

ـــ الا يزورك احد من اقاربك ؟

ـــ من يزورني ؟

ـــ ولا تزورين احدا ؟

ـــ لا احد عندي ازوره .

وكنت المحها احيانا لابسة عباءتها ، لمجرد ان تتخطى باب الحديقة . وكان ذلك يثير قلق امي واختي . اسمع همسا . « تريد أن ترى اولاد الجيران ؟ تغازل بعيونها احد السابلة . لم تخلق للحشمة .. ملت .. تريد ان ترجع الى اصلها .. »

وكان ذلك يؤلمني ألما شديدا .

ـــ دعوها تشم الهواء .

ـــ وهواؤنا فاسد ؟ واين تربت هي ؟ اين تربيتنا نحن ؟

وتغضب أمي احيانا ، وتعاتبني قائلة :

ـــ ولماذا لا تنصح فضيلة بأن تشم الهواء ؟ وهي دائما في المطبخ ؟

والجم ، واكتم سورة حنق غير موجهة لاحد على وجه التعيين . واسمع فضيلة تقول « انا راضية بقسمتي » ، وينقلب ذلك الحنق الى انسحاق . واجد نفس منبوذا خارج عملية جرت في غيابي ، وتكونت اصداؤها في نفوس لا تحمل ذلك الاحساس بالخسارة اذا كانت تعيش في زاوية ضيقة من عالم ارحب من كل التصورات . اظل وحيدا مخذولا ليس لي منفذ غير هذه الاوراق ابثها انكساراتي المتكررة ، واقفز عبر السنين الى مواقف غير مترابطة تسترجعها الى الذاكرة مشاعر بنت اللحظة وقصيرة الاجل تومض في النفس

كالشرارة ، ثم تتفتت تاركة في الفم يبوسة النضوب والفقدان. ولكن تأتي لحظات صفاء تتجسم فيها الذكريات وتكتسي نقاوة البلور ، الذي تتكسر على سطحه مئات من الاقواس القزحية ، ويعود الى النفس شيء من ثقتها وتماسكها وحلمها وتبريراتها المعقولة . ولو للحظات قصيرة خاطفة . وحتى الفشل يكتسب فضيلة معاودة المحاولة .

في ذلك الحين ايضا لم اكن ايأس . كان يتملكني ما رد التحدي حين اقضي نهاراً بلا جدوى . لا ارى شبحا ، ولا ظل شبح . ولكني حين اضع راسي على المخدة في الليل ، كنت اجد نفسي يخفق فيها رمق الثقة في انني سأراه ، في اليوم التالي ، مكسوا لحما ، بل ويرتدي ثياب النساء ، ويرسل ضفيرتين طويلتين على ظهره .

كنت اراقب « زهرة » من مكمني ، تروح وتجيء في البيت ، مكبوسة القامة الى الارض ، يرتج نهدآها ، وتتكور كتفاها ، وتتأرجح ذراعاها البضتان ، وتتراقص ضفيرتاها وتهتزان اهتزاز العوجة المهدهدة لقلب مذعور الى حد الاحساس بالخواء . وكانت عملية المراقبة لا تبدأ الا حين يخلو البيت من أهله ، خوفا من الفضيحة . فماذا سأقول لو اكتشفت في حالة « كسر الرقبة » هذه ، متلبسا بمطاردة غير شرعية ، ولو من ارتفاع غير مريح ؟ ولكن حين كان البيت يهدأ ، وتخرج عفاريت النفس الامارة من مخابئها السرية ، اتسلق النافذة ، و « اكسر رقبتي » واراقب .. قد يمضي وقت طويل ، دون ان ألمح شيئا . باحة البيت لا حياة فيها ، ولا رجاء ... واحيانا يخيل الي انها هي الاخرى كانت تلعب معي لعبة « الغماية » .. تريدني ان اخرج بالفانيلة واللباس والتهم الدرج صعودا وهبوطا . ولكن ، من اين لي القوة الان ؟ تباورت كل قواي في المراقبة والنظر . وحين

تيأس زهرة من خروج « الحتقباز » تتخطف من جانب الى جانب ، بقامتها المضغوطة على الارض ، ونهديها الخفاقين، وضفيرتيها المتأرجحتين ... احيانا قليلة كانت تترنم بشيء غير مفهوم ، يتصاعد شيئا فشيئا حتى يستقيم اغنية مسموعة تنساب اعطاف زهرة على نغمها الحلو ، حتى يخيل انها على وشك ان ترقص ... ترقص لي ، وحدي .. ربما كانت تؤدي طقوسها لي . احست بنظراتي ، وتهللت اعماقها وفاضت فرحة اغنية . ولكنها كانت تكمل الاغنية في الزوايا القصية خارج مدى بصري ، فأتأرجح في فراغ القنوط المشلول . الانتظار واللهفة تدبان في روحي دبيب النمل . ثم يسمع صوت الباب يطرق ، أو الجرس يدق ... وتخمد حواسي .

بعد ذلك امتلأت حياة الاختفاء غنى وهما ، قلقا وخيالا . كل ذلك داخل قوقعة النفس ، وسراديب ظنونها الموحشة . لقد ايقنت بوجود القادم الجديد ، وبحياته بين افراد العائلة . كانت زهرة تعلن عن نفسها بطلاقة ، وترغم صوتها ليصلني في علبتي المعلقة . فهل كانت العائلة من الغفلة بحيث تتوهم انني لم اكتشف الساكن الجديد ، او الذي كان يقضي سحابة نهاره طليق السراح ؟ ام لعلهم خشوا من اثارة قلقي بشكل لا مبرر له ، ام ظنوا انهم قدروا أن يكتموا وجودي عن شخص غريب لم يثقوا به بعد . كل ذلك كنت اجوزه لنفسي ، واتعذب من ان اظل معلقا خارج قناعاتهم الزائفة ، مصلوبا على حبل التوقع والانتظار . وفيما بعد اعترف لي صاحب البيت قائلا : تركناها للمصادفات ، فهي التي ستصدر حكمها دون تعليل . والظاهر انهم كانوا يراقبون عملية القط والفأر عن كثب . وحين تخلع المفاجأة قناعها تبدو الحقيقة غير قابلة للرد ولا للنقض .

وقد خلعته بشكل غير متوقع .

جاءت ربة البيت الى مخبئي ، وقالت : جئت لك بالشاي . ولم يكن في يديها الصينية المعهودة ، ولكن شبح عذاباتي وظنوني الماضية كان خلفها يحمل صينية مقرقعة . واحسست وكانني ، من طول الانتظار ، أنا الذي كسوت الشبح هذا الثوب المشرق الممتلىء بليونة اللحم ، ولمعان البشرة الحية ، وخلفت له ، من خيالاتي واوهامي ، ذلك الوجه الاسمر المدور ، والعينين السوداوين ، والفم المضموم الممتلىء ، واليدين الصغيرتين القصيرتي الاصابع ، الضنينتين بالكشف عما فوق المعصمين . حينذاك قالت ربة البيت اشياء كثيرة تبث الاطمئنان في نفسي، ولكن حواسي الاربع او الخمس أو لا ادري كم كانت في تلك اللحظة ، لم تكن تصغي او تستجيب لكلماتها . كان جسدي الخائن الجبان ، وحده ، يرتعش ارتعاشة مشلة تجعل كل كلمة سأنطق بها او حركة اتيها ، فضحا مشينا للفعاليات السرية التي كانت تقوم بها حواسي المتكاثرة .

بعد تلك المقابلة القصيرة ، استلقيت على سريري اراجع حساباتي السابقة . لم تكن قامتها مضغوطة ، كما تصورتها ، بل اقرب الى القصر ، واقل امتلاء واكتنازا ، وكانت كتفاها مدفوعتين الى الوراء قليلا ، كما بدا لي ، بحيث يعطيان لنهديها بروزا اضافيا ، فكنت اتخيلهما من الاعلى اكبر من رمانتين ناضجتين . وكان وجهها الحنطاوي رصينا بالوداعة والحزن المطلين من عينيها الساجيتين ، اللتين بدتا لا تعرفان الرمش، ولا الدهشة من شيء . كل شيء ممكن في هذه الدنيا ، ولا حاجة الى الانبهار او البحلقة أو غماض العين .

ومنذ ذلك اليوم بدات اشرب الشاي من يديها ، واقول « سلمت يدك ! » في جراة متزايدة لا تحرك بريق مرحة في

عينيها ، ولا فتورا خفيا في جفنيها . ولولا تلك الحياة المشعة من سواد حدقتيها الابنوسي ، وبياضهما الفاتر لقلت انهما مرسومتان رسما . ثم كانت لي أوقات انتظاري . ثم صرت لا اعرف الوضع الذي كنت ألتزمه ، وهي تدخل علي بالصينية التي لم تعد تحمل الشاي فقط . غاب عني تركيز الفكر نهائيا ، ذلك التركيز الذي جعلني خلال مدة اختفائي التهم كتب العالم كلها ، كل يوم كتابين ترسل الي من يد الى يد . ماذا عندي غير القراءة الادبية المريحة ، في العالم الرومانسي المخدر ، المملؤ بالالفاظ ، والمواقف الميلودرامية لادباء العربية ؟ وربما ذلك حسَّن لغتي ، فيما بعد ، وجعل لي قاعدة لقراءات اخرى . اما حين دخلت زهرة حياتي، فقد اصيبمعظم اوقاتي بالشلل العاجز . وتمر فترات من التوتر الارعن . انتقل من السرير الى الطاولة . اضطجع او اجلس على كرسي ، او اقف مقلبا كتابا من على رف الكتب الصغير . كل ذلك في انتظار دخولها علي . اي وضع اكثر جاذبية وعفوية ونداء ؟ على اي نحو يجب أن تجدني ؟ غارقا في تأمل ؟ غافيا ؟ مغمورا بدخان سيكارة ؟ ممزقا اوراقا ؟

واخذت الكلمات التي نتبادلها تزداد . الكلمتان اصبحتا اربعا ، والاربع عشرا ، والعشر حوارا قصيرا . وسألتني فجأة ، وعلى غفلة مني : لماذا بطلت الرياضة ؟ ضحكت ، ونظرت الى عينيها الساجيتين ، الابينوس فيه لمعة خفيفة ، ولكنه ساكن سكون غابة استوائية وقت الظهر (هل هي ساكنة حقا ؟) قلت : كم من الوقت ظللت تراقبينني ؟ قالت : لا ادري ، لم احسب . وصار الامر طبيعيا مع وجود اهل البيت . كنت ، منذ البداية ، لا اشاركهم مائدتهم . والان صارت زهرة تحمل لي طعامي ثلاثة اوقات في اليوم . ولم اعد الى ممارسة رياضتي السابقة . كنت أستخدم طاقتي العاطفية

والذهنية لكي أمسكها بضع دقائق في غرفتي ، علـــى ان لا يبدو ذلك نشـازا ، ولا متعمدا ، ولا ثقيلا ، ولا ملحوظا منها او من اهل البيت . كانت رائحة جسدها تذكرني بروائح العالم الخارجي المحرم علي . وكانت رصانة عينيها تلتهمني ..

الامـــــل !

الامـــــل !

كم عذبتني غواية الامل ، وخانتني !. ولكن ظللـــت امل ، وما ازال امل .. كنت أمل الا يتداعى الامل . واملي في الامل يظل املي الوحيد .. حتى اليوم حين خانني للمـــرة التالية ، واحـــرق ورقتـــي الاخـــيرة في الدخـــول الى مكتب الاستشارات الهندسية .لقد اغلق هذا المكتب نجـــأة ، وسـافر مهندسوه للعمل في دبي . فقد قيل ان الفلـوس هناك تنصب مدرارا مع العرق المتصبب من الجسم من جراء الطقس الـــوغر .

ذهبت اغسل رماد الورقة المحترقة من فمي بقدح شاي في مقهى « علوان » حيث توقعت أن اجد عصبة العاطلـــين نفسها مصفوفة على تخوته الخشبية القاسية ، تحتســـي الشـاي المدبس ، وترأقب السابلة بعيون نهمة وكأنها تبحث بينهم عن ضالة مفقودة . وكان « جليل » اكثرهم عرامة . كان يلتهم كل مقبلة ومدبرة بعينين تستصرخانها ، تطالبان بحصة اكبر من الرؤية والشحنة العاطفية ، والقرضمة ... حصة تليق بشبابه الفتى ، وقوامـــه المشـــوق ، وروحه الضاجة المتمردة . وفي طريقي الى المقهى تذكرت ما نمي الى من قصة سمعتها من السنة كثيرة عن « فحل » العصابة ، كما سمي ذات مدرة ، قصة تتعلق بالتعذيب الذي عاناه قبل ثلاثة أعوام ، وانصب على رجولته حتى اصابها بعطـــب لا

يصلح . وقيل لي ، في فصل الخطاب : وتغطية لذلك تــراه يقبل على ألجنس الاخر بشهية صياد جائع ، وينتقل مــن حب لاخر كالنحلة . ولكن علاقتي به ما زالت اهش من ان تتحمل حتى التلميح الى موضوع كهذا .

اليوم رأيت جليل وحده في المقهى . قال لي قبــل أن أجلس :

ــ العصابة غادرت ألى احد البارات المعتادة . هيا ، نلحق بها .

ــ فمي جاف كالنشاف .

ــ احتس شايك ، وهيا بنا .

ولكي نسد رمقنا ، فلا نسكر ، في وقت مبكر ، تناولنا اربعة اسياخ من « ألفشافيش » تحت خيمة الرائحة الشهية للكبدة وألبصل المشويين . وفي ضوء « الكلوب » الفنطازي مثل ضوء قمر حبيس ، راقبت ، خلســة ، ملامــح فحل العصابة . بدأ لي غير متناسق التقاطيع ، طويل الوجه ، بارز الانف ، عريض الجبهة ، في عينيه ذلك البريق النهــم الذي يطل من عيون اولئك الذين يريدون ان يستقطعوا من الدنيا شيئا خاصا بهم ، البريق الموحش المحير بجسارته وســرعة انزلاقه ، فتتمنى لو يثبت لحظة واحدة لتعرف مــاذا يخفي وراءه ، وتخشى في ألوقت نفسه ان يسرق منك اكثر ممــا تحاود ان تسرق منه. وفكرت مرة اخرى في سبب هذا الالحاح الزائد على التعلق بالجنس الاخر . اهو نتيجة جــوع قديم خلفته بيئة ريفية جافة مقلقة قضى عليها « جليل » طفولته وصباه ، ام كبت مأزوم سببته فترات انقطاع قسري عن دنيا الناس المألوفة ؟.. أم هو ... على اية حال ... نتيجــة ألاصرار على شــيء تتشكــك في قــرارة نفســك ، وبعمق

احاسيسك ، في انك لا تملكه ... لقد سلبوه منك ! ولكنك للاحتفاظ بكيانك متماسكا ، ولترفع عقدة النقص التي تنهش قناعاتك ، تظل تؤكده وتؤكده ، وانت لا تدري انك تــؤكد الجانب العكسي من الصورة .

قطعنا الشارع فلاح لنا النهر كسمكة بنية ضخمة لامعة تملأ الشواطيء . وكانت البارات تدعونا بابتساماتها الحمراء والخضراء والذهبية . وقفنا طويلا امام احدها . كان الطعام الذي يطفو في معدتينا ، وحالة التوقع المضجر لما ينتظرنا في الداخل من دخان وضجيج واصوات خشبتها الخمرة ، قد سمرا اقدامنا على ارض الرصيف . لا نعرف هل ندخل ام لا . كان البار قصرا منيفا من طابقين كان عائداً لشيخ من شيوخ العشائر قبل ثورة ١٤ تموز . صعد صاحبي بصره فيه حتى خطوط الاضواء الملونة التي بدت عالية تعانق السماء الشهباء . قلت :

ــ كأنك تراه لاول مرة .

قلت بعد برهة صمت :

ــ ذكرني بحلم حلمت به البارحة .

ــ حلمت بأنك واقف امام بار ؟

ــ لا ، بل حلمت حلما غريبا . حلمت انني امام مخزن كبير ، كله من زجاج . وانا اعرف ، دون غيري من الناس ، انه مفتوح الابواب ، مهجور ليس في داخله احد .. او هذا ، ما تراءى لي ، وانا واقف امامه . واهم بالدخول ، ويعتريني فجأة خوف غامض . فأقف امامه او بالقرب منه مشدوها ، حائرا ، لا اعرف هل اقدم ام احجم ، او لعلني انتظر ساعة بعينها ، فرصتي الوحيدة . والانتظار يشلني . والناس الذين يمرون بي قلائل ، يلتفتون الي او الى المخزن . واعرف ان

سري سينكشف ، وأن بقائي مصلوبا على خشبة التخاذل ليس بصالحه . يجب ان ادخله ، ولو اقتحاما ، ثم لماذا «اقتحاما» والابواب مشرعة ، ولا يعوقني عائق ظاهري . ولكنني لا استطيع ان أتحرك ، او لعلي كنت اتحــرك بعسر وببطء شديد .. وعندما تؤاتيني الشجاعة ، وادخل الباب المفتوح ، اجد امامي حبالا متدلية اتصورها مشـــدودة الى مفاتيح المصابيح . فأسحبها ، ولكن المخزن لا يضاء ، بــل يبقى على صمته وشفافيته الخادعة كقطعة من البلور . ويسقط في يدي . وكأنما كنت اريد له ان يتوهج باضواء من صنع يدي . فأفشل . واحاول ان أفر ، لانني تصورت فجأة انني دخلت مخزنا محرما لا حراس له ، وفشلت في اقتحامه ، او اضاءة الانوار فيه . واسير ، وكأنني مقيــد الخطى ، لهفتي في الهروب أقوى من طاقتي على الحركة ، حتى اجد نفسي امام مصعد يشبه مصعد أو درج « اورزدباك » ولكنه مزدحم بالناس ، وهم يعيقون سيري واختفائي . وعندما اهم بالحركة احس بفتاة ورائي تطلب الي أن اتبعهــا . التفت اليها . فتاة نحيلة هيفاء مطليــة الوجه بمساحيق ثقيلــة كالقناع . وأنا لا اعرف لماذا احلم بفتيات يرتدين اقنعة ، ممشوقات القوام ، قبيحات الوجوه . ولكن هذه الفتاة تسمح لي بأن اعبث بنهديها ... واسترطب ، وافيق من النوم في حالة تعسة .

قلت ضاحكا :

ــ حلمك حلم مركب .

ــ هل له مدلول ؟

تساءل بلهفة . قلت :

ــ لست مفسر احلام ، ولكن يبدو ان هناك قلعة تريد

ان تقتحمها ، عقبة تريد ان تتجاوزها ، ولا تستطيع .

ــ ولكن المخزن كان مفتوح الابواب ، وكل شيء واضح فيه ، ولدي الجسارة على الدخول ، وجذب حبال الاضاءة ، ولكن الضوء يخونني .

قلت :

ــ ربما هي ذريعة ، خيانة الضوء . فقد كان شفافا كما وصفته لي .

ــ ذلك هو الذي يحير .. مضاء من الداخل ، ولكنني انشد اضاءة الانوار .

قلت كالعاجز :

ــ ربما كان لذلك صلة بما يدور في داخل نفسك .

ــ في نفسي تتداخل اشياء كثيرة . السياسة ، المرأة ، الاخلاق ، الفشل ، المستقبل ، الى غير ذلك .

ــ في السياسة تريد ان تقتحم شيئا صافيا تعرف فيه طريقك ، ولكنك تعجز وفي الحب ايضا ...

ــ ليس هناك شيء صاف في السياسة ، ولا في الحب ... ليس هناك شيء صاف على الاطلاق .

ــ ولكن من اين جاءت قطعة البلور التي وردت على لسانك ؟

سكت جليل ، ثم قال :

ــ ربما من طفولتي .. طفولتي هي الوحيدة صافية ، مثل ماء بحيرة من بحيرات العمارة .

وتعبنا من الوقوف ، والتنقيب عن تفسير معقول . فدلفنا الى البار . ووجدنا قاعة صغيرة قرب المنصة ، وعندما تعودت عيوننا على ضوء المكان الشاحب ، اكتشفت الى

يميننا قاعة كبيرة مملوءة بالدخان ، فتبدو وهمية كما في الاحلام . قلت مازحا :

ـ من يدري ؟ لو توغلت في ذلك المخزن المضاء خارجيا ، لرايته خانقا على هذه الحال .

ـ اتعتقد هذا ؟

ـ لا أدري !.. كل شيء يتخلخل امامي ، ويخرج شيئا فشيئا عن معقوليته . كل شيء يبدو غريبا لي ، مشوشا ومخلوعا من جذوره ، لا تعرف منه الحابل من النابل .

ـ ومتى عرفنا الحابل من النابل ؟

ـ لا تنس لحظات الصفاء الفكري واليقين في الماضي.. ربما انت اصغر مني ولا تذكرها ..

ـ أتذكر ، ولكن بغموض . كأن قذى السنوات الاخيرة يشوه بصري .

ـ ربما هذا هو تفسير غير مباشر لحلمك .

ـ لا أدري . كل شيء جائز .

ـ اتعرف ماذا رايت اليوم ؟

ـ ماذا ؟

خفضت صوتي الى حد الهمس ، وقلت :

ـ رايت رئيس وزرائنا ينزل من سيارته السوداء ، ويقف عند نقطة شرطي ، وينظم حركة المرور ، تماما مثل اي شرطي محترف ... رايته بكرشه ، وبدلته الزرقاء المترهلة يؤشر بيديه .. لم تعوزه الا الصفارة ! اهذا معقول ؟

ـ قلت لك : كل شيء جائز .

ـ وماذا يدل ؟

ـ ماذا يدل ؟ ـ واطرق وحصر شفته السفلى بين ابهامه وسبابته ، ثم قال :

ـ يدل اننا سنصاب بكارثة ... اذا لم يبق لرئيس وزرائنا من عمل ، غير تنظيم حركة المرور فمعنى ذلك ان اعمال الدولة متوقفة .. يعني لا دولة ، فراغ سياسي !

وحاولنا ان نبحلق في الفراغ الهيولي الداخن امامنا . لاحت لنا مناضد ، واشبا حسوداء منكبة عليها ، وجمرات حمراء صغيرة تتذبذب فوق الموائد . والضوضاء المرسومة تصطدم بالسقف ، وتتكسر شظايا لا لون لها ولا معنى . ثم لاحت الوجوه كرات سوداء مبرقعة . الايدي المنتهى بعضها بتلك الجمرات المتحركة تصعد وتهبط بحركات عصبية . تحطم شيء زجاجي . وابتلع الضوضاء لحظة واحدة . ولكن اي حوت سيبتلع هذا الدخان . انزوينا في زاوية شبه مضاءة ، وتريثنا لعل اصحابنا انفسهم يروننا ، ويقودوننا الى مائدتهم .

مال جليل الي ، وهمس في اذني :

ـ اتعرف ان اخاك في المعهد يلعب لعبة خبيثة ؟

ـ ماذا يفعل ؟

ـ هجر خطيبته ، ومال الى فتاة اخرى اجدى له في سنة التخرج هذه .

باستغراب قلت :

ـ هل كانت له خطيبة ؟

ـ او من كانت تعتبر كالخطيبة . فتاة رائعة صاحبها طوال سنوات المعهد . والان يلعب على فتاة اخرى .. اتريد الصدق ؟ لقد نبهته الى الامر .. ان لي قصة مع هذه الفتاة ، او قل ان لها قصة معي .

ــ ولم يلتفت الى ارشادك ؟

ــ اخوك مصاب بهوس عاطفي ... احيانا ينتقدني الناس على صلاتي العاطفية .. ولكنني مستقيم ، ولا املك هذه الخلخلة العاطفية .

خلخلة عاطفية !

هذه الكلمة رنت في نفسي رنين شؤم .

هل كتب علينا جميعا ، نحن ابناء عبد الواحد الحاج حسين ، ان نصاب بهذا الداء الوبيل ، وننشطر عاطفيا ، ونتخلخل ؟ كنت اتصور أن اصغرنا سنا اكثرنا بعدا عن التعقيد العاطفي . كان يبدو لي جافا ، اذا عصرته لم تطفر منه قطرة عاطفة ، فاذا به مرتبط ، مثل اخويه، بامرأة يريد ان يستبدلها الان باخرى . خلخلة عاطفية ! وفي حالته هذه انتهازية عاطفية ، اذا صح هذا القول ! وانا ، ماذا اقترفت في الماضي ؟ خلخلة عاطفية أم جريمة عاطفية ؟ نعم ، تلك هي ، وان لم اقصدها . لم تكن حبال العصير بيدي ؛ لاحركها ، واضيء انوار المستقبل . او لعلني عجزت مثلما عجز جليل في تحريك حبال الضوء في مخزنه العجيب . كنت سجين نفسي ، رهين المحبسين : الكبت والاختفاء ! وكانت هي تقدم لي الفطور والشاي . والظاهر ان اهل البيت وثقوا بها ، فعهدوا اليها برعايتي . كنت اتسلم الشاي بيد مرتجفة . سرى الارتجاف الى يدها ايضا . ثم بدأت اشم رائحتها . رائحة ريفية صافية ، ذكرتني برائحة تعود الى طفولتي ، أيام كنت اشتري الحليب من حلابة . رائحة تشدك الى الارض ، وتبعث زوابعها في شرايينك . وقد شدتني هذه الرائحة شد الاسير باصفاده ، وجعلتني اطيل استيقافها اكثر فاكثر متحدثا أحاديث تافهة ، سائلا اسئلة فضولية .

من اين انت ؟ ومن عنـــدك في قزرباط ؟ يعنـــي العائلة كلها هاجرت ؟ بقيت خالتك وجدتك ؟ طابت لكم بغداد ؟ بغداد . تبتلع كل شيء . وكانت تنظر الي بعينين رائعتين عطوفتين ، كأنها تنظر الى عجل ولد لتوه . وكنت احس بفوران الدم في شراييني ، وهي ترمقني رمقاتها القصيرة الساجية . وكانت تأتيني بالمجلات التي يشتريها أهل البيت ، واغلبها مصورة صادرة من ارض الكنانة . وتشير زهرة الى بعض الصـــور المترفة ، وتقول : من هؤلاء ؟ وكنت اجلسها الى جانبي . واقرأ لها ما تحت الصور ، واحس بدفء جسدها يحمي مجسات جسدي ، ورائحتها الصحية المعافاة تملأ خياشيمي . وكنت ، عن لؤم ، أحاول اثارة فضولها لابقيها الى جنبي أطول وقت ممكن ، ثم تتنبه الى نفسهـــا ، وتقـــول : اوه ، فات وقـــت الطبخ ! او ورائي تل من الغسيل . وتفر تاركة اياي في ذروة النشوة والاحلام . واحيانا كنت اخلع مسوح وقاري، والحقها في المطبخ ، والاحقها بالصور : « انظري هـــذه ، وانظري تلك . . » . ولم أكن ادرك معنى ما اقوم به . كنت منجرفا بقوة طاغية لا ترد في أن استرسل فيما لا أعرف ما اقصد ، ولا الى ما ينتهي اليه . كنت مدفوعا بتلـــك القوة الهائلـــة التي كنت احـــاول ان استنزفهـــا مـــن قبـــل بالبهلوانيات الجسمانية ، والان اقوم ببهلوانيات من نوع أخر ، اريد شيئا لا أعرف ما هو على وجه التحديد ، نوعا من الاثبات علـــى انني لم أمت أو اتحجر جزئيا ، وأنني مثل سائر البشر ،اعيش بكل طاقاتي . . وذلك ايضا نوع من الحماية ضد العجز الذي يهاجم المريض والسجين والمغلول والمتيبس في وضع لا ارادي. كنت ، ربما ، أريد ان أثبت انني لم انس ما يزاوله الاخرون ، وما زالت لي القدرة على مزاولته . ذلك هو التحدي للمقدور، كما قرأت فيما بعد . سجين زندا يتحدى البئر التـــي سجن فيها ، ويعارك قضبانها . . هذا ما ارتسم في طفولتي المبكرة

لهذا الفلم العميق التأثير في نفسي . أنا سجين زندا ، وفي الليل أحضر الخطط للهروب الخيالي من القضبان الصدئة الكالحة التي تثقل على روحي . كيف سأثير فضولها ؟ كيف امسك لحظات تقاربنا ، وامتزاج انفاسنا ورائحتينا ؟

صرت اتعجل اهل البيت ليخرجوا . وحين يمكثون يوما كاملا في البيت ، يصيبني السأم حتى اود لو اصرخ بوجوههم ان اخرجوا .. أنتم جالسون على روحي كالحجارة . واحسب انها كانت « تتكرضم » مثلي في مطبخها هناك ، او هذا ما كنت اتخيله . ثم جاءت « مرحلة » النظرات الطويلة التي كانت تصعدها في ، وتحدق بعينيها الساجيتين . تقف امامي ، وقد ارتخت المجلة بين يديها ، وراحت تحدق في . واحيانا كانت تلاحظ شيئا في ، ثم راحت تعلن عن وجوده . باشارة من يدها الى هنا وهناك من وجهي ، وشعري ، وهيئتي . واعتبرت ذلك نصرا «مؤزرا» لي. يعني انها بدت تهتم بي. نظراتها تتفحصني . ومرة ... مرة امسكت يدي ، وقالت : اظافرك طويلة. ولعلها فطنت لهذه المحاولة الجريئة، فسحبت يدها بسرعة ، وكان هذا اول « تماس » غير عرضي بيننا . قلت مهتبلا الفرصة :

ـ ساعديني في تقليمها .

ـ وانت ، الا تستطيع بنفسك ؟

ـ استعمال اليد اليسرى صعب علي .

وفي يوم اخر جلبت مقصا ـ وكنت قد نسيت فكرتي الجريئة ـ وجلست على مقربة مني تقلم اظافري . امسكت يدي بيد ، ومضت باليد الاخرى تبتر الزوائد الميتة الحية من جسدي ، في حركة ناعمة احس بمرجوعها في ظهري دغدغة دافئة . ويومها رغبت لو كانت لي مائة اصبع لتمتد هذه

العملية المخدرة اللذيذة ، حيث استطيع ان اغمض عيني ، وانسرح في أحلام ، واتخيل حقولا مشمسة ، وشواطىء رملية ، وبساتين وارفة الظل ، وانا وهي .. والافلاك تسبح في مداراتها بعيدة عنا .

هل كان اهل البيت يشكون في العالم الخاص الذي صنعناه لانفسنا خارج حياتهم المنزلية ؟ لا ادري ! ولكن رب البيت قال لي ذات مرة : كأنك على طلعة ! رآني حليق الوجه، معطرا ، مقلم الشاربين ، نظيف الثياب . قلت : تفاءلوا بالخير تجدوه . ورأيت شررا يقفز من عينيه ، وكأنه امارة تواطؤ . ورفع من الطاولة مجلة مصورة ، وخيل الي ان ابتسامة رفت على شفتيه . لا بد انه تذكر نفوري القديم من المجلات المصورة . كنت اعتبرها مضيعة للوقت ، مثل الاستماع الى اغاني عبد الحليم حافظ ، وأحلام وهبي ، وهيفاء حسين .. والان تتجمع كل المجلات المصورة تقريبا على طاولتي قرب الراديو الصغير الذي كان يهمس بالاغاني العاطفية . عزوت ذلك الى الضجر . يفتت الصخر ، فكيف بقلب ضعيف كقلبي ! ولعله هو الذي جعل الناس يبتكرون ما لا يخطر على البال لمحاولة طرده عنهم ، لا قتله ، فالضجر غير قابل للقتل كليا .. اي ، نعم !.. قالها بحيادية مشوبة بظل خفيف من الدعابة الساخرة ... ومن ذلك اليوم كانت تتناوب هي واهل البيت في جلب الشاي والطعام الى مخبئي . وكانوا اذا خرجوا ارسلوها في مهمة تقصدا او لغاية في انفسهم ، يريدون ابعادها عني وعدت الى اهمال حلاقة ذقني . ولم اعد ادير الراديو الا لسماع نشرة الاخبار المملة . وتساوى الليل والنهار ، كما كانا في السابق . ولكن العاطفة التي كانت تعلن عن نفسها باشكال عديدة ، بريئة وخالية من الاذى ، انزوت في القلب تنخر فيه ، وتخطط لمشروعات

انتحارية . صرت ادير في ذهني ، ماذا سأفعل اذا اسعدني الحظ ، وجاءت قادمة بشاي أو طعام . اكبر عدد ممكن من الافعال الهوجاء فتقتها العاطفة المكظومة ، اطيل امساك يدها ، امسد على شعرها السبط ، اتغزل بعينيها السجواوين ، أضع ذراعي على كتفيها متمتما : « عاشت يدك » أو ... أو ... اطبطب على خدها ، اقرب وجهي من وجهها في الشروع بقبلة .. مع وقف التنفيذ . كل شيء ، كل شيء فيه أقدام ونكوص في ان واحد . وكانت احيانا تهز راسها ، وترفع اصبع التحذير ، ولكنه تحذير حلو خال من العتاب ، بل تصورت فيه حثا لا مسؤولية فيه ، حين تقف عند الباب ، وتنظر نظرة باسمة مبرأة من الغضب ، وكأنها عادت تراني في رياضتي البهلوانية ، ايام كنت انهب الدرج قفزا ووثبا ، واقلب « عقربا » ، والاكم الهواء ... ومرة ، في لحظة خاطفة ، مثل نزول نيزك ، مرقت شفتي عن الخط الذي كنت الزمها على الا تتعداه .. و .. مست شفتيها مسا رقيقا ... لثما ، حتى احسست بأنها مرت على زغب ناعم .

وكان ذلك بداية للانهيار الجليدي .

- ٣ -

(الطلاب انفسهم متناثرون على المقاعد)

شـامــل : (ينهض) يبدو أن النصاب كامل .

خالــد : بل وفيه زيادة مباركة .

هيفــاء : هل تجدونني زائدة بينكم ؟

اصــوات : لا ، أبــداً .

علــوان : ستقومين برسم التابلوهات .

شـامــل : آلان عرف كل واحد دوره الخاص ، كما ان كمال قبل بأن يمثل دور الابن الاكبر . والتفات قبلت بتمثيل دور الزوجة الهاربة .

جــلال : رغم ما فيه من تعقيد .

شـامــل : وفكرة المسرحية واضحة عندكم ، كما اعتقد .

جبــار : على الشرط الذي اتفقنا عليه في الجلسة السابقة .

شـامــل : اتفقنــا .

جبــار : اسمحوا لي (يرفع يده) بما ان الامر يخصني ويخص زوجتي ، وهي عقدة المسرحية ولبابها ، فيجب ان تفهم وجهة نظري .

شـامــل : تفضــل .

جبـــار : سبب هروب الزوجة غامض . لماذا هربت ؟ هــل بسبب سلوكي ام لعوامل اخرى ؟.. دعني اكمل، لا تستعجل ! آن ذلك يمكن ان يفهم من سلوكي ، من علاقتي معها . هــل لانني اهملتها ، وصرخت في وجهها : انت عاقر ؟ هل ـــ واسمحوا لي بأن استعمل كلمة لا يستعملها الجاهل من امثالي ـــ هل فركتها ؟ يمكن ان يكون ذلك ، فيبرر ، ولو قليلا ، انجذابها الى أخي الكبير ، السيد كمال ، الله يحفظه ، ولكن هذه قضية معقدة ، واصبع الاتهام يمكن ان تشير الى اكثر من جهة . ولهذا يجب ان توضح بشكل لا يحتمل اللبس .

(الانظار تتجه الى شامل)

جبـــار : (يتشجع ويردد بصوت مسرحي) من المســؤول عن فرارها ؟ انا ام الاخرون ؟ اجب عن هذا السؤال يا مؤلف المسرحية .

علوان : المجتمع طرف اخر في القضية .

جــلال : آلاب والام والعمات والخالات ، وحتى الجيران . قلت لكم ان العقم يا ما دمر عوائل ، وخرب بيوتا .

شامــل : الحقيقة انني في الفكرة الاولى لم ارد ان اؤكد على هذه الناحية . كنــت اريــد آن ارسم عائلة غير متماسكة .

خالــد : لا اظن ان هناك سببا لعدم التماسك .

شامــل : التشتت واستقلال كل فرد بذاته .

خالـــد : لا ، اقلع هذه الفكرة من راسك . هرب الزوجة ليس كارثة . انها نتيجة طبيعية ، رد فعل مقبول .

علـــوان : حسنا ، لنأخذ راي التفات . لمذا هربت ؟

التفات : لو كنتم تريدون رأيي ، فهذا هو . ما كنت قد هربت . بل جلست الى زوجي ، وبحثنا الموضوع فيما بيننا ، وتوصلنا آلى قرار . واخر الدواء الكي ، كما تقول العرب ، اي الطلاق .

شامـــل : ولكنها من بيئة اخرى ، لا تفكر تفكيرك .

التفات : وليكن ! كان يمكن آن يتخذ هو قراره .. تطليقها . والعذر واضح ومسوغ شرعا ، على ما اعتقد ؛ وهي انها عاقر . ولكن يبدو انه يحبها .

شامـــل : ولماذا هربت ؟

التفات : اجد هروبها دليل حب له . على الاقل تركته مـــع نفسه ليقرر ما يشاء ، وتبقى لها ، بعد ذلك ، شعرة الامل الدقيقة ، وهي آن يحس بغيابها ، ويحـــن اليها ، ويسعى الى اعادتها . اعتقد ان هروبها مسوغ من وجهة النظر هذه .

جبـــار : ثم من يدري اية ضغوط كانت تتعرض لها .

جـــلال : من جانب الام والاب ، والعمات والخالات .

شامـــل : آلا تجدون سببا اخر لهروبها ، شعورها بالعار لعلاقتها بأخيه ؟

جـــلال : انت مخطيء في محاولتك لجعل ذلك حدثا مسرحيا ، ولو كان لمسرح اللامعقول . لانه يطرح اي مدلول فكـــري .

كمـــال : ثم آنا ، الابن الاكبر ، لا اجد هذه العلاقة قائمـــة ومبررة . انني ، كشاب مثقف ، قادم من الغرب ، حيث الهموم والتعقد الحضاري ، لا بد آن تكون لي هموم العودة الخاصة بي ، مثل ايجاد موضع قدم

لي في ارض الوطـــن ، البحث عـــن وظيفة ، تفهم مجتمعي ، وما حولي بعد غياب سنين طويلة .

فكيف اترك كل هذه المسائل الحيوية ، وانخـــرط في حب محرم لا اربح منه شيئا ؟

علوان : اسمع ، ربما ذلك يبرره الفراغ الذي وجد نفسهفيه.

جبـــار : الفراغ ذهول وضياع .

علـــوان : وقد اصيب الاخ الاكبر بهما . ربما تكون فكـــرة شامل مفهومة من هذه الناحية .

كمـــال : الذهول ممن ؟ من جمالها الساحر ؟ امرأة مسكينة، كما يصفها شامل ، امية جاهلة من وسط لا يـــدل على رفعة تجتذب شابا خبر اوربا بكل ما فيها من لذات ، وتناقضات وحيل . فكيف يقع في حب ساذج؟

حســـن : اي خبرة تلك التي تتحدث عنها ؟ كلهـــم يعودون بقلوب كليمة ، وهم من الناحية العاطفية يمثلهم بيت أمرىء القيس (لقد نقبت في الدقاق حتى رضيت من الغنيمة بالاياب) .

جـــلال : يفتتح تاريخ عودته بارتكاب جريمة خلقية ؟

حســـن : المفهوم من البداية ان شامل يدين الغرب . الم يتحدث عن العقد النفسية ، وما الى ذلك ، في اول طرح له لموضوع مسرحيته ؟

جـــلال : ولكن ماذا ندين في الغرب ؟ العلـــم ، التكنيك ، الراسمال ، الاستعمار ، أم الطبقة العاملة ، الثقافة والمثقفين ؟ كل هؤلاء موجودون تحت سماء الغرب .

شامـــل : ولكنهم جميعا يستحمون في حمام حضاري واحد .

كمـــال : لا اظن ان هناك حماما عموميا لكل الطبقات .

شامـــل : انا اتحدث عن الاخلاق ، عن التسيب ، عن الحرية في ارتكاب الموبقات ، وتخطي الحدود .

خالـــد : تقصد الفساد . للفساد الوان مختلفة كالحرباء ، وهو يحمل رائحة الارض التي عشش فيها .

لطيـــف : كأننا محرومون فسادا . تفضل ، واغرف منه كما تشـــاء .

أمـــيرة : لطيف ، للجدران آذان .

جـــلال : وللشعب السنة .

خـــالد : وللشباب سواعد .

جبـــار : كفاكم ثورية ، ولنعد الى موضوع المسرحية . فقد تبلور ، كما يبدو ... يا رب ، اخلق مسرحيـــة عراقيـــة !

حســـن : اتعرفون ماذا سمى خالد بن صفوان الدعاء ؟ سماه مجانيق الضعفاء ، وحذر الناس منها .

جبـــار : لنعد الى الموضوع اذن . الكلام لكمال الآن .

كمـــال : لا ادري . شخصية الابن الاكبـــر لا تعجبني في حالها هـــذه . لماذا لا تجعـــل له عقدة اخرى ، يا شـــامل ؟

شـــامل : مثـــلا ؟

كمـــال : لا ادري بالضبط . ربما كان له حب مقطوع الجذوع في غربته ، فراى في زوجة اخيه شبها ما بتلك التي غادرها مطعون القلب .

شـــامل : (بسخرية) يعني لا يفرق بين القطط الســـود والقطط الشقر ؟

كمـــال : اقصد ان تجعل له شيئا من هذا القبيل يواشجه

مع شيء فقده في بلاد الغربة .. او اجعل له عمرا ضائعا يتحسر عليه ، عقدة نفسية اخلت بتوازنه .. اجعله مكلوم القلب .

حسن : ولي كبد مكلومة من يبيعني

بها كبداً ليست بذات كلوم ..

شامل : تورطه في حب آثم يدل على جرح نفسي عميق .

كمال : ولكن لماذا يعتدي على اقرب الناس اليه ؟

حسن : هذه عادة قديمة عندنا ، نحن العرب لأن « ظلم ذوي القربى اشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند » .

شامل : اسمعوا ، ستجعلونني اغير وابدل ، حتى تنتفي متعة الخلق ، وسأكون تعيسا .

جلال : على العموم ستكون أحسن حالا من ذلك العامل الذي أعترف بأنه لم يصنع طيلة حياته سوى الجزء الثامن عشر من الدبوس .

شامل : لن تكون هذه المسرحية مسرحيتي .

علوان : نحن في عصر تقسيم العمل .

شامل : عندئذ لن تعبر المسرحية عن أفكاري .

حسن : ستخنقك افكارك .

شامل : لا ، لا أريد .

جلال : يقول كونراد : ان عملا ملهما ، مهما يكن متواضعا يجب أن يحمل تبريره في كل سطر ، كشرط للفن . وانت ما هو تبريرك في سلوك افكارك ؟

شامل : سقوطهم .

علوان : ولكن لماذا تجعلهم يسقطون ؟

شـــامل : السقوط ايضا تجربة حياتية .

خالــد : اسمع ، لماذا تدافع عــن شخصياتك ، وكأنهــا شخصيات حقيقية ؟

شامــل : انطبعت في ذهني حتى صارت شخصيات حقيقية، ولا استسيغ تغييرها .

جبـــار : انا متنازل عن اعتراضي . من اجل المسرح تسوّغ كل الاشياء . دعــوه يخلــق التصادم الضروري ضرورة عفاف المراة .

علـــوان : (بصوت تمثيلي مضخم) : عفاف المراة زي عود الكبريت ما يولعشي الا مرة وحده ! صـــدق رب المسرح القديم يوسف وهبي !

خالــد : ولكننا نناقش عفاف الرجل .

علـــوان : عفاف الرجل كالولاعة يظل يولع حتى يخلص البنزيـــن .

لطيـــف : يا ربي ، متى يخلص بنزين شامل ؟ اقصد احتراقه في جذوة افكاره ؟

جـــلال : لن يضعف شامل .

علـــوان : « ايها الضعيف ، يا من اسمك امراة ! »

جـــلال : ما دمت عرفته بهذا القول الشكسبيري فلن ينزل عن بغلته .

شامــل : اتحسبني لا اعرف المسرح الشكسبيري ؟

جـــلال : تعرف ، تعرف كل شيء الا نفسك .

لطيــف : هيكل بلا شكل ، وظل بلا لون .

شامــل : انا لا افهمكم .. هل انتم ضدي ام معي ؟ لقد طلبتم مني موضوعا ، وقد عرضته عليكم .. وها

انتم تعترضون ، وكأنكم في برلمان ياباني .

امــيرة : لا تقلبوا المسرحية الى مهزلة . يجب ان نفهم من نمثلهم . انا ايضا اعترض على دوري كأم . امهاتنا اللواتي ربيننا بروح التضحية والتفاني لا يمكن أن يكن مثل تلك التي تحدث عنها شامل .

لطيــف : هيكــل بــلا شكــل ، وظــل بــلا لــون . قوة مشلولة ، وايماءة لا حركة ، على حد تعبير اليــوت .

شامــل : وهل انكرت انا عليها روح التضحية ؟ ولكن لمن ؟ هذا هو السؤال .

امــيرة : التضحية لاولادها ، لعائلتها . والعائلة ، كمــا يقولون ، لبنة المجتمع . انا اعرف عوائل اصيبت بنكبات ، فوقفت الام كالطود الاشم ، وكانت المونة التي تشد بناء العائلة . فكيف تــريدها مائعة ، تتصرف هذا التصرف المبتذل . ثم مــاذا سيكون موقفها من هروب كنتها ؟

لطيــف : موقف الحماة والكنة موقف كلاسيكي .

جبــار : تقول لها : الى حيث القت .

امــيرة : وتسمم جو العائلة ؟ انا لا ارضى لها بذلك .

شامــل : انت ، انتم .. لقد خرجتم جميعا من وراء ظهري مثاليين منزهين ، وتركتموني وحدي اتخبط في حماة التجريح والادانة . وخرجتم انتــم اعفاء تنشدون المثل والاخلاق السامية . فيا لكم من ممثلين من عهد سوفوكل ، وشخصياته من انصاف الالهة . اما البشر وسقوطهم فلا تتعاملون معهما .

حسن : اضاعوني ، واي فتى اضاعوا

ليوم كريهة وطعان خلس

علوان : لا ، لن نضيع فنانا ، فتى المسرح العراقي الطعان .

خالد : فقط ان يكف عن تحاملاته .

علوان : سنتحمله على تحاملاته .

شامل : (بعد برهة من الصمت) : بشكل عام ماذا تريد الانسة اميرة الهندي ؟

جبار : مع حفظ الالقاب .

اميرة : اريد ان امثل دور العراقية المتفانية التي تجابه المشاكل بشجاعة .

شامل : تفضلي ، جابهيها بشجاعة . الا تبكين ؟

اميرة : ربما ، ولكن البكاء ليس عيبا . بل هو هزة حنان .

حسن : اذا اخذتها هزة الروع امسكت

بمنكب مقدام على الهول اروعا

لطيف : لو كان البكاء انسانا لقتلته . انه يشوه وجه الانسان .

خالد : وانا ايضا اعلنت عدم رضاي عن شخصية الاب الذي امثله . الاب رخو لا يمكن ان يضع لبنة على لبنة ... بينما يقول مؤلف المسرحية انه انتقل من حي بغدادي قديم الى حي جديد .. يعني اشاد وعمر .

علوان : بطريق الحلال ؟ هذا هو السؤال .

خالد : بطريق الحلال بالتأكيد . لان الحلال يتقطر قطرة قطرة ، يسير بتؤدة .

لطيف : بينما الحرام يقفز قفزات الجبابرة .

شامل : انا لا انكر على الاب عصاميته واستقامته ، ولكن اريد ان اعطيه ضعفا ازاء اولاده او بعضهم .

خالــد : ماذا جعلهم يفعلون ؟ انت تحرمه حتى من فضيلة ان يترك ابناءه يختارون لهم زوجاتهم .

جــلال : هو ، كيف سيختار زوجته ؟

علــوان : من بين زهرات المجتمع .

جبــار : يا اخوان ، لا تخوضوا في امور شخصية .. ها هي سناء قادمة . (تدخل سناء فيخاطبها جبار) : يا سناء ، ما رأيك في العائلة التي خلقها شامل ؟

سنـــاء : وهل خلق شامل عائلة ؟ خلق حقــدا لغرض في نفســـه .

خالــد : خلقها مشوهة عن عمد .

علــوان : (يتأفف) الحقيقة ان مسرحية شامل متعبة .

حســـن : كلنا متفقون على ادخال تعديلات عليها .

جــلال : لننفخ فيها روح التفاؤل في المستقبل .

شامــل : لتكون ميلودراما على الطريقة المصرية .

خالــد : اغلب الظن انك لا تملك فكرة واضحـــة عن مسار المسرحية ، وكيف ستنتهي .

امــيرة : هذا ما يبدو واضحا .

سنـــاء : اسمحوا لي أن ألقي سؤالا .

جبـــار : تفضلـــي .

سنـــاء : لقد جعل شامل الزوجة تفـــر . وهذا المنطلـــق والبداية . ولكن مصيرها ، مصير هذه الفتاة التي اراد لها شامل التعاسة ؟ اغلب الظن انـــه لا يريد ان يفكر في مصيرها .

شامـــل : عادت الى احشاء المجتمع التي خرجت منه على غفلـــة .

سنـــاء : انظروا . اعطاها للضياع مثلما اعطى الاخـــت الكبـــرى .

امـــيرة : لن تضيع امراة بمثل هذه السهولة .

خالـــد : كلنا يهمنا مصيرها .

جبـــار : لنبحث عن مصيرها . مصيرها بيدنا .

علـــوان : لن ندعها تضيع .

جـــلال : وهل احشاء المجتمع متاهـــة ؟ سنجدها حتما ، ونعطيها حقها .

شـــامل : حقها في ماذا ؟

امـــيرة : حقها في ان تتحمل قسمتها في بيت وادع .

شامـــل : انت تدافعين عن العقم ؟

امـــيرة : لا ، ولكن هل لنا الحق في قتل كل من ولد ومعـــه علة قلبية او قصور في قلب ؟

خالـــد : هذا محال ، يا شامل . للعاقر ايضا حق في الحياة. العقم ليس وباء لنقضي عليه بالمبيدات . العقـــم حالة فردية . فلا تصدر حكمك ضدها .

هيفـــاء : (ترفع يدها) هل لي ان اتدخل في موضـــوع لا يعنيني ؟

حســـن : تفضلي ، فقد قال مورق العجلي : لقد سألت الله حاجة منذ اربعين سنة ، ما قضاها لي ، ولا يئست منها : فقيل لمورق : ما هـــي ؟ قال : ترك ما لا يعنيني . وانت لم تسالي الا مرة واحدة .

شامـــل : حسن ، لا تخجلها بامثالك الفجة .

جـــلال : كلنا من ذوي الحاجات المستعصية .

جبـــار : تفضلي ، هيفاء .

هيفـــاء : من اجل خلق روح للمسرحية يجب ان يظل شبح الزوجة الهاربة يسيطر على المسرحية كلها .

خالـــد : لطيف جدا . يطارد ابطالها مثل شبح كونترفيلد .

سنـــاء : هذا اقل ما يمكن من رد الاعتبار لضياعها .

هيفـــاء : هل توافقينني على ذلك ؟

سنـــاء : كل الموافقة ... لنجعلهـــا شوكـــة في قلوبهم ، تخزهم ، تخزهم بلا رحمة .

علـــوان : يا لانتقام المرأة الشنيع !

جبـــار : المرأة تضمر وتعبىء نفسها بالبارود ، ثم تنفجـــر وتفجـــر .

جـــلال : سناء تكلمت بحرقة . كأنها هي الضائعة .

سنـــاء : نعم . انا ايضا ضائعة في تمثيلي لدور الاخت . اليس حبسي في المطبخ ، في الصفوف الخلفية ، لا أرى احدا ، ولا يراني أحد ، اليس ذلك حكما في الضياع ؟

جبـــار : يبدو ان مسرحية ضخمة في طريقها الى التكوين ، ما دام قد خلق فيها شبح . من اين لك هذه الفكرة ، يا هيفـــاء .

هيفـــاء : من اعتقادي بأن في كـــل واحد منا تقريبا شبحا يطارده . نحن مطاردون من شبح الماضي ، من خوف الفشل ، من التورط في الخطأ او الخطيئة ، من الموت قبل الاوان .. لا يوجد في الدنيا احد غير مطـــارد .

كمـــال : هذا صحيح ! لقد وقعت على حل لمشكلة الابن الاكبر . لنجعل له شبحا يطارده ، وهو الــذي يعصف بتوازنه العاطفي .

حســــن : معادلة مقبولة .

سنـــاء : وهذا الاحساس بالمطاردة مــن اين ينبع ؟ مــا مبعثــه ؟

هيفـــاء : هاجس داخلي غامض ، تراكم لاشياء ..

سنـــاء : ما هذا الهاجس الداخلي الغامض ، اذا كانــت المطاردة واضحة للعيان في اغلب الاحيان ؟

هيفـــاء : نعم ، يبلغ ثقل هذا الهاجس الداخلي على النفس حدا يجعل الانسان يتصوره واقعا حقيقيا .

سنـــاء : لا ، المطاردة واضحة ، ولا علاقة لها بالاشباح .

هيفـــاء : تعنين في المسرحية ؟

سنـــاء : اعني في الحياة .

خالـــد : دعونا من الحياة الان ... علينا بالمسرحية .

سنـــاء : الحياة مسرح ، والمسرح حياة .

جبـــار : لكن شامل يعطينا افكارا مجردة .

سنـــاء : لا يغرنكم .. انه يعطينا الواقع الحقيقي بــلا اشباح ، الواقع الدنس الحقير .. انا اصرخ في وجهه ... ابصق !

خالـــد : كفى ، يا سناء ، ستخرج المسرحية من ايدينا .. سنعرف كيف نتصرف فيما يطرح علينا من خطط وافكــار .

سنـــاء : ستجملون الواقــع ؟

جبـــار : سنصرخ في وجهه مثلك ، اذا كان دنيئا .

سنــــاء : وتتركون الزوجة ضائعة ؟
جبــــار : سنبحث عنها ، وسنجدها .
علـــوان : سنحتضنها ، ونعطيها الحـــق .. المسكينة ، المغلوبة على امرها .
سنــــاء : هذه الوصمة لها ... المسكينة ، المغلوبة علـــى امرها . ان مجرد هذا القول حكم عليها بالهزيمة في معركة الحياة . ولكنها ستثبت وجودهـــا ، كرامتها ، حقها في الحياة والمستقبل ، شخصيتها سواء أكانت في الصف الخلفي ، في المطبخ ، او في الغيب ، في دروب الخفاء . المرأة لن تخفى عن وجه الارض المباح لكل انسان حي ... لن تضيع .
حســـن : احسنت دفاعا ، يا سناء . ما ضاع صاحب حق.
هيفاء : (كالمعتذرة والمرتبكة) : انا اسفة ، اعذروني . لم اكن ادري انني أؤجج اشجانا .
علــوان : كلنا الان في صلب المسرحية . وبهذا نجح شامل. اما في البقية فقد فشـــل .
شامل : (كالمتراجع) : انا اعطيتكم موضوعا فقط .
جبــــار : واعطيتنا اناسا مدانين مذنبين . وهذا ما اخطأت فيـــه .
سنــــاء : اما نحن فنريد اناسا اقوياء ، يصمدون للشـــدة ، ويتجاوزونها مطاردين بأشباح او باناس حقيقيين .
هيفـــاء : يبدو ان كلمتي قد أغثتك .
سنــــاء : لا ، ابدا ، كنت اعي المطاردة . لم تأت بشيء جديـــد .
هيفـــاء : اية مطاردة ؟
سنــــاء : مطاردتك لشامل .
هيفـــاء : انا اطارده ؟ معقول ؟
سنــــاء : او هو الذي يطاردك . لا فرق عندي .

هيفاء : عيب عليك ، يا سناء ! اي كلام هذا ؟!
سنـــاء : أم ماذا تعتبرينها ؟ الاشتراك في تحضير امتحان واحـــد ؟
شامـــل : سناء ، ارجوك .
سنـــاء : صرت تتدخل في كل شيء لتخلق المواقف الدرامية او الهزلية !
خالـــد : لا حاجة لذلك .
علـــوان : ستفسد المسرحية الاصلية علينا .
جبـــار : صرنا نحن مسرحية .
جـــلال : لنسدل الستارة .. زادت المشاكل .
حســـن : تأتي المكاره حين تأتـــي جملة
وترى السرور يجيء في الفلتات.
كمـــال : كفى ، الى جلسة أخرى أصفى واكثر مصارحة !

ظلُ..

- ١ -

خلال كل هذه السنين الطويلة التي انقضت من عمرها لم تشعر ، ولا تريد ان تشعر بأنه قد كبر وتزوج وانجب ، وذرف على الخمسين . ما ارادت ، ولم ترد ، ولا تريد ، ولن تريد ان تعترف بذلك . كانت ، في اعماق نفسها ، تحس بأنه ما يزال لها ، مرتبطا بكامل عمرها ، بكل ذكرياتها الهنيئة قليلا ، والخائبة في اكثر الاحيان . الناس يكبرون ؛ ويتزوجون، وينجبون، وحتى يشيخون، ولكن تبقى حسرة العمر حبيسة في صدورهم الى يوم الممات . وهي حسرة العمر بالنسبة لها ، الحسرة التي لم تخمد ولن تخمد في صدرها الى الابد ، الحسرة التي كلما اطلقتها في سرها ، احست بأنها تزداد تأججا ، وبأنه سيأتي اليوم الذي تطلقها للمرة الاخيرة مع روحها الى الابد . كانت تبدو منذورة له ، او لعله كان منذورا لها . ومن اجل ذلك كان الناس ، في حبهم القديم المحافظ ، يستغفرون الله ، ويتغاضون عن اشياء كثيرة بينهما . وحتى ابوه الذي حج اخر عمره ، ربما تكفيرا عن خطيئته نحوها ، كان اذا اراد تقريعه يقول له « اليوم يدك لا تعرف كيف تمسك بالمنشار ؟ تفكر بنعيمه ؟ رح لها ! هي هناك . خاتلة لك وراء عربة عموري ! » . وكانت تراقبه حقا ، وراء أي حاجز واه ، مستسلمة للذة المباغتة، والتقاء العين بالعين . كانت مشدودة اليه بكل كيانها ، وكان هو يبدو منساقا لها . كانت تريد ان تسترضيه بكل وسيلة ، وكان لا يبدو انه يستنكر اية وسيلة تقترحها وكانت لها

ابتسامة ملعونة ، كما قال لها ذات مرة . وفي الخـرابة ، في الطابق الاول المهجور من بيت ذي طابقين كانت تتكشف له عن مفاتن جسدها في ذلك النضج المبكر . وكان يتبعها كالكلب قافزا عبر علب المعلبات الصدئة والزجاجات المهشمة وقطع الاوراق المكورة الصفراء، عبر نفايات الدنيا كلها . وهناك، كان الحائط القصي يشهد خلوتهما . كانت تريد ان تشـده اليـها ، وتلتصـق به ، وتظـل مترقبـة ومتلهفـة لشيء لـم تكـن تعرفـه علـى وجـه التحديـد ، ولكنـه لذيذ ، ويستحـق المجازفـة ، ومهـم يجعـل للنسـاء وزنا في اعين الرجال ، ولزعلهن اثر الفاجعة . وحين كان ينفر كانت لا تيأس ، وتظل على ثقتها بأنه لها ، وهي لـه على مدى الحياة . حين كانت ترقب قامتـه تمتد ، وعينيه تكتحلان بسواد لا يفحم ، وتمتلىء شفتاه بعناد كافر ... « النا » عنده « نا » ! وكانت تحبه على ذلك ، وتطيـق صمته المستطيل ، لانه كان ينتهي ببسمة الرضى . كان لا يكفر بالنعمة . وظلت هي على املها الصبور ، تغزل شرانق نظراتها المبطنة النافذة ، وتحسب انها تغازله بها . كان يكتمل امام عينيها رجولة وصبا وامتشاق قوام . وكم ودت ، عند غياب ابيه ، ان تمسح العرق المتصبب من فوق حاجبه الكثيف متقطرا على خده رغم انها كانت تخشى النظـرة المفترسة في عينيـه ، والتقطيبة الرادعـة علـى وجهه ، تخشاهما لحظة ظهورهما ، ثم تظهر لمعة الرضى وانفراج الانس والاستلطاف فتبتسم له ابتسامتها المبطنة ، وكأنها تذكره بأشياء محرمة تعرفها عنه ، اشياء مشتركة بينهما ، خلال سنين طويلة . ايحسب الان ذلك عبث اطفال ؟ ليس هناك اطفال في سن العشرين ، بل شبان يشتهون ويشتهون، على ابواب زواج . وكان الناس يظنون ان خطبتهما واقعة لا محالة ، وبعضهم كان يقول : خلوهما يتزوجان ويخلصاننا،

على الاقل سدا للافواه ، وصونا للعرض ، وقبولا بالامر الواقع . ومن كانت اكثر ملاحة منها وشطارة وقدرة وحيوية ، من بنات الحي كله ! امراة بيت ! كانت تعرف بذلك منذ صغرها . ستسعد الرجل الذي يختارها . وقد اختارها عبد الواحد ، وسيفلح ، وستنجب له البنين والبنات ، وتدير البيت . وكان عبد الواحد مستسلما لهذا اليقين ، وميالا له .. واذا ...

على غفلة لم يعد يتعامل مع ابتسامتها لا بالرضى ولا بالنظرة المفترسة والتقطيبة الرادعة ، بل كان يغض الطرف عنها ، يتركها وراء قفاه ، كأنه يتحاشاها ، او كأنه لم يرها على الاطلاق . واخيرا عرفت من النساء ان الحاج حسين « الكافر بن الكافر » اختار لابنه عبد الواحد زوجة من عائلة بائع سجاجيد ، وانه سيزف اليها قريبا . وكان الخبر تتناقله افواه النسوة كالزغردة ، وكأن ذلك نكاية وشماتة بها ، وبوالدها العجوز الذي كان قد اجر دكانه وباعه « سر قفليه » لاحد اصدقائه واعتكف في البيت ابتعادا عن كلام الناس وتقولاتهم . ولكن نعيمة — بعد نوبة البكاء الطويلة في بيتها لدى سماعها الخبر لاول مرة — مسحت دموعها او بقايا دموعها بأطراف « جرغدها » ، واحست بصفاء ذهن عجيب ، احست وكأنها عادت طفلة تتعامل مع الاشياء لاول مرة ، احست ببراءتها المفقودة تعود اليها . دقت على خشب السرير دقات قوية ، وماءت مواء قطة يريدون ان يطردوها من الركن الهادىء الذي استقرت فيه. وبعد ايام خرجت الى الناس بنفس الابتسامة المبطنة

والنظرة الغازلة ، حتى أحس الناس بالذهول ، لا سيما بعد ان سمعوا انها هنأت الحاج حسين بزواج ابنه ، بل وقيل انها باركت عبد الواحد نفسه بزواجه . وسارت الحياة كما كانت تسير ، بكثير من الضجيج والحركة ، وقليل من العجين والبركة . ولكي تثبت للناس ان عبد الواحد لم ينل منها ما لا يسترد ، تزوجت اول من تقدم اليها « السكيران بن السكران » المرحوم زوجها . لقد تقبلت زواج عبد الواحد كمزحة من مزاحاته الكثيرة ، والزواج ، على كل حال ، قسمة ونصيب ، وتبقى حسرة العمر حسرة العمر . وانجب عبد الواحد ، وانجبت هي ايضا ، ابنا ولو ولد اشرم ، وكأن ذلك تذكير لها بأن زواجها من غير عبد الواحد شذوذ . ولكن طاحونة الدنيا ظلتتطحن الطحين ، وتوزعه على الناس حسب ما « يقطع » عقلها . وانشغلت هي بهمومها اليومية المستديمة ، بتربية ابنها ، بنوبات زوجها في السكر حتى يمرض ، وفي السكر حتى يبيت على الطوى ، ويتعاقب اللّيل والنهار دون ان تعرف طعما وراحة لاي واحد منهما .. حتى نسيت جرح قلبها ، وتغاضت ، ورضيت بقسمتها ، حتى لم يعد عبد الواحد غير ندبة في القلب . وحين رأت عينيه السوداوين تتوسلان اليها ، لاول مرة ، بعد تلك القطيعة ، وقد لمحت فيهما بريقا مغلفا بالصدأ ، لا يحتاج الا الى الجلي، استيقظت كل حواسها ، وعاد اليها هوس حبها القديم ، عادت حسرة العمر تقرض قلبها ، فاستهانت بكل ما اقامته السنون من سدود ، لتسترد الامل الغامض المشوه .. على الاقل لتسترد كرامتها الجريحة .

واعدت الخلوة له ، لتذكره بماض قبر وهو حي .

ونكث عبد الواحد مرة اخرى ، وصد صدود الكذابين لا الاولياء . وجرحها اكثر من جرحه الاول لها . كانت في البداية تريده كله لها ، والان تريد ان تشمه ، ان تتنسم رائحة الماضي ، وحتى في هذه خانها ، ولكنه ايقظ لواعج المرض القديم . كأن الجرثومة التي مرضت بها قديما تمثلت لها الان شخصا كاملا يستعصي عليها . ومثل شخص مرض بهذه الجرثومة عادت اليها الروائح والطعوم الماضية نفسها ، واستيقظت الوساوس والعناد مــع المرض ، والصراع ، والمشهيات الممنوعة والتوقعات ، وكل ليل لا بد ان ينجلي عن نهار جديد لا يشترط فيه ان يحمل منغصات النهـــار الماضي وتباريحه ، لانه يحمل الاصرار علـــى المقاومة .. وكانت نعيمة تقاوم بترددها المستمر على الزقاق الذي يقع فيه دكان عبد الواحد ، وكأنها تثبت انها غير قابلة لان تقهر، وانها تستهين حتى بحسرة العمر ، حتى بالهزائم ، حتـــى بالنصيب التعيس . كانت تتعمد المرور على دكانه ، وترفع صوتها قبل ان تصل اليه ، لتقول : انا هنا ، ما يزال صوتي يشق الهواء . وكانت تكلمه كلمات قليلة عابثة ، وكأنما لتثبت له أن كل شيء لا يزعزعها ، ولا ينال منها . انها اقوى منه، فالخائن دائما ضعيف ، رغم مظاهر القوة والثبات في سلوكه. وكانت ، اذا خلا المكان ، تلقي كلمات غامضة فيه نغمـــة اطمئنان .. وتشبكه بشرنقة نظراتها . ما الذي جعلني في هذه الحال ؟ لانني احمل هموم الناس اكثر مما يحملونها هم انفسهم . كأنما نذرت قلبي للناس . هذه قسمتي !

اقبلت اليوم من الجانب الايمن من الزقاق ، وارتفـــع صوتها عند الجراخ .

ــ عيني ، مهدي ، ما شفت جعفر اليوم ؟

هز مهدي الجراخ رأسه نفيا ، وقال من وراء خماره :

ــ وهل انا سارح فيه ؟ انت تعرفين زواغيره .

ــ لو كنت اعرف لما سألتك . استاذه يبحث عنه . لم يطلع للشغل منذ يومين .

خلع الجراخ خماره ، ونظر اليهــا بعينين مبتسمتين وقــال :

ــ في ملهى ليالي الصفا تعمل فرقة راقصة يونانية . ربما رأته مصادفة فأمسكت به لتستفيد من مواهبــه على المسرح ــ ثم ضخم صوته واشار بذراعه وقال بجدبة : ــ اخبري الشرطة قبل ان يأخذوه الى اليونان !

ــ اها ! اخبر الشرطة ، كأنه ولد ضائع . لولا شرمته لكان له شارب بسمك العقال . اين الياوان هذا ؟

ــ قريب من قلعة عفج . انا لست قويا بالجغرافية . نصحتك ان تخبري الشرطة . فهم يعرفون الجغرافية احسن .

ــ ألعن أبو الجغرافية واللي سواها جغرافية . انا اريد ابني . وسأجده . ــ ورفعت صوتها ليصل الى دكان عبد الواحد ــ استطيع ان ألقي ابرة بشليف من التبــن ، فكيف بابي شرمه ؟

وتركت الجراخ قائلة بصوت اعلى :

ــ سأجده ، واجد غيره . اين يذهب عني ؟ لا احد يفلت من يدي .

وتريثت عند دكان عبد الواحد ، وقالــت بصوت لا يضمر أي ضغينة :

ــ اللهم صل على محمد ! أبو ماجد ، هذا الطقم لبيت عبد المحسن ! اذا الله ما كذبني .

ـ لهم ، يا ام جعفر ، لهم .

دائما يذكرها بابنها الاشرم ، دائما .

ـ انا خطبت لابنهم .. واحدة بنت حلال . خطبتي لا تخطىء .

ورأت في عينيه ومضة اسف، لمعت لحظة ثم اختفت تحت جفنيه الاسمرين، وكأنما خجل وخبأها عنها. وتشاءمت نعيمة وكأنه ابعدها عنه مسيرة يومين .. انه لا يريد ان يشاركها مشاعره ، ويخفي عنها ما في قلبه . تحملت ، على عادتها ، ولم ترد ان تهزم ، فوقفت في مكانها مرفوعة القامة . وجاءها الانقاذ من صبيح ، اذ قال لها مازحا :

ـ ام جعفر ، الخطبة طوق لطول العمر .

قالت صادقة مع ما في قلبها .

ـ كل شيء لطول العمر .

ـ اذن ، لماذا لا يحن قلبك علي ؟

ـ الصدق صبيح ، الصدق . هذا الذي يعوزك . .

ـ لا ، والله . بس اليد قصيرة .

وكان عبد الواحد واقفا بينهما كالصنم . العينان نصف مطبقتين ، وكأنهما تخفيان ذبولا :

ـ ابو ماجد ، هل انت مفثوث من شي ؟

فتح عبد الواحد عينيه ، وكأنه فوجىء بوخزة :

ـ لا ، أبدا .

واحس بثقل في صدره يمنعه من الاسترسال معها ، ربما هو شيء يمت الى الندم بصلة من جراء هفوة . وشملته بنظرة متفحصة ، وانتهزت فرصة ذهاب صبيح بقطمة خشب ليركنها في الجانب الاخر من الشارع الضيق :

ـــ عيناك تخبرانني بأنك لم تنم الليل .

ـــ الليل احيانا طويل .

ـــ ليل الذين يقرون ويحسبون .

ـــ وهل في الدنيا احد بدون حسبه ؟

ـــ والمحروس كيف ؟

ـــ كما هـــو .

قال بحيادية تامة ، وكأن الامر لم يعد يهمه .

ـــ ما يزال يريد المحروسة

ـــ ان شاء ما أرادها . اخر عمري راح يغلبني .

وفهمت اليأس الكامن وراء هذا السؤال . حسرة . حسرة ! شجعته :

ـــ عمرك طويل . والموت وحده يغلب الانسان ، لا تصدق ان انسانا يغلب انسانا . على الاقل مرة يغلب ومرة يخسر .

ـــ ما عدت اهتم بغلب ولا بخسارة .

ـــ لا تجر حسرة ، ابو ماجد . انا وعدتك ، ووعـــد الحر ديـــن .

ورات ومضة التفكير او الاسف تعود الى عينيه بمروقها الخاطف نفسه . ام لعلها ومضـــة حذر وتوجس ! ملامحه ما تزال قاسية متكبرة ، مثلما كانت حين غادرها وحيـدة مخذولة في بيت الخلوة ، ولكنها ، وهي الخبيرة بمـــا تنبىء الوجوه ، وجدت فيها آثار ارهـــاق وانقطاع رجاء . كأنما قضى وقتا طويلا في بحث متعب وغير مجد ، ووصل الـــى مرحلة تبرؤ من كل شيء . ربما كان صادقا حين قـــال : ما عاد يهمه غلب ولا خسارة . وانه الان يستثقل وجودها

على مقربة منه ، ويمج كلامها ، ويريد ان يغمض عينيه حتى لا يراها . ولاول مرة احست نعيمة بأنها امام رجل خمدت ناره ، وتساوى عنده كل شيء . حركت عباءتها على رأسها حركة عصبية ، ورمشت بعينيها متضايقة واهتز جسدها بشحنة قوية من المشاعر التي تهد الكيان الحي . فانصرفت مهدودة ضاغنة . ولربما ليس بين الحب والكراهية غير حد رقيق مثل حد الشفرة . وكم اجتازته نعيمة وجرحت نفسها به . ولكن يبدو ، من تلوي قسمات وجهها ، انها تجتازه الان ، لاخر مرة ...

وانصرف عبد الواحد الى اشغاله بعد ذهابها ، ولم يفكر فيها ، ولا في شيء مما قالته .

لم تعد تعنيه كثيرا . عادت الى حجمها الطبيعي كما كانت . انه على وشك الاستغناء عن مساعدتها . لقد كذب عليها . ما يزال يبحث ، ويعنيه امر كنته كثير العناء . لكنه وجد دربا جديدا يدله على الهاربة ، اسلم واجلب للستر ، واقرب الى نيل المراد . كان عبد الواحد قد تعود ان يخرج كل اسبوع او عشرة ايام في سيارته ليتسوق من خارج بغداد ، في المسيب ، او الحلة ، ويشتري لحما ودهنا وبيضا ودجاجات وخضروات . فان ذلك ارخص مما في بغداد ، واكثر طزاجة . وذات مرة التقى امرأة كانت تبيع بيضا ودجاجا . ماحكها على السعر . قالت :

— اشتري الدجاجة بربع دينار مستقبلة العربيات من خارج البلدة من مسافة لا يقطعها خيال ، فكيف ابيعها لك بثلثمائة فلس ؟

ضحك عبد الواحد ، وقال :

— تعجبني صراحتك . لهجتك بغدادية .

ـ قضيت عمري في بغداد . اسمع . انا اعرفك . ألست عبد الحميد النجار ؟

ـ عبد الواحد .

ـ ابنك تزوج بنتا من عندنا .

ـ من عندكم ؟

ـ يعني ، بنت المرحوم ... أوي ... نسيت . عمتها زكية . الظهر واحد .

وضع عبد الواحد الدجاجتين اللتين كان يزنهما بيديه. وسأل :

ـ الله يرحم والديك ، اين زكية الان ؟ ألم تريها ؟

ـ لا ، لم ارها .. بل رايت حسيبة .. ولكن من زمان ..

ـ حسيبة ؟ اين رايتها ؟

ومن الانشداد والدهشة اللذين تفجر بهما سؤال عبد الواحد خشيت المراة عاقبة فلتة اللسان .. قالت :

ـ اظن انني ـ رايتها هنا ، في المسيب .. لا اعرف بالضبط .. ربما جاءت مع زوجها للتسواق .

وتسمر عبد الواحد ، وتقلص حلقومه ، او ربما نمت فيه عظمة . لقد تصور هو الاخر انه ، اذا استرسل في السؤال ، فانه سيسمع ما لا يليق . عاد يسأل عن اخر سعر تقبله للدجاجتين . فقالت :

ـ يا ابو فلان ، لماذا يحاسب الذين يملكون على الفلس والفلسين ؟ من يعطيه الله لا يبخل به على المحتاجين.

ـ لم يعطنا الله ، ونحن قاعدون في بيوتنا ! اعطانا ، والعرق يتصبب من الجبين .

ـ ونحن لا نتعب ؟

ورأى عبد الواحد ان مراس هذه المرأة صعب . تساهل معها . ضحك في مصالحة . واعطاها ما ارضاها . وتوقف لحظات ينظر اليها من فوق . رأس معصوب بعصابة سوداء ، وشعرات بيض تبرز من زلفيها ، ووجه ينم عن مجاهدة ورصانة ، وعينان سمحتان مشغولتان بالتنقل بين الدجاجات النائمات ، والمارين والواقفين على الرؤوس ؛ ولا شغل اخر لهما .

سألها بخفوت صوت :

ـ وكانت وحدها ؟

ـ من ؟

ـ حسيبة ؟.

ـ قلت لك رأيتها . صدفة ، ولم اتحدث اليها كثيرا . اظن انها كانت تبحث عن صديقة لها قديمة تدعى سعدية تشتغل في معمل الحرير قرب السدة .

والتمع في ذهنه هاجس مفاجىء منقذ ، هتف له بأنها تشتغل هناك . واصيب بذهول خفيف ، وكأنما التقاها وجها لوجه دون ان يهيىء نفسه لذلك . ولم يثقل على المرأة بالاسئلة ، بل قال لها مستبشرا بعلاقة تمينه في مسعاه الخفي :

ـ شكرا ، أم فلان . صرنا معاميل .

تمتمت بكلام خاطف ، لان احد المشترين وقف فوق رأسها يسألها عن ثمن البيض . وانسل عبد الواحد كالمختطف شيئا ، لائذا بمفتاح السر . وفي السيارة سأل نفسه : هل يذهب الى سدة الهندية رأسا ، فيعيدها مع

مشترياته من الدجاج والخضراوات والدهن الحر ؟ واحس بقلبه يدمدم ، وبأنفاسه تتلاحق ، وكأنه يحمل ثقلا مرهقا . انها هنا ، اذن . لا بد ان يعود الانسان الى اصله ، ويختفي في الخيمة التي خرج منها . وكم شقي وتعب واشتاق لان يجدها ! ولكن طيف نقمته القديمة عاد يتذبذب امام خياله ، ايام كان يقول : زرعنا في حديقتنا شجرة عقيمة . لا نسل ، ولا ذرية ! وضرب عبد الواحد على دفة سيارته ، وضغط على المنبه ليمنع راكب حمار من ان يتوسط الجادة . فارس مغوار ! انها تشتغل في المعمل ، اذن . عافت البيت لتشتغل عاملة ، تغزل الحرير بدلا من ان تلبسه ، تأكل من عــرق الجبين ، بعد ان كانت فضيلة تطعمها من فاخر الزاد ، لا تريد منا ، ولا شكورا . وزفر عبد الواحد ، وشعر براحة غامضة تسري في طيات صدره . ربما ، لانه سيجدهـــا ، ويحاسبها على العقوق ، يجدها دون ان يضطر الى التضرع الى بشر ، دون ان يدخل في مساومات . وبرز في خياله وجه نعيمة البيضوي ، وطرده من خياله بتلويحة من ذراعــه ، وكأنه يطرد ذبابة . واحس بأنه قد خرج نهائيا من شرنقتها . وسيعود الى سابق حياته . لا قلق ، ولا محارم ، ولا نبش لماض ممسوح من الذاكرة ، ومطمور تحت طبقات من الهموم والكدح والمعاناة ، الافراح والاتراح . وزفر عبد الواحد مرة اخرى مستجيبا لصفاء هب على قلبه مثل نسمة باردة هبت من بطن ليل صيفي وغر ، وتألق ذهنه حتـــى سامح حسيبة على رعونتها وعقوقها . ستعود الى البيت بدون كثير عناء ، سيقول الناس : انها عادت من نفسها . الكبار يخطئون احيانا فكيف بالصغار ، وعرفت قيمة دفء البيت ،

بعد ان ذاقت وحشة الضياع . وسيعود البيت الى سابق طمأنينته وهدوئه ، ايام كان اهله يلتفون حول التلفزيون ، ويضحك فاضل ملء فمه ، ويناغي حسيبة ، وهي قابعة جنب فضيلة على الزولية المفروشة على الارض . وبعد ذلك يصعد الزوجان الى فوق . وتهللت اسارير عبد الواحد، وكأنه راى ذلك راي العيان ، ومسحته نفحة خفيفة واسيفة من الفرح والجون وربما الغيرة ايضا ، حين قال لنفسه . لكن هذا الصعود كل ليلة في ساعة مبكرة ... تثاؤب مفتعل ، ثم نهوض !

وجد عبد الواحد نفسه متجها الى بغداد ، مخلفا سدة الهندية وطويريج وراءه ، والمرأة التي باعت له الدجاجتين ، وزكية ، وحسيبة العاملة في معمل الحرير . كان منطلقا الى بيته في بغداد ، ويتهيأ في اليوم المقبل الى سفرته الحاسمة.

ضغط على منبه السيارة ، وانتظر لتفتح له ابنته الباب . وتثاءب تعبا ، وقد اهدت السفرة لعينيه سنة من نعاس . اغمض عينيه ، واراد ان ينكب بوجهه على دفة القيادة ، ويسترخي . تعب وخدر في المفاصل ، ورغبة طاغية للاسترخاء ، الا انه تنبه بقوة لاواعية فاجأته ، وكأنما خشى بالفعل ان يغفو في السيارة . فتح الباب بنفسه ، وساق السيارة الى الدهليز الذي ما زال خشبه ابيض مع سمرة خفيفة من تلويح الشمس . ثم راى فضيلة تبرز من الباب في ثوب زاه لم يرها لابسة اياه من قبل . وسمع لغطا عند فتحها الباب . بادرها :

ــ عندك قبول ، ان شاء الله ؟

اشرق وجهها كله بابتسامة ، وقالت :

ــ نعم عيــد ميلاد ! يعني وحدي أظل من غير عيد ميلاد ؟ كل الناس عندهم . وضحكت فرحة كاشفــة عن اسنانها كلها ، ولسانها . وابتسم عبد الواحد ابتسامة من خلال جهد عاجز ، فقد كان يعرف ان ابنته لا توفر لنفسها هذه النعمة : اقامة قبول لعيد ميلادها ! ولكنه ، في الضوء الشاحب ، راى لمعة الهناءة في عينيها الصافيتين ، وكأنهـا مقبلة على امر عظيم يحدد مستقبلها ، فقال في سره : لو كان عرسها لما كانت بمثل هذه السعادة . وحدس الوضــع ، وهو يسمع الاصوات النسائية تتسرب اليــه عبر البــاب المفتوح . اصوات غضة قوية ، منبعثة من صدور لا يثقلها هم ، وحنجرات لا تتحشرج فيها عبرة من ندامة وضيــق . اصوات كان يسمعها كثيرا في حيه القديم ، حيــث تختلط الاصوات ، وتتمازج الانفاس ، في صيحة واحدة متعــددة الترانيم ، كأنها خارجة من صدر يضم قلوبا كثيرة . وتيقن من حدسه . لا بد ان فضيلة تنشــد زوجة جديــدة لاخيها فاضل . وخامره غم خفيف . وقال لنفسه : انها استقرت على راي ، وليست مثلي الوب لوب الغريق في بحر الحيرة والوسواس . ترى ، ماذا ستقول لو عرفت بما عرفتــه اليوم ؟ هل ستكف عن قبولها هذا ؟ واحس بنفسه موزعا بين قرارين : قرارها الثابت هذا ، وقــراره اللاهث وراء المجهول . وتضخم غمه ، وكأنه خسر في لعبة مخجلة . وسأل نفسه : ايهما اسهل عليه ؟ ان تأتي حسيبة ام يقنع فاضل بزوجة اخرى ، بعد ان تعتبر الاولى مفقودة ؟ وضبط نفسه يميل الى القرار الاول ، ولو كانت له منغصاته ... ثمنه الذي لا يعرف له حدا ، ذلك لان مجيء حسيبة هو رد الامور

الى سوابقها ، التدثر بالدثار المعروف : الستر ! كان يؤمن بالمثل القائل : لا تكشف عورتك للناس ! لا تدع الاخـــرين يتفرجون على كرعتك ! واذا كان فاضل عقيما ـــ أوه ، كم ينغصه هذا الشرط المحرج ! ـــ فـــلا حاجة لاثباته بدليل اخر ، بتجربة اخرى . لا تفضح واقع ابنك ، ايها العجوز! يجب ان تستسلم للقدر ، ولا تكشف المأساة بكل ابعادها ، ولا تتلامس مع جيل الفضائح ، جيل الفتنة . ذلك جيلهم . اما جيلك فمكتوم ، يعيش داخل نفسه ، يلعنها اذا اتت سوءا ، ولكن لا يفضحها امام الناس !

انسل عبد الواحد عبر باب الحديقة ، بعد ان اغلقه خلفه . واخر ما رآه كان وهج الثوب الحريري الذي تتألق فيه فضيلة ، وهي تقف كالشمعـــة قرب البـــاب ، والمواد الغذائية قربها لا تعيرها اهتماما ، مستسلمة لشيء غريب وملهم ، مشرقة النفس بالرضى .

كانت فضيلة في اليوم الماضي قد ذهبت الى حيها القديم، ودخلت بيوتا ، وجمعت كل من تعرفهن من المؤهلات للزواج، قائلة في ابتسامة تملأ وجهها كله :

ـــ المناسبة ؟ عيد ميلادي ! يعني حرام احتفل بعيـــد ميـــلادي ؟

ومع الاصيل توافدن عليها . كان الشاي قد هيء ، ومع الكعك والكيك والتفاح والحب بنوعيه الابيض الشجري والاحمر البطيخي . كانت كل واحدة زهرة زاهية مقبلة على مغامرة مع القدر ، لا تعرف ما يخبـــىء لها ، ولا تريـــد ان تعرف . فقط ان ترسل نفسها معه في لعبة مازحة ، لا تملك عليه رفضا ولا اعتراضا . واسكرتهن الضيافة الممتـــازة ، والهواء الساري من ارض خضراء خالية ، واصوات سيارات

منطلقة ممراحة الضجة في الشارع الكبير ، فأردن ان يأتين بأمر يناسب المقام ، ضحكة مجلجلة ، اغنية ، تورد خدين بعد جملة متوهجة ، امتداح اهل البيت . وبعد التلهفات الاولى ، وافضاء ما في الصدور من شجون الحديث ، عدن الى اخبار الزيجات والمواليد والوفيات :

ـ سنية بنت حسون تزوجت شرطيا .

ـ اها ! من اين جاءها هذا الشرطي ؟

ـ شرطي ، ولكن متعلم ، انهى الصف الخامس . لم تعد شرطتنا من العمارة فقط .

ـ أتدرين ؟ سيهدم هادي بيته ، ويبني فندقا .

ـ ومن سينزل في هذا الفندق وسط الخرابة ؟ وكيف سيصل الناس اليه ؟

ـ امانة العاصمة تكلفت بفتح خط لغاية الدربونة .

ـ بس مو بالسيارات .

ـ ما ادري ... يمكن على مطايا .

ـ فخرية ترقت ! صارت تتسوق من بيروت .

ـ وكيلة معتمدة لسوق صرصر او ما اعرف اسمه ، مثل سوق الشورجة بغير تشابيه .

ـ ابنها في الكلية ... يبيع مرطبات .

ـ وابنتها مخطوبة لعرضحالجي قرب القصر الابيض .

ـ لا ، ابدا .. الناس تحب تحكي . بعدها مرمية مثلنا .

ـ وهل نحن مرميات ؟ والله لاطلع سفورا ، واسبي الناس سبيا .

ـ سميحة دخلت مدرسة الامية ...

ـــ صار لها ثلاث سنوات بصف الاول .

ـــ راح تنمحى محوا .

ـــ كل يوم اسمع ابنة وفية تعلمها باب ، بابان .. كأن الابواب قحط .

امتلأت البطون بالشاي وبطوفان الكمك وكرز الحب، فخلدن الى ارتخاء ممل ، متوقعات الشيء الغامض الذي حدسن ، بغريزتهن ، انه سيعقب كل هذه التوقيعات على آلات موسيقية منفردة . ولكن لا شيء . واحست فضيلة بالاضطراب ايضا ، لم تنضب مثلهن ، بل توهجت وقلقت ، واكثرت من الالتفات ، وكل حواسها على الباب . وكانت قد تركته مفتوحا ليدخل فاضل ، ويرى الشموع تتوقد له ، في غرفة التلفزيون ، فيختار منهن من يشاء . الم تخلب حسيبة لبه في مثل هذا اللقاء العابر ؟ دخلت عليه بصينية تحمل اقداح الشاي ؟

وكان فاضل في مكان اخر لا يدري ما يدبر له . كان قد اتخذ مجلسه مع صديقه عباس في عنق السينما الصيفية المهجورة ، وبينهما صندوق مقلوب ، وعدة انعاش الذكريات وتفريخ الاحلام . وكان عباس قد نفخ من خدين ممتلئين ، وزفر زفرة طويلة فيها رائحة مستكى . ونظر الى عنق السينما المظلم نظرة طويلة ، وكأنه يراقب الملائكة تلعب « السنبيلة » فيه ، او كأنه يتوقع ان ينحدر منه والد هذا الصبي الكبير . مثلما انحدر ذات مساء ، ولامه على عشرة السوء ، وطعنه بمدية غير مرئية . وكان صدر عباس قد امتلأ او ضاق من تلك الاحاديث العاطفية المتكررة المبتذلة . مثل نوح ثكلى خرساء .

نظر فاضل الى تلك الكرة السوداء التي هـــي رأس صاحبـــه وقـــال :

ـ ها ؟ كلامي لم يعد يعجبك .

استدارت الكرة السوداء ، وظهرت على جانبها الاخر ملامح وجه انساني مكفهر . وقال :

ـ اسائل نفسي احيانا : الـــى متـــى ستستمـــر هذه الحـــال ؟

ـ الى اخر العمر .. الى ان ألتقي بحسيبة .

ـ ألا التفت مرة فيما حولك ؟

ـ ماذا حولي ؟.. فراغ !

ـ لا، بل تعاسة. ألم تفكر مرة في الجحر الذي نعمل فيه ؟ بين القاذورات والنفايات نقبع كالجرذان ، وصاحب العمل يطل علينا في نظارته اللامعة كالديك المستعد للعراك.

ـ تفكيري لا يجدي شيئا .

ـ وماذا يجدي تفكيرك في زوجتك ؟ ليت لك ربع ذلك الاصرار في البحث عن مخرج . ليتك التفت الى الواقع العام، وتحسست المعاناة ولو قدر ربع معاناتك من هروب زوجتك. فالنقمة نصف الشجاعـــة .

ـ لو كنت اعرف ممن انتقم

ـ المهم ان تحس بالنقمة ، وستعرف ممـــن تنتقم . شعورك بالامتعاض والظلم والقسوة يغذي فيك التطلع الى حال أحســـن .

ـ ولكنني ناقـــم .

ـ انت لا تنقم ، بل تنوح . وهناك فرق كبير بين النقمة

والنواح . انت توجه الطعنة لنفسك ، وتغرق حياتك بالدموع .

واحس فاضل بتعاسة صلبة غامضة ، تعاسة من يمسكه شخص غريب من مخانقه ، ويذله اذلالا لا يناسب الهفوة التي ارتكبها ، قال في دفاع يائس :

— لا ادري ، لا ادري ماذا افعل .

— ستدري اذا عدت الى صوابك ، وفكرت فيما انت فيه .

— وهل تحسبني لا افكر ؟ كلما اضع راسي على المخدة تراودني افكار سوداء ، فأريد ان اصرخ ، ان أبكي.

فأشفق عباس على هذا الصبي الكبير الذي يستخدم كلمات عاجزة . فأراد ان يرتفع بآلامه ، قال :

— أتعرف ؟ احيانا اتصور ان زوجتك الهاربة هي ضميرك المعذب .

— بالضبط ، ضميري المعذب .

— والنواح العاجز يزيد من عذابك . يجب ان ترتفع عن ذلك .

لم يفهم فاضل جملته الاخيرة . قال بدون رابطة :

— أتعرف ؟ انني بصراحة لا تهمني الان عودتها ، بقدر ما يهمني مصيرها . اين هي الان ؟ انها من طبقة كادحة مثلي . . فلو كنت اعرف ماذا حل الدهر بها ، ماذا جرى لها . بصراحة ، ربما لم تكن تحبني ، لا أدري . فلو كنت اعرف اين هي الان ؟ جائعة ، ام شبعى ، مستقرة ام متشردة ، حية ام ميتة ، لارتاح ضميري .

ــ التماسك ، التماسك ، وستعرف . تخل عن التفجع .

ــ سأتخلى عنه منذ الليلة ــ وأبعد يده عن الكأس التي كان يهم ان يمسك بها ــ سأمسح الدموع من عيني ... ها .. اها !

وبدا ارعن في هذه الحركة أيضا . ولكن عباس تبسم من هذه الحركة التمثيلية . قال سريع الكلام :

ــ لنترك اثارة الشجون ، ولنذهب الى مكان ما .

ــ الى اين ؟

ــ الى جنة او جهنم .. اقصد الى ملهى .

ــ الى ملهى ؟

ــ نعم ، ولم لا ؟ نستطيع ان ننسل انسلالا ، ونتفرج كيف يكرز الناس الفلوس ، وكأنهم يكرزون حبا .

وبعد ان افرغا كأسيهما في جوفيهما ذهبا الى السعدون . كان باب الملهى محروسا بشرطي وانضباط عسكري . وكان الناس يدخلون اليه مرفوعي الايدي ، وكأنهم يستسلمون للشياطين الزاعقة في الداخل . في الدهليز شبه المظلم كان الليل يمد رواقه الى المسرح الملون بأضواء زاعقة فيبدو مثل صندوق مسمر بمسامير حمراء وخضراء وصفراء . والارض هشة تحت الاقدام المرتخية . وعندما وصلا الى القاعة المكشوفة كانت تعتلي المسرح امرأة تكشف عن نصف صدرها الشبيه بحجارة هائلة ، وثوبها ينشق بين الساقين . كانت تغني نائحة من حنجرة تتحمل اكثر من طاقتها . تعودت عيونهما على المصابيح الخافتة ، فرأيا الموائد عامرة بالمعقلين والحاسرين ، بذوي العباءات واربطة العنق . قال عباس :

ــ هل رايت في حياتك مثل هذا المهرجان ؟

ــ الفلوس تحكــم .

ــ الان ترى بعينيك كيف عاد الشيوخ الى عروشهم السابقــة .

همس فاضــل :

ــ بلا ضمير معذب .

ــ انظر الى ذلك الشيخ المعقل كيف يحتضن فتــاة احنبية . مثل ابنته .

ــ الشيوخ مغرمون باللحم الابيض .

ــ اتعرف ان استاذي السابق ، ارسلني بعــد الثورة بأربعة ايام الى اوتيل ريجنت لاصلح بعض الدواليب . وفي الحادية عشرة صباحا كنت اراهن في حجراتهن المفتوحــة الابواب عاريات ربي كما خلقتني ، بسبب حر تموز الجهنمي.

سكت فاضل ، كان ينقل بصره بين الموائد .

ــ ذلك السمين سيخنق البنت الصغيرة تلك .

ــ هن متعودات على العصر .

ــ جعلها تجرع الكأس كله .

ــ تذكــرت . كانت زجــاجات البيرة تســد عتبات، حجراتهن في ريجنت مثل القنابل .

ــ أوه ، سيخنقها .

ــ لا تقلق . انهن متعودات علــى هــذه الملاطفات الخشنة وراءها فلوس .

ــ يده تلتف على خصرها كالحية ، والاخرى اين ؟

ــ لا يهمك .

ــ كيف لا يهمني ؟

ـ كل انسان على قدر فلوسه .

احتدم الرقص على المسرح . رقصة غريبة . ما اكثر البنات ! يتناوبن على المسرح بلا انقطاع . لكل راقصة جمهورها . راقصات سمراوات ، راقصات بيضاوات ، راقصات سوداوات . صغيرات ، ومتوسطات العمر ، وشائخات تقريبا . من مختلف الحجوم والالوان . عانتق ، حسب ما تشتهي . فقط ان تكون لديك فلوس . كل انسان على قدر فلوسه . العن ابو الفلوس . واجال فاضل بصره في النساء المعروضات ، وبدأ عملية صعبة في ذهنه ، او هي التي بدأت تتمثل في رأسه . نضا عنهن ملابسهن الخليعة ، والبسهن ملابس محتشمة . وبدا الشبه صارخا مع تلك التي تملأ خياله . ماذا كانت هنا حقا ، بين هذا الحشد الصارخ الهائج المحتدم الاعماق بالشهوة ، والممتلىء الجيوب بالدنانير ؟ في هذا الماخور الملطخ بالاضواء القبيحة الغابية ؟ وبدأ فاضل يحس بوجودها ، وكأنها تقترب منه ، طالعة من سدف غير مرئية ، متخطية الموائد اليه ، مادة ذراعيها نحوه ، مستغيثة ، مستنجدة .. سيمسكها ذلك الشيخ من يدها ، ويجذبها اليه ، ويجلسها على ركبتيه ، ويفعل بها ما يشاء .. اواه ! وتململ فاضل ، وأمسك رأسه بيديه ، وكأنما يخاف عليه من الانفجار . كانت الاصوات تتضخم في اذنيه ، وتتحول الى ما يشبه الصراخ ، الاستغاثة ، طلب الرحمة . وتصور انه يجب ان يأتي بحركة ، يتراجع او يهجم ، ان يمسك بشيء يوشك ان يفلت منه . وجفل من ضحكة عباس المفاجئة ، وسرت قشعريرة في ظهره . التفت

فراى عباس ملطخ الوجه بمساحيق الاضواء السيالة كبصاق ملوث .. تقزز ، ادار وجهه ، وقال في زهق :

ـ انا ذاهـــب .

ـ الـــى اين ؟

ـ ساختنق ، لا يوجد هواء هنا . يوجد بخار .

ولم يصطبر حتى يخلص صديقه نفسه من الزحـــام . عجنت قدماه ظلام الدهليز ، وكانما تغوص في فراغ هش . واستقبل الشارع كما يستقبل غريق نشقة الهواء الاولى . كانت الرؤى تطارده مثل قطيع من الذئاب الوحشية ، واذناه ممتلئتين بزعيق يتعقبه كنباح كـــلاب .

ظل يضرب بقدميه في شوارع مظلمة متربة تحف بها بيوت منغلقة على نفسها . وكانت سورة الخمرة قد خفت ، ولم تبق غير المرارة العتيقة ، والانسحاق المتخلف من منطقة نائية من نفسه ، الانسحاق من انه اتى امرا منكرا ، اشترك في لعبة خبيثة لا وجدانية ، وكان يشعر بثقل في صـــدره ، وارتخاء في ركبتيه . ود لو كان الان في غرفته الصغيرة ، في الطابق الثاني ، مع الاطياف وذكريات حسيبة ، والامل في انبثاق فجر جديد ، وكان يتصور ان اهله نائمون الان . وكان اكثر ما يخشاه ان يجد اباه متيقظا ، ينتظره . وجوبه بالباب مفتوحا ، والاضواء متالقة في غرفة التلفزيون ، وكأن حسيبة قد عادت ، أو لم تهرب البتة ، بل كان كل ذلـــك اضغاث احلام . ولكنه فوجيء بضحكات نسائية ، واصوات يقاطع بعضها بعضا . وعن له ، اول ما عن ، ان شيئا جديدا قد طرأ على البيت . واقتنع تقريبا بأن حسيبة قد عادت ، وانهم ساهرون ليزفوا له البشارة . طافت عيناه بوجوه نضـــرة متالقة غريبة ، ابتسمت له ، وكأنما سخرية من خيبة ظنه .

وكان حمرة الخجل او الخيبة القوية لونــت الوجوه بلون قرمــزي غامــق . فكانت تشبــه الطلاء الاحمــر الذي رآه بكثــرة قبــل حين ، فــي الملهــى ، حيــث تعــرض الاجساد لقاء دنانير . وادلهم وجهه ، حين لم يجد الوجه الحبيب بينها ، وكاد يتعثر حين طلعت فضيلة من بين البنات قائلة بصوت متهلل طافح ببشر عصبي .

ــ مالك مستعجلا ؟ لا احد غريب بيننا . كلهن من بنات الطرف .

جابه ابتسامتها العريضة بتجهيمة قاتلة ، وناح مــع نفســه :

ــ انت مثل عباس ، تريدين انتبعديها عني .

وعافها ، وهرع الى غرفته في الطابق الثاني ، الــى غرفتهما ، الى مخدع عرسهما ، مخلى المناغاة والمساررة . وعندما انطرح على سريره بكامل ملابســه ، وزفر زفــرة عميقة ، احس بأن الخمرة تزايله نهائيا ، وتخلــف طعما ماسخا في فمه ، ووجعا واخزا في ركبتيه . ارتخى واضعا يديه المشبوكتين تحت يافوخه ، واحتوته تلــك الرائحــة الغريبة التي كانت تنبعث من اعماق سعير نفسه ، رائحتها الخاصة ، نكهتها . كان يشمها كلما خلا الى نفسه . كانت تحضره ، تسوره ، تلتف حوله كالوشاح الناعم الشفــاف . استسلم لالفتها الطاغية ، وكأنما قضى حياته كلها في صحبة تلك الرائحة . وحاول ان يتذكر حياته الماضية . لا شيء يستحق الذكر .. فراغ .. بدأت حياته بليلة عرســه ، ليلة جرح فيها يده . الدم انبثق منه ومنها . وعادت الــى ذاكرته تلك الليلة . هي متشبثة برمانة السرير ، وهو جالس في الطرف الثاني . كان ثوبها الحريري يلمــع في الضــوء الخافت ، مصباح النوم المريح للاعصاب .. خطان ابيضان على فخذيها ، كرتان لؤلؤيتان على نهديها ، التماع علــى

زندها . فاكهة مشتهاة . الليل له صولته ، واصوات اهله تترامى « ما هذا التطويل ؟ شباب هذا الوقت ! » وصوت ابيه الماجن « خمس دقائق ما طالت عندي ! » . واخـــرج السكين ، وغرزها فوق المعصم . اذا كان الدم ما يبتغون، فليكن الدم ! لا باس ! كوني مطمئنة ! وقعت على بياض ؟ وسأوقع الى يوم القيامة . توقيع وراء توقيع . تفضلوا هذا هو الدم الذي تريدون . واسبل ردن الدشداشة على رسغه المضمـــد .

وبعد تلك الليلة صارت حياته شيئا اخر ، طعمـــا اخر . صار مرتبطا . من قبل لم يشعر بأنه مرتبط بشيء ، ولا بأحد . حتى الاهة التي كانت فضيلة تطلقها حين يتمشى خارج البيت ، كان يحس بها اسفا على جهد ضائع اكثر مما هي حنية . اما بعد زواجه ، صيرورته الثانية ، فقد أحس، لاول مرة بأنه مرتبط بكائن حي ، ينتظره ، ويقاسمه الرغيف والسرير ، ويخضع للمسات اصابعه . وعندما ينتهي من يوم عمل لاغب يحس بأنه هو الماوى والملاذ ، المغطس الـــذي يزيل عنه غبار التعب ، وتتنشق انفاس الراحة . زوجته هي رجولته ، المعلنة عن نفسها ، الحقيقة ، المستديمة . رجولة ؟ وارتدت اليه هواجسه . هل من الرجولة ان لا تنجب ؟ تضاجع كل ليلة ولا تنجب ؟ ولكن هل من المؤكد ان الذنب يقع عليها ؟ ربما هـــو المذنب ، صاحـــب الجولات الفارغة ، والبذر الذي لا ينبت . ربما كذب الاطباء عليه ، وواسوه مواساة كاذبة لقاء دراهـــم تقاضوهـــا . داروا رجولته المنهارة ، واحساسه بالذنب . كان يذهب اليهـــم

كالمستغيث ، متخضعا متشبثا كأنه يملي عليهم نتائج فحوصهم . ربما رأوا رجلا مسكينا على وشك الانهيار فأشفقوا عليه ، وخشوا من العاقبة . بينما كانت هي تقول انها مستعدة لان تكشف عن نفسها . ولكن اليس عارا ان تكشف امراة عن نفسها امام شخص غريب ، ولو كانت طبيبة ؟ من هو العاقر ، هي ام هو ؟ ثم اليس هروبها هو الاثبات بعينه ؟

كان يحس وكأنه يملك طير الجنة الذي رآه في احد الافلام القديمة ، وهو صغير . كان مسؤولا عنه ، يغذيه ، ويدفئه ، ويداعبه . كان يمتلكه . كان عندما يستيقظ ، احيانا ، في بعض الليالي ، ليشرب ماء ، كان ينظر الى تلك النائمة الى جنبه ، ويقول : كلها لي ! وكان يسند راسه على يده المرفوعة على المرفق ، ويتأملها نائمة نوما هانئا ، ملكا حلالا له ، فيحس بأنه يتحمل مسؤوليتها . وهذه المسؤولية تشعره بالثبات ، وبديمومة الحياة . تتعاقب الايام بالثقل والاصرار نفسهما ، ويتجدد كل صباح ، ويولد الامل من المستحيل . كان في قرارة نفسه يأمل .. ربما هذه غفوة جسد ، ضعف عابر ، وسيأتي يوم تسر فيه النبأ العظيم . وكان ينتظر ، والايام تمر . نهار ملغوم بالتعب ، وليل من الاسترخاء اللذيذ ، وصباح جديد . لولا تلك العنعنات الناخرة التي تجري خارج ارادته ، اثناء غيابه ، ولولا تلك الاشارات الواخزة النافذة الى القلب كالابر السامة .. لولا ذلك النعيق المشؤوم .. لولا تلك الصفعات التي القتها ، اخيرا ، خارج البيت .

وحنق فاضل ، وفي تلـــك الليلة الساهـــدة تعاورته شياطين النقمـــة .

واحس ابوه بتغير سلوكه التام : صومه عن الطعام ، انقطاعه عن المجيء الى البيت ، نوبات سكره العابثة التي لم تعد تحفل بمهابة اب ، ولا التياع أم ، ولا انتحاب أخت . وعاد عبد الواحد الى جولاته خارج بغداد ، يطرق ابـــواب المعامل ، يتسكع امام باعة الاطعمة . يتلفت في الوجوه . وصار الباعة يعرفونه ، ولا يتحمسون لظهوره كثيراً ، لانه لم يكن يقبل عليهم اقبال مشتر ، بل كالباحث عن شيء لا يعرفون ما هو ، ولكنه بالتأكيد ليس البضائع التي يتداولونها. وعثر على سعدية اخيرا ، وسألها عن حسيبة . ارتسم الرعب والشك في عيني الفتاة ، ورددت : « لا ادري ، لا ادري . جاءت مرة ، ثم اختفت . انها عندكم في بغداد » .

وبغداد تتكور امامه كالطلسم ، ومنافذه فيها قليلة ، وكم احس بالفرج ، حين اسرت اليه ام جعفر ذات مرة :

ــ وجدتها ! الم اقل لك انني ساجدها ؟

ونظر الى عينيها . في نظراتهما المبطنة تواطؤ وزلق لا يجعلك تمسك منها بفكرة محددة . دنا منها ملقيا الخشبة التي كانت في يده .

ــ اين هـــي ؟

واحس بأن حنكها يختلج ، وكأن حسيبة قريبة منه ، وراءه ، ما ان يلتفت حتى يراها . وقد تلفت بالفعل .

ــ لا تستعجل ، ابلع ريقك !

واوجس بأنها تضمر شيئا على عادتها ، تطالبه بثمن.

ولم يكن في مثل حصانته الاولى . كان البحث قد اضناه ، والطرق قد سدت في وجهه ، بينما ازداد شعوره بثقل مسؤوليته ازاء عذاب ابنه . تمتم :

ــ لن انسى معروفك . ستسعدين بيتا كاملا .

تأوهت :

ــ السعادة ؟ ايه ! السعادة !

ــ السعادة في راحة البال ، واطمئنان الضمير .

ــ ليتها تمسك باليد ، مثلما ستمسك حسيبة بيدك .

ولاذ بالصمت . شعر بأنه محرج ومهزوم امامها . مقاليده بيدها . وهي تتشبث بالقشة . لا تريد ان تهب راحة البال الا لتوقر الضمير بعذاب أشد . وقف الماضي امامها كمفازة يستحيل اجتيازها . وبدا وكأن لفح الريح جفف حلقيمها ، فأطرق هو منكثا على الخشبة التي ألقاها من يده ، شاعرا بأن نظراتها تسبره ، وتخزه كالدبابيس . وكان في صمته اعتذار وعجز ودعوة خافتة الى المسامحة والغفران . واخرجته من تهيامه سائلة :

ــ هل تعرف محلات بغداد الجديدة ؟

ــ سأسأل ، اذا لا اعرف .

وخفضت صوتها على طريقتها التآمرية الهامسة ، واطالت وصف العنوان بصوت كالفحيح . وتركته على عجل، مخلفة وراءها كلمة « موفق » لا هي لليسر ولا هي للعسر ، خافتة الصدى ، باهتة المعنى ، ثقيلة الوقع ، مثل زفرة من فم غير نظيف . ولما خلا الى نفسه قال في سره : « لا بد ان حسيبة تعمل خادمة في ذلك البيت ، والا فما الذي ألقى بها في تلك الاحياء الجديدة الغامضة ، المترفة بالتأكيد ؟ .

وعاد ينحي باللائمة على نفسه ، قائلا لها : انا اتحمل جزءا من الذنب ، ولكن كنت اريد الخير . اوه ، لا ينفع الندم الان . يجب ان اذهب اليها .

واغلق دكانه عند العصر ، قبل الوقت المحدد للاغلاق، متعللا بأنه يريد الذهاب الى زبون في بيته . وكان قد تعود أن يخترق شوارع الاحياء الجديدة في سيارته « البيك آب » مفتشا عن بيوت جديدة بلا عناوين واضحة ، ليصنع لهذه ابوابا ، ولتلك شبابيك ، وليأخذ مقاييس الاثاث الذي يصنعه لاهل البيت الجديد . كان آنئذ يبحث ، ويسأل بطمأنينة وثقة ، اصحاب الدكاكين والسابلة ، وكل من رآه واقفا امام بيته . كان يذهب الى مهمة واضحة . وكان غالبا ما يجد الزبون واقفا قرب بابه في انتظاره ، مرحبا فرحا باستقباله ، وكان يلج بيوتا مفتوحة له ، مشرعة الابواب يترك فيها اثرا منه ، مكملا راحة اهل البيت ، مذكرا اياهم به . اما الان فمهمته اصعب ... غامضة ، وغير مأمونة الجانب ، تمتحن فيها رجولته ، وقدر نفسه .

الشوارع نكرات مقصودة ، ضائعة في فراغ موحش . والناس قليلون يسيرون وسط الشارع ، ولا يحفلون بالسيارات . ووجد « الفلكه » على بعد دقيقتين في السيارة من محطة البنزين ، ثم استدار في سيارته يسارا ، واوقفها عند ارض فضاء بين بيتين . ونزل منها ، وسار مشيا ، وانعطف بعد دكان صغير لبيع السكائر ، حتى وجد البيت المقشط الا من رقع صفر مختلفة الاشكال ، ذكرى من لونه السالف . وقف امام الباب الحديدي الاصم ، وتردد قبل ان يدق الجرس دقتين متتاليتين . وشعر بأنه يدخل في مؤامرة خفق نعال خلف الباب الخارجي ، وسمع « من ؟ » رجالية .

— ام عزيز ، ام عزيز .

رد كما اوصته نعيمة . وفتح الباب قليلا ، بالقدر الذي يكفي لان يدلفبجسمهالضخم فيه. ووجد طارمة خاوية تطل عليها نافذتان كبيرتان تغطتا من الداخل بستائر صفراء كثيفة. وتكشف الباب عن غرفة استقبال واسعة كالحة عارية الارض والجدران ، صفت فيها ارائك خشبية قديمة لا تناسب المقام ، ولا توحي بأنه بيت ماهول . طلب اليه ان يجلس ويستريح . انتظر خافق القلب ، يتلفت في الجدران . كان البيت يبدو كالمهجور . جدرانه باردة موحشة ، وصمته مريب ، وفرش تخوته مسحوقة متسخة . ظن ان حسيبة ستفتح له الباب ، ويتم اللقاء قرب الباب ، بعيدا عن الرقباء. اما الان فيبدو كالمتورط ، لا يعرف ماذا سيدفع له القدر من باب نصفه الاعلى من الزجاج المغبش . لن تكون حسيبة ، بالتأكيد ، ما دام قد فتح له الباب الخارجي رجل ، وقد جاء لمقابلة « ام عزيز » ربة البيت . وحين طال انتظاره خشى ان يكون ذلك خلوة اخرى قد دبرتها له « ام جعفر » مع « ام عزيز » هذه المرة . يئست منه ، فأسلمته الى « أم » اخرى . وتأفف . ونهض ، وفطن الى انه يجلس في غرفة شبه مظلمة كالمنبوذ . وقع بصره على كرسي قديم الطراز مخسوف القعر ، حائل القماش ، ذكره بالكرسي القديم الكسيح في دكانه ، واعاد له بعض الالفة . وعلى افريز الشبابيك بعضاصص الزهور الجافة، وفي الركن جرة ضخمة خضراء اللون . والى يساره كان زجاج الباب المغبش يشف عن ضوء لؤلؤي محبب. ساورته الشكوكمرة اخرى، حين استطال انتظاره ، وأحس وكأنه واقع في شرك نصبته له « ام جعفر » . وانبثقت في داخله قوة لاارادية تدفعه الى

الانصراف ، حين انفرج الباب الزجاجي ، ودخلت منه امراة، واضاءت مصباحا واحدا خافت الضوء ، قائلة « اهلا وسهلا . امر ، خدمة ؟ » كانت سافرة ، ممتلئة الجسم ، غليظة الرقبة ، في ثوب ازرق فضفاض ، واساور من ذهب، وابتسامة تجارية تنفرج عن سنين ذهبيتين في جانب من فمها العريض . تساءل :

ــ أم عزيز ؟

ــ بالخدمة .

ــ جئت اليك قاصدا .

ــ تفضل ، تفضل ، استرح .

كانت تبدو بشوشة بشكل مبالغ فيه .

ــ حسيبة ، اريد حسيبة .

ــ حسيبة ؟ من حسيبة ؟

ــ لا تخفيها علي . انا اعرف انها تشتغل عندكم ، اعرف ذلك من مصدر موثوق ، هو الذي دلني على بيتكم . الظاهر انه صديق مشترك .

ــ اهلا بك وبه .

وعادت ابتسامتها الذهبية التجارية تطل من شق فمها . يبدو انها لانت ، واطمأنت ، وبدأت تفكر تفكيرا واقعيا . اعترفت :

ــ حسيبة وجمانه .

ــ لن اثقل عليها . سأكون لطيفا معها ، قسما بشرفي.

قالها ، وكأنه يتوسل ، حتى اضطرت ام عزيز لان تقول له :

ـ يبدو انك رجل طيب .. عيني ، نحن اناس مستورون ، ونخاف من القيل والقال . والسنة الناس طويلة .

ـ اعرفها . اخشن من المبرد .

وانفتح الباب الزجاجي عن صالة مربعة الشكل ، فيها تختان ، كانت تجلس على احدهما فتاة وثبت على قدميها متكلفة الحياء ، حين رأت رجلا مدلهم السحنة ، عظيم الجرم يدخل وراء ام عزيز . هرولت بردفين رجراجين الى غرفة في اقصى الصالة . فتحت ام عزيز باب غرفة الى اليسار ، ونادت :

ـ حسيبة ! جاءك خطار .

في الضوء الشاحب ارتفع رأس اشعث من سرير ، ولبطت ذراعان . وجمدت « آهة » نصف منطوقة معلقة في جو الغرفة المحتبسة الهواء . كان ضوء اللغروب الهزيل المتسرب من الشباك العريض كافيا لان يجعل حسيبة تعرف من القادم ، ربما من ضخامة جسمه ، ومشيته والطريقة التي دخل فيها الغرفة . تشبثت بحاجز السرير عاجزة عن ان تأتي بحركة ، وان تند منها اية صرخة . شلتها المفاجأة. كأنها فتحت عينيها فرأت عزرائيل ، ملك الموت ، فوق رأسها . وتساوى عندها الموت والحياة .

قال عبد الواحد ، وهو يغلق الباب دونه :

ـ لا تخافي . انا لم اجيء لاذيتك ، قسما بالله .

كان صوته متهدجا مشحونا بعاطفة كظيمة ، وكأنما يريد ان يسترخي طفلا زعلان . وجلس على حافة السرير وديعا شابكا اصابع يديه ، وكأنه لينفي عنه اية نية لالحاق اذى. لملمت حسيبة نفسها ، والتصقت بحاجز السرير .

ـ سمعت انك مريضة .

نكست راسها عن وهن وذل ، ولم تجب . فعاد يقول لها :

ـ لم كل هذا ، يا حسيبة ؟

زادت من اطراقة راسها :

ـ كنت معززة مكرمة . انت وفضيلة تسرحان وتمرحان في البيت . هل اجعناك مرة او حرمنا عليك شيئا ؟

رفعت راسها للمحة واحدة ، وخفضته قائلة بصوت مخنوق :

ـ والكلام الذي ينغرز في القلب كالخنجر ؟

ـ ذلك من حرقة قلبي .

ـ وهل تتصور ان قلبي لا يحترق ؟

ـ عليكما كليكما . كنت اريد ذرية لي .

ـ وانا لا اريد ؟

ـ احيانا يبكي الانسان سوء نصيبه .

ـ وكم بكيت انا ، في الغرفة ، وحدي !

وانشأت تبكي بصوت خافت مخنوق .

ـ نحن نربي اطفالنا لنفرح بهم . هم ظلنا على الارض، كما يقول النحويون . ليتك تعرفين كم تعبت على فاضل .

ـ فاضل مسكين .

ـ منذ البداية كان يختلف عن اخوته . صاحب نزوات. يفعل كل ما يطرأ على عقله .

ـ كفر حين تزوجني . هذا الذي تريد ان تقوله .

ـ لا . كل شيء قسمة ونصيب .

ـ قسمتي ، ام قسمته ؟

ـ قسمتكما كليكما .

ـ انا اعرف انكم جميعا ضد زواجنا .

ـ ابدا . انا لم افكر في ذلك . قبلت منذ البداية . واذا كان الذي حصل ، فنحن لا نعلم ما في الغيب . هذه قسمـــة .

ترامت من الصالة اصوات رجالية ، وضحكة انثوية فاجرة . رفع عبد الواحد رأسه مستفزا ، ونظر الى تلـــك المتكورة في الجانب الاخر من السرير . وسأل :

ـ ماذا تفعلين في هذا البيت الغريب .

ـ اشتغـــل .

ـ عودي الى بيتك ، الى زوجك . فأنت ما تزالين مرتبطة معه بعقد شريف امام الله ورسوله .

ـ بعد كل الذي حصـــل ؟

وطفقت تبكي ، واختلط بكاؤها بنوبة اخرى من الضحك المجلجـــل .

ـ ارأفي بنفسك ، وارأفي بفاضل . انه يضمحل . يـــذوي .

ـ لن يقبلني . اين اخبىء وجهي منه ؟

ـ انه يبحث عنك . وخير لك ان تعودي قبل فوات الاوان . سيقتلك ، ويقتل نفسه .

ـ الموت خير لي .

ـ الموت لا يمحو عارا ، اذا لحق بانسان . وانا لا عين رات ، ولا اذن سمعت .

صمت مهزوم ، ونشيج مخنوق . ومن وراء الباب ترامى صوت ام عزيز :

ــ حسيبة ، ماذا جرى ؟

ــ لا شيء .

ــ اقسم لك بشرفي ، وبشيبتي .. انا لم اتوسل الى امراة طوال حياتي . سيكون كل شيء على ما يرام .

ــ لا اريد .. اخاف .

ــ خير لك من الذل في بيت ..

وتحير بماذا يصنف هذا البيت الغريب . كانت الضحكة الفاجرة ما تزال ترن في اذنه رنينا منحوسا . ولكن قلبه ما زال يضمر فضلة من سماحة وايمان . وكان يشعر بأنه اقدم على عمل جريء غير مأمون ، ولكن يجب ان يمضي به حتى النهاية ليثبت، لنفسه على الاقل، انه ادى واجبه ، وكفر عن اساءته ، وانقذ نفسين من دمار محقق . وكان في وسعه ان ينطلق منطلقا اخر مع هذه المتشبثة بحاجز السرير ، وكأنها تخاف ان يختطفها . فالقانون الى جانبه ، وهي المخطئة اولا واخيرا . الا انه دخل اليها بقلب صاف مستعد للغفران ، وحتى لتحمل بعض المساءة .

ارتفع صوت ام عزيز :

ــ حسيبة ، يظهر عندك حساب وكتاب ؟

ــ تعالي معي ، يا حسيبة ــ قال لها الاب المكلوم القلب ــ الان ، البسي عباءتك ، وتعالي . وستجدين فاضل في انتظارك ، فاضل المسكين ، الذي لم يرتكب خطأ في حقك، بل تعذب اكثر ... اكثر ...

وكتم تتمة جملته مخافة ان يزيد من نشيجها الذي ارتفع

مثل نواح على ماض لا يمكن ان يعود سليما كما كان . وقد أحس عبد الواحد بذلك ، وكبح تلك الرغبة العنيدة غير المتبصرة في ان يعود بها الى البيت ، وتراجع قائلا :

ــ او اعطيني كلمة شرف على انك ستعودين غدا او بعد غد نظيفة مستورة ، كما كنت . وعفا الله عما سلف .

ولم تجبه ، ولكن انقطاع نشيجها الفجائي اوحى لـــه بأنها قد تمالكت نفسها ، واتخذت قرارها النهائي . العودة. نهض ، وهـــو يقول :

ــ سأتركك في ستر الله . واذا لم تعودي ، فسأجيء اليك ثانية ، وسأجدك في هذا البيت او غيره . ولكن سأعود عند ذاك بقلب اخر ، غير الذي جئت به اليوم .

في الخارج فتح عبد الواحد رئتيه لهواء الليل ، واحس به يملأ صدره كالمطهر .

في البيت رآهم مجتمعين في غرفة « التلفزيـــون » . انزلت الام رجليها المطويتين تحت فخذيها على الاريكـــة . حين رأته يدخل ، ورفعت اليه وجهها اللهوف . ورفع ماجد جذعه ، ووضع كتابه على طاولة صغيرة محتويا وجود ابيه الركين المفعم بمكنونات نفسية بينما وقفت فضيلة عند الباب مائلة بجذعها الى عضادته ، منتظرة كلمة من ابيها ، في ذلك الحيز الذي تتمكوك فيه بين المطبخ وغرفة التلفزيون ، في الاوقات الفاصلة بين وجبة طعام واخرى . نظر عبد الواحد اليها ، وطلب قدح ماء ، وهو يهم بالجلوس على الاريكة ، ثم عدل عن ذلك ، لانه احس بلزوجة وعرق . ذهب الـــى المغسلة تحت السلم ليغسل يديـــه ، ويسكب الماء علـــى وجهه . وعاد فجلس قبالة زوجته ، وزفر زفرة مريحة قال بعـــدها :

ـ وجدتهـــا .

حدقت فيه ست عيون ترك نظراتها معلقة وراء جفنيه المغمضين ، حين تناول القدح من يد ابنته ، وشرب الماء ، وهو يفكر في الطريقة التي سيلقى بها النبأ العظيم .

ـ مـــن ؟

قالت الام ببلاهة وبرود ، وكأنما كان لها طيلة الوقت ما يشغل بالها غير هروب زوجة ابنها . رد عبد الواحـــد بسخريـــة :

ـ زوجة الحسن بن علي .

وجوبه بصمت مبهور استمر لحظات استطالت حتى غدت كالعمر ، خيل اليه فيها انهم ماتوا وبعثوا احياء مرات عديدة ، وهو وحدة قائم بينهم متقطع الانفاس من ثقـــل العبء ، حيا الى درجة التعذيب ، مفصولا عنهم بجدار من الريب وشر الظنون ، كذلك السلطان الطريد ، ، في القصة الشعبية التي يحفظها وطالما رواهـــا لاولاده ، ايام كانـــوا صغارا . ترك وحده يسبح ضد تيار الماء لينقذ ابنه من براثن الذئب . ام لعلهم كانوا لا يصدقون بأنه سيجدها ؟ ظنـــوا انه كان يبحث عن سراب ، ويحاول المستحيل . والان ، حين فاجأهم بالخبر ، تسمروا ، وغادرتهم الحياة . اخذته العزة بالنفس ، ورغبة حادة في التحدي ، في المضي فيمـــا خوض فيه ، ولات حين رجوع . قال بصوت اعلى من المعتاد :

ـ وجدتها ... حسيبة ... هل تتصورون ان شيئا يضيع في هذه الدنيا ؟

دبت الحياة في الام :

ـ اين هـــي ؟

ـ ستأتي غدا ، او بعد غد .. الى هنا .

راسما بذراعه دورة في الهواء تنتهي باصبعه الهابطة على ارض الغرفة ، وكأنما يضعهم امام حقيقة واقعة . وتلفت في الوجوه يستنطقها . رآها مخددة بهول المفاجأة ، منقبضة عسيرة عن الفهم . وللمرة الثانية احس بوحدته ، وبخذلانه في ساعة التنفيذ .

قالت فضيلة :

ـ اهلا بها ، ولكن هل ستأتي كما كانت ؟

صرخ بها ، ورجفة باردة تنبعث من اعماقه :

ـ ماذا تعنين ؟

ـ ستأتي متكبرة منتصرة .

ـ لا ـ صاح ايضا ـ ستعرف قدرها . لا بد ان التشرد والخدمة في البيوت قد علماها الشيء الكثير .

قالت الام :

ـ ستقول جاءني ابو شيبة برأسه ، يتوسل الي ان اعود .

صاح عبد الواحد :

ـ يعني لا تريدين عودتها ؟ اتريدين ان تقولي انني كنت مخطئا في الوصول اليها ؟ كأننا لم نقض اياما طويلة نفكر كيف نصل اليها ، كأنك لم تتشبثي بالرائح والاتي ، كأن ...

وتوترت اوداجه ، ولم يستطع ان يكمل جملته . خففت عنه زوجته قائلة :

ــ لا تغضب ، عبد الواحد . وعسى الله ان يجعلها خيرا .

ــ لا اريد ان يقتل ابني نفسه .

ــ ولا اريد انا .

ــ اذن ، اسكتي .

ثم التفت الى ابنه ماجد بعد فترة من الصمت ، وقال :

ــ وانت ؟ لماذا لم تفتح فمك ؟ الم تكن تدافع عنها ؟

ــ انا ، انا ... الراي رايكم ...

- ٢ -

اسأل نفسي احيانا : لماذا اكتب في اوراق منفصلة ، ولا اسجل افكاري وذكرياتي بين دفتــي دفتــر مضموم ؟ الأنني اضمن لنفسي امكانية التخلص من بعض اوراقــي بتمزيقها وحرقها ؟ هل انا اخجل مما خطته يدي ، ولا اجد في نفسي الشجاعة لادافع عنه ؟ شبح الماضي يطاردنــي دائما ، والحاضر غير مستقر بما فيه الكفاية والمستقبل على كف بهلوان . وانا اتأرجح في فراغ البطالة . ومع ذلك ، فأنا ما ازال احتفظ بكل ما سجلته ولم احذف منــه سطرا واحدا . هذا الاخلاص للنفس هو الذي يريحني ، ويلهمني الشجاعة على الاعتراف بالخطأ . ولكن هل كنت قادرا ، نفسيا وجسديا ، علــى ان اتفــادى ما سميتــه بالانهيار الجليــدي ؟

كنت استيقظ من النوم فأجد نفسي متوترا ، كنــت احس وكأنني مقبور حيا . ضاقت الحجرة بي ، ولم تعــد لدي الشجاعة لكي اطل على باحة الدار من اعلى الشباك . كنت انتظر مجيئها بفارغ الصبر ، متخذا اوضاعا شتــى . وما من واحد منها ينفس عن جزيئة من التوتــر الذي يشد كياني . كانت احلام الليل تجعلها تتلون امامي بألوان غريبة،

وتتشكل اشكالا متناقضة ما بين حورية وسعلاة . وكنت احلم بها ، وهي تقدم لي الصينية ، ولكنها حين تبتسم تظهر لها انياب طويلة متباعدة . وكنت احلم بها ذات جمال صارخ ، وضفائرها الطويلة سارحة على صدرها الناهد تشع لونا حنائيا شفافا ، وحين امسك تلك الضفائر تتفتت في يدي ، وتتحول الى رماد . كنت احلم احلاما لا نهاية لها . حلمت مرة انني اتمشى معها في شارع ابي نؤاس ، والجو ساحر ساج ، وانا في منتهى النشوة ، ولكنني افطن فجأة الى حقيقة انني مختف ، وان خروجي من البيت خطر علي ، وان الشرطة تتعقبني لا محالة ، فاجفل ، واستيقظ من نومي . ولكنها كانت دائما تأتي في الصباح مختلفة تماما عن كل حلم رأيته . تأتي الي حية ، حقيقية ، من لحم ودم ، دافئة طازجة سمراء كالرغيف الذي تقدمه لي كل صباح . وجودها الثابت الصلب ، ورائحتها الحية التي تشيع الحيوية في كل عصب في كياني . اغراؤها ، وامتناعها ، وما يكتنفها من الخطأ والصواب ، والفضيلة والرذيلة ، كل ذلك يحتويني ويصعد الدم الى رأسي . اذا مسستها شعرت بدفئها ينساب في يدي، وبلحمها يرتد بين اصابعي ، وانفاسها تغمر وجهي . يعمر عالمها الحافل صحراء وجداني .

ظلت بعد تلك « الحادثة » اياما كثيرة تتحاشى المكوث في الحجرة اكثر من دقيقة . واظنها لو كانت تستطيع ان تعتذر لاهل البيت عن توصيل الطعام لفعلت . اما انا فقد تركتها ريثما تستفيق من « الصدمة » . وكنت ، انا نفسي ، حائرا لا اعرف كيف اتصرف . لم يكن خجلا ذلك الذي كنت احس به، ولا ندما، ولا حراجة، بل كان صحوا عاطفيا شفافا،

كأنه من نشقة مكثفة من سعوط الحواس ، يجعل لي يقينا وجدانيا في ذاتي التي كانت مخفية تحت ركام من العواطف المهزوزة والجامدة ، الخيرة والشريرة ، البسيطة والمستحيلة على التحقيق . وكأنني افقت على نفسي بعد سبات او شرود او ملاحقة سراب ، او واد النفس في مقبرة احلام اليقظة ، فاذا بي أجد بعدا اخر من ابعاد المتعة . وتملكتني رغبة آسرة في الاحتفاظ بلحظة الصحو هذه ، لحظة الشبع والامتلاك ، مبقيا على الزمن بلا حراك ، خائفا من التفكير او الاستغراق في الاحلام ، او الالتفات الى تلك الوسوسة التي كنت اسمع دبيبها احيانا يدمدم داخل جدران نفسي ، وكأنني ذلك الفقير الذي فاز بجائزة « يانصيب » واخفاها عن اهله واصحابه ليحتفظ بالجائزة لوحده ، وبالحلم ايضا . ولم نكن نتبادل غير كلمات قليلة ، خائفين من زلة لسان ، او اشارة عابرة ، او تلميح غير مقصود . وكانت هي تبدو خائفة معقودة اللسان ، تتعجل مغادرة الغرفة ، ولا تلقي أي سؤال من اسئلة المجاملة التي تعودت ان تلقيها صباح مساء . وبقيت انا محتفظا برصانتي ، لا اريد ان افسد الصحو النفسي الذي كان يتسرب ، دون ان ادري ، من يوم لاخر ، او حتى بين صباح ومساء ، كما يتسرب الدفء من جسد كان تحت دثار . وبدأ القلب الخاوي يستجدي كلمة ، نظرة ، لمسة . وصار الجسد الموتور يحس بالجوع . ذات صباح ، وكان ذلك يوم جمعة ، جاءني صاحب البيت بالفطور . تشاءمت . قال :

ــ كنت اود ان اتحدث اليك .

ــ تفضل (بصوت مرتجف) .

ـ ربما كان ذلك بعد فوات الاوان .

ـ اي اوان ؟

ـ كان علي ان استشيرك او انبهك قبل ان ادخل خادمة الى البيت .

(الان هل تريد ان تنتزعها مني ؟!)

ـ لا بأس . مر الامر بسلام ، على ما يبدو .

ـ لا ، هي ، مأمونة ، وقد اختلقنا لك قصة . كانت زهرة تخدم عند صديق لي ، ولكن زوجته غارت منها! (وضحك ضحكة ثقيلة) . واستنجد بي (لم اكن أدري انه يقص حكايته معها كما عرفت بعد ذلك) وعندما اعطيت الكلمة غاب عن بالي انك في بيتي . تركنا للمصادفة (وضحك مرة اخرى) سأكون حذرا منذ الان .

ونظر بابتسام . بسمته جارحة كالنصل ، ولمعت عيناه الكابيتان لمعانا غريبا عليهما ، كأنه حشاشة أمل اخير في الحياة ، اخر ومضة في عمر قد ولى ثلثاه ، كأنه يضمن لنفسه حصة من غنيمة غامضة غريبة ، تواعد على اغتنامها مع لصوص مجهولين ، خارج تلك المغارة التي انزوي فيها ، منقطعا عن العالم والناس والاشياء . وفي ذلك الصباح دخل في حياتي عنصر العذاب ، عنصر القلق ، وساوس الشيطان . هل ان عبد المجيد السماوي يعرف سرنا ؟ هل شك فيما خضنا فيه ؟ والان ، يقول لنا : انا هنا ، بالمرصاد . ويلكما لو تنسيان انكما مراقبان ... صديق ، وزوجة تغار عليه من « زهرة » . وهو ، ما علاقته بالمسألة ؟ وطوال اليوم كانت تتراءى لي بسمته الباردة كسلاح ابيض حاد الشفرة ، لماح كلسان الافعى ، مراوغ قتال . ولكن «زهرة» جاءت بالفطور في اليوم التالي ، وبدت طبيعية هادئة طازجة

لم تشترك في معركة الظنون التي خضتها لوحدي يوم امس كله ، وقضيت الليل مؤرقا ، ائن من جراحاتي . كانت متئدة الحركات ، موزونة ، نضرة ، لامعة الخدين ، او هكذا بدت لي ، كأنها استيقظت لتوها من نوم عميق مريح بلا احلام . تتصرف تصرفا حياديا ، وكأنها لا ترتبط معي بتاريخ قريب او بعيد . وعندما جاءت لتأخذ الصحون الفارغة ، رايت على وجهها الاسمر الوقور شيئا ملحا كالاستفسار ، شيئا يوشك ان يفيض . وشجعني ذلك لان اقول لها :

ــ اتعبتك من صعود الدرج .

لم تجب . ورايت جبينها عند منبت الشعر يحمر ، ويكتسي بحبات بيض لؤلؤية . قلت :

ــ هل انت زعلانه مني ؟

هزت راسها نفيا ، بعد ان رأتني احدق فيها .

ــ لم هذا السكوت ، اذن ؟

انتصبت بقامتها الغضة الميالة الى القصر ، ونظرت في وجهي نظرة زائغة لا تستقر في موضع .

ــ البارحة ... (صمت لنصف دقيقة) ماذا تحدثتما عني ؟

ــ مع عبد المجيد ؟

ــ هو وحده الذي صعد اليك .

ــ لم نقل شيئا خاصا .

ــ ابدا ، ابدا ؟

ــ سوى انك كنت تشتغلين عند صديق .

ــ اي صديق ؟

ــ صديق كانت تغار منك زوجته .

لوت راسها ، وحدجتني بنظرة متسامحة ، وكأنها تقول « خلف الله عليك ! » وبدت اكبر من سنها بكثير ، امــرأة حنكتها السنون ، ولم تعد الاحابيل تنطلي عليها .

وتصورت انها تنطوي على سر تتردد في البوح به ، ولو كان يعذب قلبها ، فتركتها وشأنها ، قانعا بأنني تركت صدعا في جدار اصم كان يفصل بيننا ، وأن صدوعا اخرى ستحدث، وينهار جدار البرودة القطبية ، وتبزغ شمس الحــب في سماء حياتــي .

اي حب هذا الذي اردت ان اتحدث عنه في الليلــة الماضيــة ؟!

القلب كم هو مهمل في حياتنا ، نحن الذين كنا في مقتبل العمر في اواخر الخمسينات . القلب عاهة ، القلب لعنة ، القلب براءة من كل المبادىء النبيلة التي كنا نفخر بأننا نحمل أوشحتها . القلب ونزواته سبة وضعف وهزيمة وانهيار . القلب انحراف يميني ، مرض طفولي ، يجعلنا في معسكر واحد مــع المائعين والتافهين والــراكضين وراء الاوهام ، والمستهترين الهازئين بآلام الناس . كانت السياسة تلتهم عواطفنا كنيران المجوس ، وكــان كل شــيء خارجها هباء وضياعا وانتحارا . وانا ، حين أؤرخ حياتي ، لا اؤرخها بأول حب (اين هو اول حب ؟) بل بأول مظاهرة خــرجت فيها ضد الحلف الباكستاني التركي ، وحلف بغداد ، واثناء التضامن مع مصر تأميم القناة والوحدة وعبد الناصر . وحين ارجع بصري في صحراء عمري لا اجد زهرة حب واحدة يمكن ان اتذكرها ، بل اجد احلاما صبيانية هوجاء ، واستغراقات في علاقات وهمية رعناء ، كتلك التي كنت اعقدها مع نساء

حديثات الزواج ، ايام كنا في حينا القديم ، في بيتنا المتواضع المنزوي في رحم بيوت اخرى . كنت اشعر بهن جـــريئات ، متفتحات ، مشدوهات ، خضن تجربـــة العمـــر الفريدة ، وتخطين الحاجز النفسي الذي يعلو مع تقدم الفتاة في العمر دون زواج . فأشعر بهن فرحات مستشرات، وكأنهن امسكن بمفاتيح الجنان ، ولم يعدن يعبأن بشيء ، ولا يخشين من شيء . وكن يتبرجن لي عمدا ، انـــا الصبي المراهـــق ، ويكشفن عن سيقان بضة ، وهن وراء طشوت الغسيل ، وكان ذلك يفجر الزوابع في دمائـــي ، ويجعلنـــي ابلغ مبلغ الرجال قبل الاوان . واقضي ساعات من ليلي مسهـــدا ، اتقلب على فراش مـــن الاشـــواك . هيهـــات ان انسى « مغامرتي » مع واحدة منهن كانت تتردد على بيتنا ، وتراني اقرأ دروسي عند اسفل الدرج ، حيـــث الضوء والهـــواء المنعش ، والشمس تتسلق بيـــت الجيران ، فأقيس بهـــا الساعات . كانت تنحني علي حتى تغمر انفاسها وجهـــي ، وتفعم رائحتها خيشومي ، لتقول : « ماذا تقرأ ؟ » بصوت يحتضنني ، وينشرني ويطويني . وربما لهذا السبب امتلك هذا الاحساس العنيف بالصوت ورائحة الجسد حتى الان . ما ازال احس بهما شيئا ملموسا محسوسا ذا طعم ونكهة ، وكيان ، وعمق ، وسعـــة ، اصطحبـــه معـــي في فراشـــي واهدهده ، واسهر معه ، والتهـــب بناره . وكانت تبـــدو وكأنها تعرف ذلك ، وتتلذذ به ، وتبالغ في تسعير خيالـــي المحموم ، وتنتهز كل فرصة لتلفني بردائها . وذات مـــرة ، وكنت وحيدا في البيت ، انقـــل دفترا استعرته مـــن احد التلاميذ . وكانت امي قد ذهبت لزيارة اهلها بصحبة فاضل

وفضيلة ، وكان شامل مستغرقا في نومه المبكر ، على عادته، بعد العشاء . وابي في المقهى . وجاءت « نجية » ومعها ابنها الرضيع ــ ما اسرع ما يكون لديهن رضعاء ! ــ وبركت على الارض بالقرب مني . كنت منكبا على الارض مغمورا بالنقل ، مستخدما الحبر الاحمر لاسماء الاعلام ، والازرق لبقية الكتابة . وبدأت نجية تلقي علي اسئلتها التي لا تنتهي :

ــ اين امك ؟

ــ عند جدتي .

ــ ماذا تفعل ؟

ــ مريضة .

ــ من المريضة ؟ امك ام جدتك ؟

ــ امي .. لا .. جدتي ..

ــ لماذا لا ترفع رأسك حين تجيبني ؟ ولماذا تنكب بهذا الشكل على الدفتر ؟ ستعمى .

ــ خالد بن الوليد .

ــ شنو ؟

ــ عمرو بن العاص .

ــ شنو ، شنو ؟

ــ عقبة بن نافع .

ــ اغظتني .. لولا ابني لهجمت عليك ، وعضضتك .

ــ اليرموك .

ــ ما هذا الذي تقوله ؟

ـ القسـطاط .

ـ سأهجم عليك .

ـ القيروان .

وضعت رضيعها على الارض ، ووثبت علي ، وألقت ذراعها حول رقبتي ، واطبقت وجهها على وجهي ، وعصرتني عصرا عنيفا . توهجت ، وتلظيت . لم اجابه ، طوال عمري ، بهذه الدفقة المحرقة من اللهب الانثوي ، ولم يحتوني خباء طري مدوخ برائحته كخبائها الملتهم النابض . جابهت صراعها بصراع ، والرائحة والطراوة والصوت الدافق قرب اذني ، تلهمني العرامة ، وتطلق الحرية ليـدي وشفتي ، واشياء اخرى من جسدي . تقلبنا على الارض . مرة هي تحت ، ومرة انا تحتها ، وتشابكت ارجلنا واذرعنا ، ولهثت انفاسنا ، وانحسرت ثيابنا ، ولاول مرة احسست بملمس المعري الانثوي ، البضاضة المغرية ، بالايغال عميقا عميقا ، الى حد الدوخة والانبهار ، وتقطع الانفاس ..

وكانت موقعة « الجمل » هـذه اول واخر موقعة انتصرت فيها . وبعد ذلـك صارت نجيـة تخاف منـي ، وتتحاشى الانفراد بي ، بينما تلبسني شيطان حبها ، ولج بي ، واراق خزانات دموعي ، ايام كنت ازيح «الدشداشة» عن جسدي ، اثناء استلقائي في الفراش ، واتحسس مواضع لمسات جسدها على جسدي ، وقلبي يتمزق حسرات .

تلك بعض « مغامراتي » العاطفية الكسيحة ، حينما كنت ، كلما ابصرت امرأة دافئة ، حديثة العهد بالزواج . « انصب لها اشراكا من الحلم » على حد تعبير الشاعـر العربي القديـم .

ولو قورنت تهويماتي بغزوات « جليل » مثلا ، الذي

يصغرني خمسة اعوام ، لكانت بمثابة منارة سوق الغزل ، بالنسبة الى برج ايفل !

ذهبت الى المقهى المعتاد . كان جليل يجلس على تخت خارج المقهى ، يلتهم بعينيه كل فتاة عابرة ، كأنه يبحث عن واحدة تبل روحه الصادية ، مرة والى الابد ، كما يقولون في اللغات الاجنبية . وكان مؤيد يقلب جريدة « العرب » هازا رأسه قائلا : « عجيب ، عجيب ! » . هبطت الى جانب جليل . رد على تحيتي ، والتفت الى مؤيد ، مربتا على فخذه ، قائلا :

ــ ماكو في الدنيا عجيب .

ــ ماذا فيها اذن ؟

ــ الاعتيادي الممل ، المبتذل الرخيص .

ــ بينما عيناك تبحثان .

ــ عن الكبريت الاحمر .

ــ سش ! هذا من المتفجرات !

ــ لا توسش لي . اصدقاؤنا عرفوا من نحن، فلا تخف منهم . نحن الامية الخامسة ! ما رايك في ذلك ؟

ــ الجمعيات ممنوعة .

ــ لا . ستجيزها الحكومة ، اذا سميناها بهذا الاسم .. مرحبا ، محمود !

والتفت الى الوراء ، وسلم على شخص وراءه . رد الشخص بـ « هلا » وبابتسامة مقحمة . قال جليل :

ــ صوتي مسموع زين ؟

ــ خذ راحتك .

ــ نريد ان نكون امية خامسة .

ــ لو كنتم تؤلفون امية ، ولو كانت عاشرة ، لما اخبرتموني .. نحن نعرف .

ــ شفت ، مؤيــد ؟

رد مؤيد بلهجة جدية :

ــ لا ، صحيح ، سيد محمود ، نريد ان نؤلف جمعية تسمى جمعية القرف من الجلوس في المقاهي . ما رأيك ؟

قال محمود بلهجة عليم :

ــ هذه الجمعية قائمة .. نحن نعرف بها .

ــ اسكت ، مؤيد ، لا تضع يدك في فم الاسد ..

ــ واين اضعها اذن ؟

وعادت عينا جليل تمشطان الرائحات والغاديات . ثم نهض فجأة ، وقال لي : « قم ! » .

ــ الى ايــن ؟

ــ نتسكع . وفي طريقنا نمر على مكتب الاعلان .

كان جليل قد وجد له عمــلا في هذا المكتــب كمصمم اعلانات . صعدنا الطريق المحفر المجدر ببقع الماء الاسود، ميممين صــوب « ابي نــؤاس » . كان الوقــت عصرا . استقبلنا النهر ببسمته الغرينية الدسمة . والشمس تعصفر ذوائب النخيل والاشجار في الجانب الاخر من النهــر . مشينا صامتين بضع دقائق ، ثم بادرني سائلا :

ــ هل وجدت عملا ؟

ــ لا ، بل سحبت اوراقي من مديرية الري العامة ، وقدمتها الى معمل المكائن الثقيلة . فلعل وعسى !

— نأمل ! دوستويفسكي يقول : اذا فقد الانسان الامل ، ولم تكن له غاية في ذهنه استطاع الضجر المحض ان يحوله الى حيوان .

— اما انا فأعرف كلمة لتشيخوف يقول فيها « ان فقدان الايمان في عصرنا اسهل من فقدان قفاز قديم » .

— او نعال قديم ، بالنسبة لنا ، لاننا لا نستخدم القفازات — قال جليل بحماس هازا راسه هزات قوية متوترة — وفقدان الامل نجده في كل عطفة شارع ، في كل سطر في جريدة ، في كل نظرة من عينين . ضياع !

وضخم كلمة « ضياع » مشيعا فيها معنى اصدار حكم، جاعلا اياها كاللعنة . ورنق بصره لحظات في المدى الصقيل لجسد النهر البنى ، ثم عاد زائغا على الرصيف . وفجأة ارتد جليل ، وتخلخل في مشيته ، كمن اصطدم بجدار ، حين وقع بصره على فتاتين قادمتين من الجهة المقابلة . كانت الاولى تشده النفس بجمال وجهها الرصين ، ونضارة بشرتها ، والاخرى تثير في النفس احساسا مقبضا اشبه ما يكون بفقدان الامل الذي كنا نتحدث عنه . كان تنافر تقاطيع وجهها ، انفها الكبير المكور ، عيناها المفجوعتان الكبيرتان، شفتها السفلى الغليظة المتدلية يشعرك باللاعدالة في توزيع نسب القبح والجمال بين البشر ، ويعتورك اشفاق يعصر القلب لشعورك بظلم الطبيعة الخالقة وتجنيها .

تدلى رأس جليل الى الامام ، وكأن فقرات رقيقة قد انحلت ، وغاب عني في ذهول وهمود ، خرج منهما بعد لحظات ليهز رأسه ، وكأنما ليطرد عن وجهه ذبابة لجوجا . وقال :

— الان انا بحاجة الى مسكن .

نظرت الى وجهه الجامد التقاطيع ، وقد التصقت عليه البشرة مشدودة الى حد التوتر .

ــ لا بد انك تعرفهما .

هز راسه بغموض ، ورد ردا غير مباشر :

ــ اخوك شامل يحوم حول واحدة منهما .

ــ من ؟ الجميلة ؟

ــ لا ، الاخرى .

وشعرت بوخزة في خاصرتي .

ــ لعلها تلك التي حدثتني عنها سابقا ؟

ــ هي . انه يلعب لعبة قذرة . هل يريد ان يسبب لها انهيارا عصبيا اخر ؟

وضرب جمع يده بباطن كفه الاخرى المبسوطة . كان يتعذب ، ويكتم ، بلا شك . أثار اللقاء تداعيات مؤلمة في نفسه .

ــ يبدو انك ملم بالموضوع جيدا .

ــ ليس ذلك بمستغرب على رجل تخرج في معهد الفنون قبل سنتين . ثم من لا يعرف هيفاء مطلوب ؟ رسامة ممتازة . وبعد مداعبات اخيك اخذت تميل الى التمثيل .

ــ والاخرى ؟

ــ الاخرى !.. الاخرى هي الغواية .

واخذت استدرجه مدفوعا بقوة السحر المبهم الذي يكتنف عالم العلاقات بين الرجل والمراة ، متلمسا طريقي بمسابر اعرف من طريقتي الخاصة انها تثير مكامن الشعور ،

فتطفح النفس ببواطنها ، مثلما افعل انا ، احيانا ، مع القلم، حين يخز مسبر شكوة ذكرياتي ، فتندلق على الورق .

لولا حسيبة وهروبها لما دلقت نفسي خفاياها .

اهذا صحيح !.. لا .. صحيح ... غير صحيح .

الم تكن اللعنة تلاحقني طيلة سنوات ؟

احمل الجرح معي ،

الاثــم ،

الندامــة ،

تبكيت الضمير ؟

ولكن هل كان لذلك محل في تفكيري آنذاك ؟

كانت الدنيا تختزل الى اوقات لقيانا . وكان الصفاء قد عاد بيننا ، صفاء مشوب بحذر ، ونظــرة في العينين ، وفترات تغوص فيها القلوب ، وكأنها تغور في بئر لا قعــر لها . كنت قليلا ما افلح في اجلاسها ، ويداي مطبقتان على ذراعيها الدافئتين ، على الكرسي قبالتي ، كما كانت تقعد هي بنفسها في السابق . وكان يبدو وكأن شيئا خاصا يدور ويتلولب في خلدها ، وهــي تنظر الــي بعينيها النجلاوين ، تستقرىء ملامحي ، هيئتي . وفجأة سألت على حين غرة :

ــ لماذا تحبس نفسك في هذه الغرفة ؟ لماذا لا تخرج؟

تنحنحت ، وارتبكت ، وفركت صدري بيدي مستنطقا بديهتي جوابا . وقلت دون ان افكــر :

ــ عندي حساسيــة .

ــ ما معنى حساسية ؟

ـ صدري يضيق من بعض الروائح ، في اشهر معينة من السنة فاعتزل الدنيا .

نظرت الي بعينيها الدعجاوين ، ورفت بسمة فاتـرة علـى شفتيها .

ـ ألا تصـدقين ؟

ـ أصدق ... بكل شيء أصدق .

ـ حقا ، يا زهرة ، هناك بعض الناس يشمون روائح لا يشمها الناس الاخرون .. هذه الروائح تطاردهم كقطيع من الذئـاب .

ـ ربنا يستر .

ولم يخامرني ادنى شك في انها لم تصدق هذه الكذبة . ولكنها كذبة خفيفة ، رمزية ، املت ان اطورها في لقاءات اخرى . ثم انني كنت على يقين من ان اهل البيت اعطوها تبريرهم الخاص . وصدق يقيني ، فقد سمعتها تقـول لي ، وهي تضع قدح الشاي على المنضـدة :

ـ عبد المجيد يقول انك هارب .

جفلت . وشعرت بوجهي ينتفخ بالتساؤل والتوجس. أوضحت زهـرة :

ـ هارب من اهلك : لانهم عازمون على تزويجك من خطيبتك منذ الصغر ، وهي ابنة عمك .. ولكنك لا تحبها .

ارتخت قسماتي بابتسامة مستسلمة :

ـ صحيـح .

ـ ولكن امك تزورك بين حين واخر .

لا اعرف كيف اسعفتني بديهتي فقلت لها :

ـ امي الى جانبي ، ولكن ابي يصر ، ويبحث عني .

ـ في بغداد ايضا يحدث هذا ؟

ـ في بغداد يحدث كل شيء .

ومرة اخرى سألتني :

ـ من هــي ؟

ـ مــن ؟

ـ الفتاة التي تحبها ، ومن اجلها هجرت خطيبتك .

ـ من هي التي احبها ؟

ـ لا اعرف .. عبد المجيد يقول ان لك حبيبة انت مخلص لهــا .

ـ أهذا ما قاله عبد المجيــد ؟

هزت راسها ايجابا . فقلت :

ـ عبد المجيد يجيد تسقيط الكلام .

وما اكثر ما كان يملأ ذهني به ! كان يأتي ويتحدث عن اشياء غريبة ، شائعات ، مفاجآت ، تغيرات في العلاقات بين هذا وذاك من الذين في دست الحكم ، فضائح ، تحولات غير معقولة . كل شيء معرض للانكشاف . كل شيء نهــب للزوابع والتقلبات . لا شيء مضمون في هذه الدنيا . الاختفاء لا يرضى غير غرور النعامة . وهيت لك !

واكتشفت انا انها لن تأتي ورب البيت موجود فيه . كان هو يحمل الشاي والطعام والجريدة اليومية ، وفــي احيان قليلة تقوم زوجته بذلك ، اضطرارا ربما . وسرعان ما اكتشفت انني واقع بين ثلاث قوى متنافرة ، كــل واحدة تدور في مدارها المرسوم ، وتحوم حول غاية . كنت اتلمس

ذلك في العيون والحركات او انصاف الجمل ، والكلمات المطاطة ، والاشارات والهمهمات . وفقد الجو براءته ، وتدبقت الحياة ، واكتشفت تغيرا متصاعدا في سلوك زهرة. صرت ألمح تباطؤا متخاذلا في حركاتها ، ذبولا مقهورا في عينيها ، صمتا متوجسا مثلمراجعة النفس يطل من قسمات وجهها ، ذلك الوجه الذي كان يتقنع من يوم لاخر بقناع من الجدية المبكرة ، كانت تطيل النظر الى وجهي ، وكأنما تستنطق ملامحه ، وشفتاها توشكان ان تقولا شيئا يعذب ضميرها ، ولا تجرؤ على الافصاح عنه ، شيئا يشغل خلواتها مع نفسها ، كما يخيل الي . وكانت يدها ترتجف حين ترفع الصحون من المنضدة ، وتغرق في صمت ثقيل ، متباطئة في الرد على اسئلتي الصغيرة . كان وجهها يستطيل، وملامحها تتغير نسبها ، وكانت تكثر من قول « الله كريم !. » وكأنها عاجزة عن رد مصيبة توشك ان تقع . وكانت تسأل ثم ترد بنفسها على سؤالها ، كأنما لتؤكد شيئا تشك فيه . ثم سألت ذات مرة : كم اخا لك ؟ قلت : اثنان ، واخت واحدة . لوت رقبتها مهونة الامر . تذكرت ما قالت لي في لقاءاتي الاولى : في قرى العراق ومدنه الصغيرة ينجبون كثيرا . عشرة بطون ، اثنا عشر ، وحتى ثمانية عشر . الملا خميس صاحب ابي في المسيب ، وفي قزرباط ايضا ، حيث انحدرت هي واختها الكبرى للعمل في بغداد ، تاركة اباها المتورم الركبتين . وكانت في ايامها الاخيرة رقيقة وعصبية. تفوه باشارات مبهمة . وكان الصياح احيانا يرتفع من قعر البيت .. واخيرا ... انقطعت عن الصعود يوما ، ويومين، وثلاثة ، واربعة . وانا لا اجسر على الاستفسار ، وحتى

على اظهار قلق . صارت الزوجة تصعد الي . واحسست لاول مرة بثقل وجودي في البيت ، بالفراغ ، وكأنني معلق في وسط بئر . وفي يوم حزين اسرت الزوجة الي الخبر : « زهرة تركت البيت » .

ــ نهائيا ؟

ــ جمعت اشياءها وخرجت ، ونحن خارج البيت .

قالتها بلهجة ارتياح دافعة ذراعها الى فوق ، وكأنها تزيح ثقلا عن صدرها الى غير عودة . وقوى ذلك شكوكي من ان الزوجة كانت ترتاب بوجود علاقة مريبة بين زهرة وزوجها ، وانها قد تخلصت من شبح خيانة كان يكمن في بيت الزوجية .

الخيانة ، كالموت ، تترصدنا في كل منعطف .

وجليل يحلو له ان يقسمها تقسيما بديعا : خيانة انفسنا ، وخيانة الاخرين . ويقول : اننا نمارسها بسهولة، ولا نشعر بالخسارة والندم الا بمقدار ما نشعر بهما عندما ندخن سيكارة زائدة تعقبها نوبة سعال طارئة ، وحكة في الصدر .

اليوم عرفت قصة الفتاتين اللتين التقينا بهما في شارع ابي نؤاس . الغريب ان صورة القبيحة انطبعت في ذهني أكثر من صورة الجميلة ، ربما لان الجمال الصارخ لهب يذهب بالابصار لحظة ، ثم تبقى ذكرى حلوة وغامضة . . اما صورة القبح المروع فتبقى كالوشم في ذاكرة الانسان .

كان جليل قد ابدى اهتمامه بمعرض شخصي صغير اقامته « القبيحة » في حجرة مهجورة في المعهد ، وكتب عنه نصف عمود في جريدة « العرب » . وكان لا يرمي بذلك الا

اثارة زوبعة صغيرة من تلك الزوابع التي تثار بين التكتلات المؤقتة بين الطلبة ، وتثير الاخذ والرد ومختلف الظنون والتفاسير . وقوى « نصف العمود » صلة جليل بهيفاء التي كانت تريد ان تضفر من خوصة صغيرة سلة من الامال . قال جليل لي :

— كأن الامر يفلت من يدي في الحقيقة . كنت لا اريد غير تشجيع فنانة تملك حاسة فنية طيبة ، وحساسية مفرطة ازاء نصيبها الاعجف مما يزين بنات جنسها . وكانت كل التفاتة تؤول من جانبها بأكثر مما يحتمل ، وكل نظرة توقظ شيطانا من قمم عواطفها الحبيسة في صدرها . اما انا ، العربيد المتفجر بالحمم ، فقد وقع جنوني على درة تاج الجمال التي ترافقها . ورحت اخطط للاستيلاء عليها . صارت كل كلمة توجه لمنى دون غيرها ، ولو قيلت لهيفاء عينا بعين . كل اشارة تنسج شراكا ، كل همسة تنطلق لفرض تآمري . وصارت لي ولمنى لغتنا الخاصة ، اشاراتنا ، غمزات اعيننا ، كلمات السر . وقد استولت علي نشوة الانتصار الرعناء ، فاستخدمت كل رصيدي في اجادة حركات الالتفاف ، وجر البساط من تحت الارجل . واخيرا ، صارت لي لقاءاتي السرية مع منى ... استطعت ان اقسم الثنائي الذي كان يبدو للاسنان الاعتيادية جوزة تعز حتى على « كسارة الجوز » ! انها لعبة خطيرة ، ربما تتصورني لم اكن اشعر بسفالتها . ولكن الذي يمخر في بحر الغواية ، قلما يكترث من اقراش الاثم المتربصة به . كنت مستسلما الى خدر لذيذ يغبش علي وجه الواقع .. حتى حلت الكارثة . رأتنا هيفاء نسير في شارع السعدون — لعل واشيا وشى بنا ، ولم تكن مصادفة — وحين وقع بصرها علينا تهشمت ملامح وجهها المتنافرة وخلت انها ستتساقط

كقناع من خزف سريع العطب . وبعـدها اختفـت هيفاء المسكينة من الكلية ، ومن كل مكان ، حتى سمعنا انها قد اصيبت ـ المسكينة ـ بانهيار عصبي .

سرنا دقائق صامتين غارقين بأفكارنا الخاصة . وكان راس جليل قد تدلى ، وتلك امارة تظهر عليه كلما طلع خاسرا في معركة الافكار التي تضطرم في داخله . قلت هازا راسي:

ـ انت فارس غزوات .

ـ غزوات فارغة ـ ورفع رأسه والتفت الي ، وعيناه تتفرسان بنهم وابتئاس ـ ولكن ما العمـل ؟ لي قوة تهز الجبال . هذا ما اشعر به . ولكن ايامنا ضائعة ، ضائعة. اريد ان اغرق نفسي في شيء يستحوذ على كياني كلـه ، اهبه له . اريد ان اغامر . روح المغامرة والتضحية تعربد في شراييني . ليتني انتمي الى منظمة ثورية لاهبة ، واذا لـم تكن في العراق ، ففي فلسطين المعذبة على الاقل . احب معانقة الخطر ، ولو ان تشيخوف يقول ان معانقة الخطر لعبة ضد الضجر . حسنا ، يا اخي ، انا ضجر من حياتي الراهنة حتى النخاع .

رددت :

ـ الضجر تتصوره من ركود العالم . لا حركة .

ـ اتصور العالم فراغا . والفراغ يدفعك الى ارتكاب اكبر الموبقات . اريد ان احرك شيئا من هذا السكون المبتذل، ولو بفتيلة تنسف نفسي مع بعض دعاة الخمول ... الجمود يحطـم اعصابي .

ـ لا بد ان حركة تجري في الاعماق ، لا بد من وجود قوى تعمل في الخفاء .

ــ بالتأكيد . والا فهل هذا بلد يحترم نفسه ؟ تعيش حكومته على موارد سباق الخيل والكوكا كولا ؟ بلد تنفتح فيه صالونات الحلاقة للسيدات اكثر من كل المشاريع والمؤسسات والمدارس مجتمعة ؟ ولكن اين تلك الحركة ؟ اريد ان احتويها ، انغمر فيها .

وركل حجرا بقوة ارسله كالقذيفة الى الجانب الاخر من الطريق ، ثم ثنى بآخر بتسديد غير موفق ، فأثار غمامة من الغبار وتدلى راسه من جديد ليرفعه بعد دقائق ، ويسأل :

ــ لو كنت في مكاني ماذا فعلت ؟

ــ في اي شيء ؟

ــ في مسألة هيفاء ومنى . هل تستسلم للغواية ، أم تتمسك بأذيال الفضيلة ، ولا اقول بتلابيبها ؟

ــ احيانا يستسلم الانسان لثقل اللحظة المعاشة ، ويدور في فلكها .

ــ يعني مع الاغواء ؟

لم اجب . كنت اجد تبريرا للافكار التي صارت تنتابني كلما تذكرت قصتي مع زهرة . في حينها لم افكر في الخطأ والصواب ، كنت اعيش اللحظة الراهنة ، واخضع لخدر الفراغ . كانت ايامي ، قبل ان اراها ، متشابهة ، كأسنان المشط ، على حد التشبيه المشهور ، متشابهة رتيبة مثقلة بوقر الانتظار . ثم هبت في حياتي الراكدة كالنسمة ، واطلت في ظلام اختفائي كنور القمر الذي يقال انه يفعل في بعض النفوس فعل الخبل والجنون . كنت كقط جائع ــ لم اكن ذئبا على الاطلاق ــ حبس في غرفة مع قطعة لحم موضوعة

تحت غطاء شفاف من الزجاج . وما ان اندفعت مدفوعا على ثبج الموجة الاولى من الرغبة ، حتى انغمرت ، ودخت وفقدت توازني الى ان القتني الموجة التاسعة محطما ملقى على شاطىء الذهول والحسرة . في الايام الاولى تعللت بانها ستعود . لعلها سافرت الى قزرباط لزيارة ابيها الكسيح ، او ذهبت الى اختها الكبيرة هنا ، في بغداد التي كانت علي محرمة آنذاك . ولو ان لهجة الزوجة القاطعة تجزم بانها لن تعود .. ذهبت الى غير رجعة — دفعة مرد وعصاة كرد (لماذا عصاة كردي ؟) — وكانت تامل ذلك من اعماق قلبها . وكنت آمل العكس ! ومعي يأمل الزوج . كان يصعد الى غرفتي كسير الخاطر ، ويطرح اسئلة غريبة ، ويرد عليها حين اتباطأ بالرد ، ويقول « مسكينة » ، ويبتسم ابتسامة مبطنة ، ويجعلني ذلك اشعر بالتعاسة والانقطاع. وثقل القيود التي ارسف فيها . كنت انبطح على فراشي ، حالما ينصرف ، واشبك يدي ، واضعهما تحت راسي ، واحاول ان استرجع ما فات عني التقاطه من تصرفاتها ، وضعها ، هيئتها ، المتفرق من كلماتها ، تنهداتها ، الساجي الغامق من نظراتها ، ومضيت اترقب عودتها . كنت التقط الاصوات الصادرة من بئر دنياهم ، واترصد الحركات بأذني وخيالي، بلهفتي وجنون انتظاري، محاولا ان اميز الصوت الضائع الناعس المطيب بالدفء والانكسار والعتاب المضمر. ولكن الايام تمضي ، وزهرة لا تعود . والبيت ينقلب الى قبر ، كما كان سابقا ، ولكن بفارق واحد ، هو ان الميت الذي فيه قد بعث حيا بكل جوارحه ، وهو في انتظار منكر ونكير ليحاسباه.

كنت اقول لنفسي : لقد جنيت عليها . في ساعة من

ساعات الضعف البشري حطمت حياتها . وربما لهذا السبب لملمت حاجياتها ، وخرجت خوفا من الفضيحة . جمعت حطام عفافها ، وابتعدت عن طريق حياتي لتجنب نفسها الاحراج ، ولتجنبني الاذى والعقاب ايضا . لم تعاتبني . لا، عاتبتني . لم تعاتبني بصريح العبارة ، ولكن العتاب كان يطل من كل حركة تبديها ، من كل نظرة متيمة تلقيها ، من كل آهة تفلت منها ، من كل اشارة دالة تبدر منها . ومرة تحدثت لي عن عبء الاولاد . آنذاك بدا الحديث طبيعيا ينسجم مع ما كنا نخوض فيه . وهو الان يبدو ذا قصد ، ومنبعثا من قلق كان يتلدد في الاعماق .

وتأسن مقامي في البيت ، وتجسم لي البرود في كل تصرف من تصرفات اهل البيت . والصمت تنين يعيش داخل النفس ، ويمتص الهواء من الرئتين ، ويكاد يخنق صاحبه من الداخل . عافت نفسي كل شيء . زهدت بالقراءة ، بالتأمل ، وحتى بالامل في انفراج الوضع خارج البيت . لم يعد يهمني شيء . تساوت مختلف الاحتمالات . لا ابالية عجيبة ! خدر من حقنة يأس قوية . الان ، توجد في مكان ما من هذه الارض الواسعة فتاة تتعذب بسببي لما زرعته في احشائها ، وربما تلقى نفسها في تهلكة .. وهات ، يا عذاب الضمير !

واحيانا ، في لحظات نادرة ، تطل ومضات صفاء غريبة ، يتحرر الذهن من تساؤلاته او تهاويله ، ويرضى بحالة من القناعة الغيبية ، فيتوهم ان أي شيء لم يحدث ، وان زهرة غادرت البيت لان صاحبه يغازلها ، او لمجرد انها

ظفرت بعمل اروح ، واخف اعباء ، وانها الان طليقة تمرح في دنيا الطلقاء ، وتضحك بخلو بال ، صافية القلب ، فارغـة الاحشـاء ! ولكن هذه كانت مجرد لحظات عابرة يتحايل فيها الضمير ليلتقط انفاسه . وبعدها تعود الافكار السـوداء . وقد مرت لحظات كنت مستعدا لان اهـب نصـف حياتي في سبيل لقاء خاطف معها .. ربما ذلك ايضا من الانانية، لاحرر نفسي من اشواك الظنون التي كانت تمزق داخلي ، ولارسو بزورقي القلق الى شاطىء اليقين ، لامنح نفسي لحظة براءة تعقبها ساعات وايام وليال من الشعور بالذنب ، وارتكـاب الجرم المشهود . وكان العجز جزءا من روتينـي اليومي ، عجز عن الحركة ، عجز عن التفكير ، عجز عن الثبات على راي ، عجز عن النـوم ، وكـل هذه الالوان من العجـز كالافاعي تذيقني ضروب السموم واللدغات .

ثم حان وقت الخروج من قوقعة الاختفاء . فقد حصل ابي على وعد في اعطاء جواز سفر لي لغرض الدراسة في الخارج . في ذلك الحين كان السفر الى الخارج كالنفـي ، كتقديم براءة ، كتخلص مسموح به من عنصر ازعاج . ترددت كثيرا . الشيء الذي حلمت به كثيرا اثار في صدري المخاوف . سأتعلم المشي من جديد ، والكلام مع الناس مـن جديد ، سأجابه الواقع من جديد . اطلقت شاربي ، ووضعت على عيني نظارة خضراء داكنة . وفي الليل انتقلت من البيـت الذي قضيت فيه خمسة اشهر ، من الاختفاء الى بيت اخر ، الى حياة شبه علنية . وخلال المدة التي كان يسعى فيهـا ابي ، بالواسطة والرشـوة ، للحصول علـى جواز كنت

اتصرف كالمراقب . كنت اسير متعثـــرا ، وأرى نفسي في وجوه الاخريـــن . كنت قليـــل الكـــلام لا أرد الا بالكلمات الضرورية . ولكنني كنت واثقا ثقة غيبية بأنني سأراها ، ارآها فجأة طالعة من بيت ، ماشية في شارع ، تتســـوق عند بائع مخضرات ، في رفقة رجل او امرأة . وكنت اخشى هذا اللقاء واريده في الوقت نفسه . كان قلبي ممتلئا بـــه ، وكل كياني . كان شبحها يطاردني . كانت تتراءى لي في كل مكان .. عينـــاها الساجيتـــان ترمقانني عبـــر ابعاد غير منظورة . وحتى حين كنت اخلد الى نفسي ، كنت اتصور انها ستدخل علي حاملة صينيتها . وقد حملت شبحها معي في الخارج . وحتى الان ، بعد هذه السنوات ، حين دعيت الى زيارة ليلية لبيت مشبوه ، كنت اتخيل انني سألقاها ، في ذلك البيت . فقد قررت مصيرها بينـــي وبين نفسي .. التعاســـة .. السقوط .

خضنا برك الليل السوداء ، والاشجار تطل من فوق اسيجة البيوت مثل رؤوس حيوانات مفترسة . كنت احمل نفسي حملا ، كأنني ذاهب الى مصير معلوم . والليل يوهج الفكرة التي تقض مضجعي . سأجدها ...

وجدتها ... هي .. غيرها .. ثوبها الوردي شـــع واعمى عيني . جفلت ، تراجعـــت ، احاول الاختفـــاء . ركبتاي ساحتا تحت ثقل جسدي الرصاصي ..

انا .. انت ... هو يدخل الاول . طاردني الصوت. الضحكة . الحائط سحق كتفي . دفعت الباب . ارتميـــت على المقعد . غاص بي . كياني يهتز هزات مخيفة . هـــل لمحتني ؟ خفقت بنعليها وغابت . الصوت النسائي الاجش يلاحقها . ما موقعها من هذا البيت . خادمة ام مـــاذا ؟ ان بعض الظن اثم .. وكـــل الظـــن ؟ انتحـــار . الضحكات

تلاحقني الى قعر هذا المقعد الكسيح . كيف تورطت وجئت؟ سأكسر هذه الاصص الوسخة ، واهرب . اهرب ؟ لا هروب بعد الان ، لا هروب !.. تمزق الضمير شر ممزق ! سأظل مطاردا ، فريسة لمعركة الظنون والاشباح .

لا ، لا استطيع الكتابة .. سأمزق الاوراق البيضاء الباقيـــة .

اليوم حين سمعت ابي يقول لفاضل ستأتي الى بيتها، وجدتها لك .. غاص قلبي الى رجلي . هل وجدها حقا ، ام مجرد تعلة ؟ وعلى كل حال ، صرت كمن صدر عليه الحكم ببلع لسانه ... القلم لم يعد يسير ...

- ٣ -

(غرفة الدرس نفسها في المعهد . شامل جالس في استغراق ساندا رأسه على ظاهر اصابعه المطوية . ووراءه جلس ماجد يطوي ورقة بين اصابعه صانعا منها اشكالا مختلفة) .

ماجد : لم اظفر منك بتبرير حتى الان .

شامل : هناك اعمال لا تحتاج الى تبرير .

ماجد : مع ذلك فلست موقنا بأنك تتخلى عن حبك الاول بمثل هذه السهولة .

شامل : خطأ الناس ان يحسبوا ذلك حبا . ليس الحب هو الذي يبني علائقنا مع الاخرين ، بل شيء اخر اعمق .

ماجد : ما هو ؟ المصلحة ؟

شامل : الحياة نفسها . كل شيء يعود اليها ، وينبثق منها . ونحن نلعب لعبتنا في سبيلها . والخائب هو الذى لا يفطن الى ذلك في وقت مبكر .

ماجد : وما المقياس في قبول الحياة لمنطقك ؟

شامل : وضوح الفكرة . وتشبع نفسك بها .

ماجد : يعني ان لك فكرة واضحة في الحياة .

شامل : كل الوضوح ، وهي التي تسيطر على حركاتي .

ماجد : اليس هذا غرورا ؟

شامل : بل نضوج مبكر .

ماجد : مستهديا بالذرائعية ؟

شامل : ولماذا لا تسميه دفاعا عن النفس ، هذا اقصى ما نفعله في الوقت الحاضر .

ماجد : أوه ، لكم تغيرت ، يا شامل !

شامل : الحياة تفعل الاعاجيب .

ماجد : كنت تريد ان تكون شاعرا .

شامل : كففت عن ذلك ، في زمن لا تحلق فيه غير الخفافيش ، ولا ينعم فيه بالعيش غير المقاولين .

ماجد : هذا منذ زمان : اما ان تكون شاعرا او مقاولا .

شامل : في زمننا هذا اكتسى هذا التناقض لون الدم .

ماجد : اوف ... من اين لك هذه المرارة ؟

شامل : هذه حصانة من الوقوع في العجز .

ماجد : لن تكون عاجزا ، اذا كنت تملك الوسائل .

شامل : اتظنني املكها ؟

ماجد : اعتقد .

شامل : عسى ان يكون ذلك صدقا . وان تضمن ذلك معنى الادانة . لا يهم ! ادني ، يا اخي . الادانة هي الاخرى تنبىء عن بعض الاقدام ، وتتجرد من الحيرة والتردد .

ماجد : وانت لا تريد ان تتهم بهما .

شامل : اخافهما خوف الافعى .

ماجد : اراك قد كبرت ، يا شامل .

شامل : من عاش السنوات القليلة الماضية ، فقد عاش الدهر كله . لقد سافرت انت ، ولم تر ما يملأ نفسك بالمرارة .

ماجد : أتعيرني بتركي الوطن للدراسة ؟

شامل : لا ، بل اخترت اهون الامرين ، على الاقل .

ماجد : كأنني خرجت من المهد الى جنة الخلد .

شامل : على العموم ظلت تجربتك ناقصة .

ماجد : ربما اوافقك . ربما كانت احلامي اكثر من تجاربي.

شامل : والاحلام لا تسمن ولا تغني عن جوع .

ماجد : ولكنها ضرورية في البداية .

شامل : بالقدر الذي لم يوفق حتى الان احد باكتشافه .

ماجد : قد توفق انت .

شامل : ابدا . انا شطبتها من حسابي . الاحلام عجز ، وانا اخشى العجز اكثر من الشلل .

ماجد : هكذا ، اذن .

شامل : نعم .. قل لي ، يا ماجد : هل كنتم ، في زمانكم ، تعرفون كلمة « احباط » ؟

ماجد : كنا نعرفها ونستقبحها .

شامل : اما نحن فنعيشها صباح مساء . وستعانيها انت الان ، في بحثك الخائب عن عمل ، في تحطيم مشاريع صباك في راسك ، بينما كنت مدللا من

ابويــك ، وصاحــب مشاريع خيالــية ، واحلام طوباوية ، ولحظات في العمل الوطني ... اما انا فلا شيء عندي من هذا . ادركتني الثورة ، وانا ابن الخامســة عشرة ، وزينــت صبــاي بأحلام غامضــة . وعندما دخلــت الفنــون صرخ ابي في وجهي : تريد ان تصبح ممثلا ؟ يعني « شـعارا » جعفر لقلق زاده ؟ بينما كان ينظر اليك ، وكأنك مقتحم باب كبير . ستخرج مهندسا وتناط بك امال العائلة ، لانك ستهندس لها مستقبلها الوضاء .

ماجد : ها انت ترى انني لا استطيــع ان اهندس حتــى مستقبلي .

شامل : عش كلمة « احباط » قدر ما تستطيع . وعندئذ ستفهمني .

ماجد : لست قاصرا عن فهمك .

شامل : (ينهض ويقابل اخاه ، وينظر فيه مليا ليعرف هل هناك ظل للسخرية في كلامه . ولما وجده رصينا متجاوبا ، هز جذعه كالملوع) : سأقول لك مــرة اخرى ليتك كنت صادقا . ليتك تعرف معنى الاحباط معنى تحطيم المشاريع . ثم ليتك تعرف كم يزخر فكري بالمشاريع والاحلام ، في مجتمع هو ضد كل هــذه الاشياء . آه يا اخــي ، انا مملوء تطلعات ومشاريع . قلبي خزان للطموحات . ولكن ما قيمة كل هذه اذا لفظني المعهد جنــديا نفرا في جيش العاطلين المتضخم ، او جعلني معلم نشيد في احدى

مدارس ريفنا المحروس برعاية آلهة الجوع .

ماجد : ولهذا تتخوف من مستقبلك .

شامل : كل التخـــوف .

ماجـــد : وتقيم اتصالاتك .

شامل : هذه التي تسميها اتصالات لا تؤذي احدا .

ماجد : ما الدافع اليها ، حسن النية ؟

شامل : تقصد ما بدانا الحديث به ؟

ماجد : نعم ، هـــو .

شامل : اهب لحظات دفء وامل . وماذا يطمح الانسان اكثر من ذلـــك ؟

ماجد : لعلها لحظات خداع ؟

شامل : انت تستخدم كلمات اخلاقية اكثر من اللازم .

ماجد : انا معني بالنتيجة .

شامل : وليكن خداعا . فهو ايضا الهبة في حياة جدباء .

ماجد : اصبحت تضجرني . ان ذلك عبث ، وسيوقعك في كارثـــة .

شامل : (ببرود) اسمع ، يا اخي . اليس رائعا للفقير ان توفر لـــه وجبة دسمة في لحظة من لحظات الترحم علـــى الموتى ؟

ماجد : انا لا افهمك .

شامل : انا الوجبة الدسمة بالنسبة لهيفاء الفقيرة الى رحمة الرجال . وجبة لم تحلم بمثلها .

ماجد : هكذا ، اذن .

شامل : بصراحة واخلاص .

ماجد : ولكنك ستحطمها .

شامل : لا ، ابــدا .

ماجد : لعلك لا تعرف قصتها .

شامل : اعرفها ، فهي ليست بخافية على احد عندنا .

ماجد : وهي ، ماذا ترى في توددك اليها ؟

شامل : لا شيء ، مجرد لحظات دفء وأمل .

ماجد : والاخـــرى .

شامل : دعها ، في الوقت الحاضر .

ماجد : في الوقت الحاضر ؟

شامل : هذا شيء يخصنا .

ماجد : ولكن الحب والوفاء .

شامل : لا قيمة للحب والوفاء والاشياء الاخرى اذا كنت انت بلا قيمة ، وبلا قدرة علـــى التأثـــير في الاخرين . سأؤجل ايماني بالقيم الى اشعار اخر ، كما يقال في المكاتبات الرسمية .

ماجد : ولكن الحب كيف يؤجل ؟

شامل : كل شيء قابل للتأجيل ، ما عدا الحياة نفسها . انها لا تقبل الانتظار . ثم انني لا اريد حبا محبطـــا ، حبا عاجزا يتقاسم فيه الخيبة الزوج والزوجة .

ماجد : انا لم اسمعبهذه اللهجة طيلة حياتي .

شامل : ولم تسمع بالزوجات اللائي طلقن ازواجهن من اجل وظيفـــة ؟

ماجـــد : انت تهـــزل .

شامل : لا ، والله . قبل اشهر اعلنت وزارة التربية عن وجود بعض الوظائف الشاغرة للمعلمات شرط ان تكون مقدمة الطلب غير متزوجة . فتواطأت بعض الزوجات مع ازواجهن على طلاق اسمي ، حتى اذا ظفرت بالوظيفة المنشودة عاد شمل العائلة فالتأم من جديد . كل ذلك اضطرارا وفي سبيل لقمة العيش ، بينما انا ... (وتلعثم وصمت برهة) انا على اية حال ، لم اتزوج ولم اطلق .

ماجد : ولكن تبدو وكأنك تقر هذه الطريقة ؟

شامل : لا اقرها ، ولكن لا اقف عاجزا ازاءها . الانسان قادر على التكيف والتخطي .

ماجد : ويبقى المعوق زارعا في طريقك آلاف الحواجز .

(تسمع ضجة . يصمت الاخوان . يدخل الطلاب في صخب مرح) .

خالد : ها هو شامل في صومعة الوحي .

جبار : متلبسا بهيئة تفكير عميق .

علوان : لا بد انه ما زال ضائعا في متاهة العلائق الانسانية .

كمال : سنخرجه اليوم منها .

جلال : ونريه طريق الخلاص .

خالد : اسمع ، يا شامل .

شامل : (يرفع رأسه)

خالد : لقد فكرنا في الموضوع طويلا .

جبار : وانتهينا الى حل .

لطيف : يريحك ويريحنا .

علوان : ارفع راسك عاليا ، يا شامل .
جلال : فقد وضعت لبنة الى اساس مسرحنا العراقي .
لطيف : المتضور جوعا الى النصوص .
جلال : رغم قناني الحليب المجفف التي رضعها من المسرحيات المعرقة .
شامل : اتركوني وشأني .
عدة اصوات : كيف نتركك وشأنك بعد ان قطعنا كل هذا الشوط الطويل ؟
خالد : واعدنا المنطق الى مسرحيتك .
شامل : لا حاجة اليها .
جبار : كيف لا حاجة اليها ؟
كمال : وكل شيء جاهز .
جلال : وما عليك الا ان تسمع .
شامل : لا اريد ان اسمع .
علوان : عجيب ! صرنا شخصيات تبحث عن مؤلف ، والمؤلف لا يريد ان يسمع .
خالد : ولكن المشهد سيعجبك كليا . انه على مزاجك .
شامل : كفوا عني .
لطيف : (يتلفت في الوجوه) الظاهر انه محرج .
ماجد : (بصوت خافت) يبدو انه محرج مني . دعكم . اذا كان لا يريد ان يسمع ، فأنا اريد .
جلال : الاخ له شبه بشامل .
ماجد : انا اخوه .

علوان : اذن لا بد انك ستفرح . شامل ابتكر مسرحية .
ماجد : سمعت شيئا عن ذلك .
جلال : ولكنه تخبط في متاهة العلائق الانسانية .
كمال : فاعترضنا عليه .
جبار : والان نقدم له مقترحات عملية لانقاذها ، فلا يقبل .
ماجد : اظنه سيقبل . باله مشغول الان ، ولكنه سينضم اليكم بفكره ، فيما بعد .
جبار : هيا ، يا كمال ، اشرح الامر ، فالاخ ...
ماجد : ماجـــد .
جبار : ... ليس غريبا بيننا .
كمال : حسنا . من ضمن التعديلات التي ادخلناها علـــى تصورات شامل ما يخص شخصية الاخ الاكبر .
شامل : ارجوكم اجلوا الموضوع .
ماجد : ماذا بالاخ الاكبـــر ؟
كمال : حسنا ، رسمه شامل متورطا بعلاقة مشبوهة مـــع زوجة اخيـــه .
ماجد : عجيـــب !
كمال : هذه العلاقة يمكن ان تكون مفهومة ، لان الاخ الاكبر كان في الغربة ، ولما عاد رأى اخاه قد كبـــر وتزوج امرأة غريبة .
ماجد : ومع ذلك ، فالامر يثير تساؤلا .
كمال : حاولنا تخفيف هذا التساؤل بارجاع الامر الـــى عقدة نفسيـــة .

ماجد : لا اظن اية عقدة نفسية تبرر تحللا .

كمال : حلمك معنا ! لقد قضى الابن الاكبر ردحا من الزمن في اوروبا .

جبار : وما اكثر العقد النفسية في اوروبا .

ماجد : ليس المهم ان تكون في اوروبا ، حيث العقد النفسية، ولكن المهم عند من كنت في اوروبا . انا نفسي كنت في اوروبا . وقد علمتني اوروبا الكثير . في اوروبا لا يمجد جميع الناس سقوط القيم وانهيار الاخلاق - والمهم بالنسبة للغريب المقيم فيها من وماذا يختار في اوروبا ؟

علوان : لا نريد ان ندخل في ايراد ومصرف . اردنا ان نجد تبريرا .

كمال : وجعلنا البطل يحس بعزلة نفسية .

ماجد : ربما كان يحس بها ، فقد احس بها كثيرون ، وانا من بينهم . ولكن لماذا تريدون ان تبرروا سقوطه بعمل خارجـــي ؟

خالد : لكي نوقف المسرحية على رجليها . انا ايضا املــك الحق في ان ابدي رايي في مسرحية شامل ، واجنبها السقوط ، لانني امثل دور الاب فيها .

ماجد : وما هو دور الاب ؟

جبار : كان شامل يريد ان يكون متخاذلا ضعيفا ازاء اولاده او بعض اولاده ، لانه .. لانه .. لماذا ، يا شامل.

شامل : (يصرخ) قلت كفى ! اجلوا الموضوع الى وقت

اخـــر .

جلال : كفى سياسة كم الافواه يا شـامل .

ماجد : لماذا ، ايها الاب ؟

خالد : لانني سمحت لابني المتوسط بأن يتخذ له زوجة من اصل وضيــع .

جبار : نعم ، لانه سمح لي بأن التقط فتاة من اصل مجهول .

خالد : اليس كذلك ، يا شـامل ؟

شـامل : (بحنق) كفاية ! لا تحولوا المسرحية الى مهزلة .

خالد : نريدك ان تدافع عن شخصياتك كمــا خلقتها ، او تتخلى عنها .

شـامل : لا تجرني الى الموضـوع جرا .

ماجد : دافع عنها ، اذا كنت مؤمنا بها بالشكل الذي خلقتها بــه .

شـامل : انا لم اخلق ، بل التقطت شرائح من الواقع .

خالد : وفسرته بالطريقة التي تحلو لك .

شـامل : انا مقتنع بتفسيري .

خالد : دافع اذن .

شـامل : لا اريد ، لانني قرف .

ماجد : ربما لانك محرج .

شـامل : لا تتصور ذلك . انا استطيع ان ادافع عن افكاري .

خالد : وهذا ما نريــده .

شـامل : لقد رسمت شخصيات اهانت نفسها . انا ضــد اهانة النفس (يحتدم) .

خالد : حسنا ، لنرجع الى موضوعي . كيف اهنت نفسي ،

انا الاب ، وقـد كونت عائلـة ، حين وصفتني بالعصامي ، وجعلت لي ابناء شق كل واحد منهم طريقا له في الحياة ، واصبح مسؤولا عن نفسه .

شامل : اهنت نفسك ، لانك استجبت لنوازع ابنك المريض، وسمحت لـه بأن يلتقط نبتـة عقيمة مـن احشاء المجتمع ، ويفرزها في حديقة دارك .

خالد : كان يسعدني ان اسعد اولادي . وما سعادة الاباء الا بسعادة الابناء ، كما يقولون .

شامل : ولكنها لم تكن الا سعادة زائفـة . فقد هـربت الناكرة للجميل بعد ان تكشف عقمها .

خالد : لم اكن اتنبأ بالغيب ، ولا زوجها .

شامل : واهنت نفسك ، لانك جعلت تبحث عن الزوجـة الهاربـة .

خالد : اين كان هذا ؟

شامل : في تصوري اللاحق للمسرحية .

جلال : انت تتصور ، وتتصـور . ولا نهاية لتصوراتـك المغرضـة .

خالد : وليكن ، دعه يتصور .

شامل : الم تهن بذلك شيخوختك ؟

خالد : ابدا ، كنت اريدها شيخوخة مطمئنة لا فقد فيها .

شامل : واي فقد في زوال ما كان نسيا منسيا ؟

جبار : اسمع ، يا شامل ، هذا الامر راجع لي ، انا زوجها. ربما كنت احبها .

شامل : كنت متهالكا على جسد .

جبار : (يصرخ) افرض انني كنت مرتاحا معها . (ضحك).

جلال : لماذا لا نفترض انه كان ظمآن في صحراء الحب فوجد ينبوعا وارتوى .

علوان : وكم من اناس قنعوا بمن وجدوا في اسرتهم .

شامل : وجد سرابا . وذلك ثمن سقوطه .

جبار : يا اخي ، احببتها ، احببتها والله العظيم .
(تدخل التفات وسناء)

التفات : (تصيح بهيئة تمثيلية) : من احببت ؟ هل احببت اخرى غيري ، انا زوجتك المسكينة الضائعة ؟

جبار : لك الى الابد .

التفات : هذا ما اتوقعه منك ، رغم كل الشامتين .

جبار : سأظل وفيا لك .

التفات : ارجوك ان تبحث عني في احشاء المجتمع ، على حد تعبير شامل الموفق .

جبار : سأبحث عنك ، سأقضي حياتي كلها في البحث عنك، بل ان شامل ، في لحظة من لحظات تقريع الضمير ، جعل ابي خالدا يبحث عنك .

التفات : صحيح ؟ شكرا ، يا شامل ، الف شكر .

شامل : اذا مضيتم في حواركم هذا ، خرجت من القاعة .

التفات : ولكننا نريدك ان تكون معنا .

جبار : خلقتنا وتريد ان تهرب منا ؟

خالد : لماذا هذه المعاملة السيئة لشخصياتك ؟

ماجد : يبدو انك ، يا شامل ، تفتقر لاي فهم للعائلة التي خلقتها .

سناء : (تصرخ فجأة ، وكأنها كانت تتعبأ بالغيظ طيلة الوقت) : اية عائلة خلق ؟ هذه عائلته . ومن لا يفهم عائلته لا يفهم العالم كله .
(الانظار تتصوب اليها)

التفات : (بدهشة) أهذا صحيح ؟

جلال : (كالمخاطب نفسه) والله ، ما شككت في اننا كنا نخوض في امور عائلية .

سناء : البارحة ، تسللت الى مطبخ بيته ، وتعرفت على اخته .

خالد : سناء ، الاخ ماجد (ويشير اليه) اخو شامل .

سناء : اهلا به (وتستمر في حديثها) لقد اوكل الي شامل مشكورا ان امثل دور الاخت ، ربة المطبخ . لم اتجاوز الاصول . بل تم ذلك بمحض المصادفة المنقذة ، ولا اريد ان اكتشفها .

شامل : سناء ، لا اسمح لك بهذا .

سناء : سمحت لنفسك بتوزيع ادوار افراد عائلتك علينا ، ولا تسمح لنا بالتعرف عليهم ؟

شامل : قد تكون الشخوص واقعية ، ولكن الافكار من عندي .

سناء : آه ، من افكارك ... اسمعوا ، لقد دلتني المصادفة على كنز انساني . اية فتاة هي ! حالمة تنظر في وجه محدثها بشغف ، تذوب لخدمة الجميع ، وتتوقع الخير من الجميع . اية رقة ! اي حب ! اي حنان ! لو وزع حنانها على البشر لما بقيت في قلب انسان غلظة . تلك هي الانسانة التي تعرفت عليها .

(صمت . الجميع محرجون)

خالد : (بصوت عاطفي) نحن اسفون ، ربما شططنا .

جبار : ربما اخطأنا في التفسير .

التفات : ربما حملنا القضية اكثر مما تحتمل .

ماجد : بل وربما وضعتم النقاط على بعض الحروف .

صيف ١٩٧٨

هذه الروايـــة

عندما صدرت رواية « النخلة والجيران » قبل ثلاثة عشر عاماً ، اعتبر صدورها مولداً للرواية الفنية المعاصرة في العراق ، واعتبر بعضهم كاتبها « غائب طعمة فرمان » (الأب الشرعي) لهذا اللون من الرواية . ومنذ ذلك التاريخ ، واستناداً الى ماض أدبي مشهور وطويل ، اصدر « غائب » روايات أخرى بوأته مكانا طليعياً بين الروائيين العراقيين ، وربطت اسمـــه بالتطور اللاحق للرواية العربية في العراق . بل واعتبره « غسان كنفاني » « من أحسن الذين يمسكون القلم في هذه الفترة » .

و « ظلال على النافذة » هي الرواية الخامسة لهذا الروائي العربي العراقي ينحو فيها منحى يختلف بشكله الفني عن رواياته السابقة . انها رواية بثلاث طبقات مشحونة بلحظات التوتـــر لاختيار الموقف ، حتى لو كان يمـــر عبر المعاناة والعذاب والتضحية . والصدق مع النفس يبدو ، أحياناً ، الشاهد الوحيد على هـــذه التضحية . و « الضمير » الذي يبدو ، في روايات غائب كلها ، البطل الحقيقي والخفي ، يسيطر هنـــا على الرواية بكل ما فيها من آلام . انه صنو الصدق مع النفس ، انه التاريخ الحي للانسان . . انه الذاكرة التي لا تمحى !

ان « ظلال على النافذة » رواية تشدك اليها ، لأنها مكتوبة بصدق واقعي وفني عميق . انها شهادة أخرى من شهادات غائب طعمه فرمان .

الثمن : ١٦ ل.ل. او ما يعادلها